المشرق والمغرب العربى
دراسات فى التاريخ الحديث والمعاصر

دكتور/ عبد المنعم ابراهيم الجميعى
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
كلية الآداب – جامعة الفيوم

القاهرة ٢٠١٣

مقدمـــة

بين ثنايا هذا الكتاب مجموعة من الدراسات فى تاريخ العالم العربى الحديث والمعاصر، مشرقه ومغربه، وهى وأن تنوعت فى موضوعاتها وأزمنتها وأمكنتها فانها ترتبط بإطار واحد هو استعراض للتاريخ الحديث فى بعض البلدان العربية منذ بدايته فى العصر العثمانى وحتى العصر الحاضر بما طرأت عليه من عوامل قوة أضاءت له الطريق إلى الأمام، وعوامل ضعف أوقفت تطوره، وقللت من شأنه.

وكان من المنطقى أن تبدأ هذه الدراسات بموضوع العثمانيون والعالم العربى والحركات الانفصالية التى حدثت فى بعض البلدان العربية ضد الدولة العثمانية ثم التدخل السياسى الأوربى فى العالم العربى ومضاعفاته والحركات السياسية والفكرية وظهور فكرة الجامعة الإسلامية وحركة التتريك وأحوال العالم العربى السياسية اثناء الحرب العالمية الأولى وفى أعقابها وقضايا المشرق العربى ومراحل كفاحه حتى الاستقلال وخاصة العراق وسوريا ولبنان والأردن وفلسطين.

أما عن تاريخ المغرب العربى فقد شمل موضوعات أربعة هى: تاريخ الجزائر الحديث منذ العصر العثمانى وامتدادا للاحتلال الفرنسى والذى ينتهى بكفاح الشعب الجزائرى وتضحياته من أجل الاستقلال وإقامة حكومة وطنية على أرضه، وتاريخ ليبيا الحديث منذ العصر العثمانى وامتدادا للاحتلال الايطالى له والذى ينتهى بكفاح الشعب الليبى حتى تحقق له الاستقلال، ويزامن ذلك دور الجامعة العربية فى مساندتها لهذه القضية.

كما تناولت هذه الدراسات تاريخ تونس الحديث منذ دخول العثمانيين والاحتلال الفرنسى لها ثم تاريخ المغرب (مراكش) الحديث والمعاصر وكفاح المغاربة ضد الفرنسيين والأسبان وانتهت بدراسة عن نشأة الجامعة العربية وأنشطتها على الساحتين الدولية والعربية.

أسال الله تعالى أن يجعل هذه الدراسات من العلم النافع وأن يعصمنا من الزلل، كما أسأله العون والسداد فى القول والعمل والتوفيق فى خدمة وطننا العزيز مصر.

د. عبد المنعم الجميعى

الفصل الأول
العثمانيون والعالم العربى

العثمانيون بين قوتين:

فى بدايات القرن العاشر الهجرى ، السادس عشر الميلادى تزعم العالم الاسلامى ثلاث قوى متميزة وهى: دولة المماليك فى مصر والشام والحجاز واليمن، والدولة الصفوية فى فارس، والدولة العثمانية فى الأناضول والبلقان، وقد استطاعت أن تمد سيطرتها إلى المجر.

ولما كانت كل قوة من هذه القوى تخشى على نفسها من تعاظم القوتين الآخريين فقد عمل كل طرف من هذه الأطراف على إيجاد عملية توازن مع الطرفين الآخرين حتى لا يشكل أحدهما خطرا عليه. وعلى الرغم من ذلك فإن الصدام بين هذه القوى كان متوقعا ، وكان الحذر المشوب بالقلق ينتاب كلا منهم تجاه الآخر، وانتهى الأمر بتحول الجهاد الاسلامى ضد النصارى إلى حروب فيما بين المسلمين أنفسهم، وفيما يلى نعرض لهذه الأطراف الثلاثة، والصراع الذى حدث بينهم وانتهى بانتصار العثمانيين.

أولا: الصفويون:

ينتسب الصفويون إلى الشيخ صفى الدين اسحق الأردبيلى[١] (٦٥٠- ٧٣٥هـ) (١٢٥٢- ١٣٣٤م) وقد بدأ نفوذهم يبرز فى إيران خلال القرن التاسع الهجرى وكانوا يقولون بامتداد نسبهم إلى الحسين بن على بن أبى طالب[٢] من جهة، وإلى يزدجرد الساسانى من جهة أخرى، وقد أسس أحدهم وهو اسماعيل الصفوى دولتهم فى اذربيجان عام ٩٦٠هـ/ ١٥٠٠م ثم بسط نفوذه فى شروان والعراق والأوزبك وفارس واتخذ من تبريز[٣] عاصمة لدولته.

---

(١)اردبيل فى اذربيجان

(٢)لتفاصيل ذلك انظر د. ربيع جمعه، الشاة اسماعيل الكبير، بيروت، دار النهضة العربية ١٩٨٠.

(٣)تقع فى الشمال الغربى من ايران بالقرب من الحدود التركية.

وما إن تم لاسماعيل الصفوى بسط نفوذه على ايران كلها حتى كشف عن عزمه على إعلاء شأن الشيعة[١]، فأعلن أنه سليل الإمام السابع[٢]، كما أعلن أن المذهب الشيعى هو دين الدولة. ولكى يحقق أهدافه فى تحويل إيران إلى المذهب الشيعى رأى أن القوة السياسية يجب ان تساندها قوة عسكرية مخلصة تربطها به وشائج عقائدية متينة تجعلها مستعدة للاستماتة فى الدفاع عن معتقداتها، ومن هنا اعتمد على القوى العشائرية المتعصبة للمذهب الشيعى حتى صارت دعامة قوية وسندا للأسرة الصفوية[٣]. وحارب اسماعيل الصفوى أهل السنة، وكان أهل السنة أكثرية سكان البلاد فى ذلك الوقت[٤]، وراح يحملهم قسرا على الدخول فى المذهب الشيعى ومن أجل ذلك لم يتردد فى إفناء مدن بأسرها والقضاء على العلماء والأعلام زرافات ووحدانا حين يرفضون الاستجابة لدعوته. [٥]

وفى هذا الوقت الذى ظهر فيه الصفويون كان البرتغاليون يلتفون حول افريقية ويدخلون المحيط الهندى، ولما اتصلوا بشيعة إيران لم يجدوا صعوبة فى التعاون معهم من أجل القضاء على الأساطيل العربية، واحتلال سواحل الخليج، وتصفية الحكم العربى اينما وجد، وغزو الجزيرة العربية[٦]، فى نظير مساعدة البرتغاليين للشاة فى اخماد ثورة مكران. [٧]

ولما كان العثمانيون يعدون أنفسهم حماة المذهب السنى فقد وجدوا فى الدعوة الصفوية الشيعية تحديا أساسيا لهم، وخطرا على مستقبلهم وخصوصا ان الشاه

---

(١)د. احمد محمود الساداتى: تاريخ الدول الاسلامية بآسيا وحضارتها، القاهرة، دار الثقافة للطباعة والنسر ١٩٧٩م، ص ١٥٢.

(٢)الامام السابع عند الامامية الجعفرية هو موسى الكاظم.

(٣)عبد العزيز نوار: الشعوب الاسلامية، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٧٣، ص ٢٢٠- ٢٢١.

(٤)ارنولد توينبى: تاريخ البشرية جـ٢، ترجمة نقولا زيادة، بيروت، الأهلية للنشر ١٩٨٨، ص ١٨٨. وأيضا د. عبد الله محمد غريب وجاء دور المجوس- الأبعاد التاريخية والعقائدية والسياسية للثورة الايرانية، القاهرة، دار الجيل للطباعة ١٩٨١، ص ٨٠.

(٥)الساداتى: المرجع السابق، ص ١٥٢.

(٦)كان من أهداف غزو الجزيرة العربية قيام البرتغاليين بالاعتداء على مكة والمدينة ولكن الله حمى بيته الحرام ومثوى رسوله الأمين.

للتفاصيل انظر ل. جى. لوريمر: الكويت فى دليل الخليج، الكويت، الجزء الأول، الطبعة الأولى ١٩٨١ ، ص ١٠.

(٧)أمين سعيد : الخليج العربى فى تاريخه السياسى ونهضته الحديثة، بيروت، دار الكاتب العربى ، ص ٢٩.

اسماعيل الصفوى بدأ يمد نفوذه على العراق وعلى مناطق الأوزبك[١]، وشرق الأناضول ، ويرسل مئات الدعاة لنشر المذهب الشيعى هناك[٢]، حتى لقى هذا المذهب استجابة واسعة فى هذه المناطق[٣]، ونتيجة لذلك غير السلطان سليم الأول- الذى تولى العرش بتأييد من الانكشارية باعتباره منقذا للامبراطورية العثمانية من الخطر الشيعى- خطة أسلافه بالتوسع شطر شرق أوربا إلى جنوبى الأناضول لمقاتلة الصفويين ووقف المد الشيعى تجاه بلاده، فأعلن سليم الأول الحرب على الصفويين ، وزحف بجيوشه من مدينة أدرنة فى ٢٢ من المحرم ٩٢٠ هـ، الموافق ١٩ من مارس ١٥١٤ قاصدا مدينة تبريز، ولكى تنهك قوات الشاة اسماعيل الصفوى قوى العثمانيين بدأت تتقهقر أمامهم فى محاولة لاستدراجهم[٤]، واستمر الصفويون فى تقهقرهم حتى دارت المعركة الحاسمة بين سليم الأول والشاة اسماعيل الصفوى فى وادى شالدران (جالديران) فى ٦ من رجب ٩٢٠هـ/ ١٥١٤ وانهزم الفرس وانتصرت الجيوش العثمانية[٥]، بعد معركة فاصلة وصفها أحد المعاصرين بقوله كان بينهما هناك وقعة مهولة تشيب منها النواصى ، وتذهل العقول عند سماعها من كل دان وقاص، فصيرت الرؤوس عن الأجساد طائرة، وطفشت[٦]، العساكر بالخيول الغائرة، ووقع القتل بالسيف حتى أجرى الدماء منهم كالسيل .. فيا لها من ساعة مهولة، لا ترضى الله ولا رسوله ، فوقعت الكسرة على عساكر ابن عثمان أولا وقتل من عسكره ما لا يحصى عددهم... فلما غاين ابن عثمان ما وقع له من هذه الكسرة.. قام على عسكره

---

(١)كان الأوزبك يحكمون بلاد ما وراء النهر التى تضم التركستان وبخارى وسمرقند.
(٢)احمد عبد الرحيم مصطفى : فى أصول التاريخ العثمانى، بيروت، دار الشروق، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢، ص ٧٧.
(٣)عبد العزيز الشناوى: الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها، جـ١، القاهرة، الأنجلو المصرية ص ١٩.
(٤)محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية- تحقيق احسان حقى، بيروت، دار النفائس، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣، ص ١٩٠.
(٥)عبد العزيز نوار : تاريخ العراق الحديث من نهاية حكم داود باشا إلى نهاية مدحت باشا، القاهرة، دار الكاتب العربى ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م، ص ٦.
(٦)كلمة عامية بمعنى فرت.

وحضهم على القتال... فانكسر الصوفى وولى مهزوما وقتل من عسكره أضعاف ما قتل من عساكر الروم. [1]

وفر الشاة بعد اصابته بجروح ، ووقع كثير من قواده وجنده فى الأسر وأسرت أيضا احدى زوجاته، وفتحت المدينة أبوابها ودخلها السلطان منصورا فى ١٤ من رجب ٩٢٠هـ واستولى على خزائن الشاة وأرسلها إلى القسطنطينية[2]، وقطع رؤوس من قتل من أمراء أعدائه وأرسلها إلى بلاده فطافوا بها هناك[3]، ولكن سليما لم يشأ أن يتابع تقدمه إلى ما وراء تبريز نظرا لامتناع الانكشارية عن التقدم لاشتداد البرد، وصعوبة المسالك ، وقلة المؤونة اللازمة فقفل راجعا إلى بلاده مكتفيا بكبح جماح الفرس[4]، وخشية ثورة الانكشارية عليه.

ونتيجة لمعارك السلطان سليم مع الصفويين يتضح ما يلى:

١- نجاح العثمانيين فى الحد من نشر المذهب الشيعى فى الأناضول والبلاد العربية حيث منعوا زحف المذهب الشيعى على الشرق العربى الأسيوى ومصر، وأستأصلوا هذا المذهب من الأناضول. [5]

٢- استثمار أوربا لهذه الخلافات ومحاولتها التسلل إلى الشرق الاسلامى، ومدها للفرس بالأسلحة الحديثة ليحاربوا بها العثمانيين بغية الحد من زحفهم المتواصل على أوربا. [6]

٣- استيلاء العثمانيين على ديار بكر، ومد سلطانهم على الأجزاء الشمالية من العراق.

٤- هز كيان الموالين لايران وزعزعة نفوذهم. [7]

([1])محمد بن اياس: بدائع الزهور فى وقائع الدهور جـ٤، القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ص ٤٠٢- ٤٠٣.

([2])محمد فريد، المرجع السابق، ص ١٩٠.

([3])ابن اياس: المصدر السابق، ص ٤٠٣.

([4])نوار: المرجع السابق، ص ٦.

([5])الشناوى: المرجع السابق، جـ١، ص ٢٤.

([6])الساداتى : المرجع السابق، ص ٢٥٢.

([7])مجموعة الأساتذة : العراق فى التاريخ ، بغداد ١٩٨٣، ص ٥٦٨.

ثانيا: الأتراك العثمانيون:

ينتمى العثمانيون الأوائل إلى احدى عشائر قبيلة الغز التركية، والتى تعرف باسم قابى، وقد هاجرت هذه القبيلة من المشرق إلى الأناضول فى القرن الثالث عشر الميلادى هربا من جنكيزخان ووصلت إلى آسيا الصغرى وبعض شواطئ البحر الأسود وأرمينيا حيث التجأت إلى السلاجقة المسلمين فحموهم وأقطعوهم أراضى لمواشيهم.

وكانوا يعتمدون فى حل ما يواجههم من مشكلات على زعيمهم عثمان الذى ولد على حسب الروايات التاريخية فى عام ١٢٥٨م، ولما كانت الحروب الصليبية قد دارت رحاها فى ذلك الوقت فقد تطوع عثمان مع بعض رجاله لنصرة بعض سلاطين السلاجقة ، واظهر شجاعة وحسن دراية فاستدعى ذلك مكافأته وتقديره، فعين حاكما على احدى المقاطعات، وبعد وفاة السلطان السلجوقى أعلن عثمان استقلاله[١]، وبسقوط دولة السلاجقة على يد المغول الايلخانيين تمكنت الامارة من استقطاب عدد من الامارات التركية المسلمة فى الأناضول وهى الامارات الناشئة على انقاض دولة السلاجقة واستأنفت توسعها غربا فاتجهت منذ سنة ١٣٤٥م إلى أوربا الشرقية فاستولت على أجزاء كبيرة منها وتوجت أعمالها العسكرية فى عهد محمد الفاتح بفتح القسطنطينية عام ١٤٥٣م.

وما أن انتهى القرن الخامس عشر حتى كانت الدولة العثمانية تشمل الأناضول واليونان وشبه جزيرة البلقان وجزائر بحر ايجة وجزيرة فى جنوب ايطاليا. [٢]

وفى عهد السلطان سليم الأول ١٥١٢- ١٥٢٠ اتجهت الفتوحات نحو الشرق، بعد تحديات الشاه اسماعيل الصفوى لأهل السنة والجماعة، فدفع ذلك سليما إلى العمل على مد سلطانه إلى الأناضول وبلاد الشام. ولم يكن السلطان سليم يرى كبير فرق بين الشاه اسماعيل وجنده، وبين أى من حكام اوربا فى عدائهم للاسلام ، خصوصا أن الشاه رسم سياسته التوسعية على أساس التحالف مع البرتغاليين ، ولما كان العثمانيون يعدون أنفسهم حماة المذهب السنى فقد اتخذت عملياتهم العسكرية ضد الصفويين شكل

---

(١) ميخائيل مشاقة: مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان، القاهرة، ١٩٠٨م، ص ١٩.
(٢) العراق فى التاريخ ص ٥٦٦- ٥٦٧.

التدمير والقسوة البالغة[١]، وانتهت بانتصارهم فى جالديران ودخول تبريز عاصمة الصفويين، وزعزعة النفوذ الأيرانى فى المنطقة، وهز كيان الموالين لهم[٢]، وبعد خروج الصفويين من حلبة الصراع بدأ السلطان سليم يوجه جهوده لاخضاع المماليك، واعداد العدة لتوحيد الجبهة الاسلامية.

ثالثا: المماليك:

جلب المماليك من مناطق عدة من أبرزها شبه جزيرة القرم وتركستان وبلاد القوقاز والقفجاق وآسيا الصغرى وفارس والبحر الأسود[٣]، وكان ذلك بطريق الشراء من اسواق النخاسة. [٤]

وكان الملك الصالح نجم الدين أيوب اول من اشترى المماليك بشكل مكثف واتخذ منهم جندا بأعداد كثيفة، وبعد وفاته أفلت زمام الأمور من الأيوبيين وتمكن المماليك من السيطرة على زمام الموقف والقضاء على توران شاة الوريث الشرعى للحكم.

وقد حكم المماليك العديد من البلدان الاسلامية وبخاصة مصر والشام والحجاز، واستطاعوا حماية ديار الاسلام من المغول الذين تمكنوا من القضاء على الخلافة العباسية والاستيلاء على بغداد فى عام ٦٥٦هـ، كما تمكنوا من الثبات أمام قوى الصليبين الذين حكموا العديد من بلاد الشام لفترة ثم أخرجوهم منها.

ونتيجة لحركة الكشوف الجغرافية وتحويل طريق التجارة إلى راس الرجاء الصالح بدأت أحوال المماليك فى التدهور والضعف بشكل مكن البرتغاليين من

([١])أكرم العلبى : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ٩٠٦- ٩٢٢هـ/ ١٥٠٠- ١٥٢٠م ، دمشق، المتحدة للتوزيع، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ص ٣٦٨.

([٢])العراق فى التاريخ ، ص ٥٦٨.

([٣])للتفاصيل انظر: ابو العباس القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء، جـ٤، القاهرة، ١٩٢٢، ص ٤٤٧.

([٤])كان بالقاهرة أسواق لهذا الرقيق تعقد فى خان الخليلى ، وكان للسلاطين عمال يختارون لهم ما يناسبهم من الغلمان كما كان الأمراء والوزراء والقضاة يختارون من شاءوا منهم أناثا وذكورا فيذهبون بالنجباء منهم إلى المدارس يلقنونهم أصول الدين والعلم ثم يدربونهم على فنون الحرب وقيادة الجند.

هزيمتهم فى موقعة ديو البحرية فى عام ١٥٠٩م والاستيلاء على بعض المناطق الاستراتيجية فى البحر الأحمر وتهديد الأماكن الاسلامية المقدسة فى الحجاز وفى خلال ذلك كانت العلاقات المملوكية مع العثمانيين جيدة، لدرجة أن قام العثمانيون بمساعدة المماليك لتقوية أسطولهم البحرى حتى يتمكن من مواجهة البرتغاليين ، ولكن ذلك لم يستمر طويلا فبعد انتصار السلطان سليم العثمانى على الصفويين بدأ فى التحرش بالمماليك حيث دمر إمارة البستان[١]، الواقعة تحت حمايتهم ، وحشد قواته فى مواجهتهم وخاصة أنهم قاموا بإيواء الثائرين عليه ومنهم الأمير جم ابن السلطان محمد الثانى الذى كان يرى نفسه احق من السلطان سليم بالحكم ، ورفضوا تسليم اللاجئين إليهم.

وبعد أن ارسل السلطان سليم الأول فى يونيو ١٥١٦ برسالة مهينة إلى السلطان قنصوة الغورى يطالبه فيها بأن يلاقيه عند مرج دابق ، أخذ الغورى فى الاستعداد لملاقاة العثمانيين ، وطلب من مماليكه الاستعداد للمعركة ومن قوله فى هذا الشأن والذى منكم متزوج يطلق زوجته حتى لا يبقى وراءكم التفاتة إذا سافرتم فى التجريدة[٢]، كما طلب من الخليفة العباسى فى مصر محمد المتوكل الاستعداد للسفر معه.

ومضى الغورى على رأس جيشه إلى بلاد الشام، وأناب عنه طومان باى فى مصر، ووصل الغورى إلى حلب فى يوليو ١٥١٦م، وحدث قتال شديد بين الطرفين انهزم فيه العثمانيون فى بداية الأمر لدرجة أن هم السلطان سليم بالهرب وخاصة بعد أن قتل من عساكره ما يزيد عن عشرة آلاف[٣]، ولكن سرعان ما لعبت الخيانة دورها فقد أطلق "خاير بك" نائب حلب – الذى استطاع السلطان العثمانى رشوته وضمه إلى صفوفه – بعض الشائعات بين صفوف المماليك بهدف إحداث الفرقة بينهم ومنها أن السلطان المملوكى أبعد مماليكه الجلبان عن قلب المعركة ، وترك لجنود القرانصة

---

(١)لهذه الإمارة أسماء أخرى منها ذو القادر.
(٢)للتفاصيل انظر: ابن اياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور، جـ٣، القاهرة، المطبعة الأميرية ببولاق الطبعة الأولى، ١٣١٢هـ، ص ٥.
(٣)ابن اياس : المصدر السابق، جـ٣، ص ٤٧.

وقودا للحرب ومنها أن السلطان الغورى قتل فى أثناء المعركة فتبلبلت الأفكار ، وشاع الذعر فى صفوف المماليك لدرجة أن اضطربت أحوالهم وأخذ بعضهم فى الفرار، ولم ينجح الغورى فى السيطرة على الموقف وأفلت منه الزمام ونتيجة لعدم تحمله لصدمة الهزيمة انقلب من فوق جواده على الأرض فاقد الوعى[1]، وداسته سنابك خيول العثمانيين المندفعة وراء المماليك المتقهقرين ، فلما رأى ذلك أمراؤه القريبون منه خشوا أن يقع فى أسر العثمانيين فيفصلوا رأسه عن جسده ، ويطوفوا بها فى بلادهم فقرروا قتله بأنفسهم فقطعوا رأسه ورموها فى جب وأخذوا جثته وألقوها فى نهر قريب. [٢]

وانتهت معركة مرج دابق التى لم تستمر سوى يوم واحد وذهب ضحيتها الألوف بين الطرفين بتغيير الأوضاع فى العالم الاسلامى فاستولى العثمانيون على بلاد الشام وبدأوا فى التأهب للسيطرة على مصر.

ويرجع أسباب هذا الانتصار إلى عوامل عدة من أهمها:

١- تفوق القوات العثمانية فى سلاح المدفعية الذى لا يمتلكه المماليك.

٢- خيانة خاير بك نائب السلطان الغورى فى حلب.

٣- الوقيعة بين المماليك الجلبان والقرانصة عند احتدام المعارك.

وقد دخل السلطان سليم حلب دون مقاومة، فأمن أهلها على أرواحهم وأولادهم وأموالهم[٣]، كما دخل دمشق وغيرها من المدن السورية.

وعادت فلول الجيش المملوكى إلى مصر وهم فى أسوأ حال فكانوا ممزقى الثياب ، نحيلى الأجسام، وبعد أن وصل نبأ الهزيمة إلى القاهرة اجتمع المماليك لاختيار سلطان جديد يتولى أمور البلاد. واستقرت أمور البلاد فى النهاية على اختيار

---

(١)ابن زنبل: تاريخ السلطان سليم مع قانصوه الغورى ، جزءان ، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٨.

(٢)ابن زنبل : ص ٥٠.

(٣)القرمانى: أخبار الدول وآثار الدول، القاهرة، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٦٢٦ ، ص ٩٩.

" طومان باى" ولما تردد طومان باى فى الأمر خشية الغدر به قام الأمراء بالقسم على المصحف بألا يغدروا به أو يثيروا فتنا ضده. [1]

وبعد أن علم طومان باى بزحف السلطان سليم على مصر، ووصوله إلى غزة نادى المماليك بالخروج من غير تأخر ، فخرج العسكر مسرعين ، ووقعت معارك عنيفة انكسر فيها المماليك ثم أخذ طومان باى فى إعادة تجميع صفوفه عند الريدانية (بالقرب من العباسية). ولما أقبلت العساكر العثمانية التقى معها المماليك فى معركة مهولة انتهت بهزيمتهم وانكسارهم. [2]

ودخل العثمانيون القاهرة بالسيف عنوة فى يوم الجمعة الموافق ٢٣ من يناير ١٥١٧ وخطب للسلطان سليم على منابرها ، مع ذلك لم يستسلم طومان باى فقد أخذ يعد العدة للمقاومة واشتبك مع العثمانيين فى عدة معارك ولما لم يتمكن من الظفر بهم احتمى عند أحد مشاريخ العربان ولكن الشيخ الذى احتمى عنده تنكر له وسلمه للسلطان سليم فأمر باعدامه.

ويذكر ابن اياس أن طومان باى طلب من الناس فى أثناء ذهابه إلى المشنقة أن يقرأوا عليه " الفاتحة ثلاث مرات" ثم بسط يده وقرأ الفاتحة ثلاث مرات وقرأت الناس معه ثم قال للمشاعلى اعمل شغلك ... فلما شنق وطلعت روحه صرخت عليه الناس صرخة عظيمة وكثر عليه الحزن والأسف. [3]

وباعدام طومان باى انتهت سلطنة المماليك على مصر، كما انتهت من قبل على الشام بمقتل الغورى ، وخضعت البلاد حوالى أربعة قرون تحت السيادة العثمانية.

أما عن الحجاز فقد خضعت سلما للعثمانيين ، فقد أرسل الشريف بركات ابنه أبونمى إلى السلطان سليم بالقاهرة ليهنئه بانتصاراته على المماليك وحكم مصر

([1])ابن اياس : المصدر السابق، جـ٣، ص ٦٩.
([2])ابن اياس : المصدر السابق، جـ٣، ص ٩٧.
([3])ابن اياس : المصدر السابق، ص ١١٥.

وليعلن الولاء للعثمانيين فثبته السلطان سليم على شرافة مكة ، وجعله المتصرف فى أمرها ، كما أضاف إليه أمور الحسبة بمكة أيضا. [1]

نظام الحكم العثمانى فى العالم العربى

ارتكز نظام الحكم العثمانى فى العالم العربى على أربعة أمور أساسية هى:

١- الابقاء على أحوال العالم العربى الاجتماعية والعلمية والاقتصادية والتركيبة السكانية كما هى قبل الفتح العثمانى لها، فلم تحاول الدولة العثمانية مثلا صبغ أهل الولايات العربية التابعة لها بالصبغة العثمانية أو بربطهم برباط الحضارة العثمانية[2]، كما لم تحاول فرض اللغة التركية عليهم بدلا من العربية.

٢- عزل العالم العربى عزلا يكاد يكون تاما عن التيارات الاقتصادية والسياسية العالمية بحيث لا يتأثر بما يدور فى العالم الخارجى.

٣- كان المجتمع فى نظر العثمانيين عبارة عن قسمين: الأتراك وهم الحكام الذين يتمتعون بكافة الامتيازات ، والرعية وهم المحكومون الذين يتحتم عليهم خدمة الحكام والاستجابة لمطالبهم، وقد أدى انعزال الطبقة الحاكمة التركية عن الأهالى وتعالى أفرادها عليهم إلى ضآلة تأثير الحكم العثمانى. [3]

٤- ان فكرة الحكم عند العثمانيين كانت ترتكز على أن للدولة وظائف محددة، ومسئوليتها لا تخرج عن المحافظة على سيادتها ومصالحها فى هذه الولايات أما عن الخدمات العامة مثل التعليم والصحة فانها لا تدخل ضمن مسئوليتها أو اختصاصاتها، ومن هنا تحددت مهام الدولة العثمانية فيما يلى:

- الدفاع عن الولايات التابعة للدولة وحفظ الأمن فيها.
- جمع الأموال وإنشاء إدارة مالية خاصة بذلك.
- إقامة نظام قضائى للفصل فى المنازعات التى تحدث بين الأهالى.

---

(1) ابن اياس : المصدر السابق، جـ٣، ص ١٢٤- ١٢٦.
(2) محمد رفعت رمضان : على بك الكبير ، القاهرة، دار الفكر العربى، ١٩٥٠، ص ٦.
(3) محمد انيس: حضارة مصر الحديثة، ص ١٤٤.

وعلى هذا النحو ارتكزت فلسفة الحكم العثمانى على عدة أنظمة كان أهمها: الوالى – الديوان – الحامية العثمانية – العصبيات المحلية[1]، وفيما يلى نعرض لذلك:

أولا: الوالـــى:

كان السلطان العثمانى يعين الوالى بصفته نائبا له فى الولاية التى يحكمها وكان يلقب بعدة ألقاب منها لقب الباشا وقد وكلت إليه السلطتان المدنية والعسكرية ومسئولية جمع الضرائب. فكان على رأس الجهاز الإدارى وكان يقود الجيوش بنفسه[2]، ويبلغ الرعايا بأوامر السلطان ويقوم بإرسال المقررات المفروضة على ولايته إلى الخزانة السلطانية، ومع كل ذلك فانه نظرا لشكوك السلاطين فى ولاتهم وعدم الثقة فيهم وخشيتهم من الانفصال بولاياتهم عن الدولة العثمانية، فقد أحاط السلاطين الولاة بجواسيسهم وعمالهم، وأخذوا ينتزعون منهم العديد من اختصاصاتهم ، فتركزت النواحى المالية فى يد الدفتردار الذى كان يعين رأسا من القسطنطينية وتركزت النواحى الإدارية فى يد الكتخدا أو الكخيا الذى كان تعيينه يتم بالقسطنطينية ، وكانت السلطة القضائية ينفرد بها قاضى القضاة الحنفى الذى كانت ترسله القسطنطينية، وإلى جانب ذلك كانت الحاميات العثمانية (الاوجاقات) تخضع لسلطة الأغوات الذين لم يكن للوالى سلطات عليهم[3]، وكثيرا ما حدثت النزاعات بينهما ، يضاف إلى ذلك أن مدة حكم الولاة كانت تقتصر على عام واحد يتجدد فى بعض الحالات ولا يستكمل فى حالات أخرى.

ونتيجة لذلك حرص الولاة على جمع كل ما يمكن جمعه من الأموال خلال فترة حكمهم، وبشتى الطرق مشروعة وغير مشروعة، ومحاولة ملء خزائنهم خلال تلك الفترة القصيرة التى يقضونها فى ولاياتهم وخاصة أنهم كانوا يشترون مناصبهم

([1]) محمد عبد المنعم الراقد: الغزو العثمانى لمصر ونتائجه على الوطن العربى، الاسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٦٨، ص ٢٦٨.

([2])أميرة المداح: العثمانيون والأمام القاسم محمد فى اليمن، جدة، مكتبة تهامة ١٩٨٢، ص ١٤٨.

([3])محمد انيس: المرجع السابق، ص ١٤٤.

قبل توليتهم إياها. هذا بالإضافة إلى اهمالهم للمشروعات العمرانية والإصلاحية مثل: حفر الترع أو إقامة السدود أو غيرها. (1)

ثانيا: الديـوان:

الديوان كلمة فارسية بمعنى الدفتر أو السجل، وقد أطلق على المكان أو الدائرة التى تحفظ فيها السجلات من باب المجاز(2)، ثم شمل بعد ذلك المكان الذى يحفظ فيه كل ما يتعلق بحقوق السلطنة العثمانية من الأموال والأعمال ومن يقوم بها من العمال والجيوش وكان الديوان ينقسم إلى قسمين:

الديوان الكبير: وهو الذى يفصل فى الموضوعات المهمة، ولا يجتمع إلا بأمر الباشا.

الديوان الصغير وكان يتألف من الكتخدا والدفتردار وهو الذى ينظر فى شئون البلاد العامة، وينفذ الباشا قراراته. (3)

ويتكون الديوان الكبير من كبار ضباط الحامية وعلى رأسهم أغا الانكشارية والدفتردار والعلماء وكبار المسئولين، وكانت العضوية فى الديوان غير ثابتة ، وكان الباشا فى معظم الأحيان هو الذى يختار أعضاؤه.

وكان للديوان تأثير كبير فى إدارة الولايات(4)، فكان بمثابة مجلس وزراء موسع مهمته الرئيسية مراقبة قرارات الوالى والنظر فى الشئون الاقتصادية والإدارية، وتنظيم شئون القوات العسكرية.

ونتيجة لخشية الدولة العثمانية من تمرد ولاتها عليها والاستقلال بولاياتهم جعلت من أعضاء الديوان عيونا لها على الولاة يبلغوها بتصرفاتهم لمنع الولاة من إساءة استعمال سلطتهم.

---

(1)للتفاصيل انظر: محمد كرد على: خطط الشام، جـ2، بيروت، النهضة العربية، 1972، ص 225.

(2)صبحى الصالح : النظم الاسلامية، جـ2، بيروت، دار العلم، الطبعة الأولى 1396هـ ص 312

(3)محمد فؤاد شكرى: الحملة الفرنسية وظهور محمد على، القاهرة، مطبعة المعارف، 1963، ص 10-11.

(4)كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية- ترجمة نبيه أمين ومنير العلبكى، بيروت، دار العلم للملايين، 1979، ص 477.

ثالثا: الحامية العثمانية:

هى قوة عسكرية عثمانية كانت ترابط فى الولايات وقد أسست هذه الحاميات فى أعقاب الفتوحات العثمانية للوطن العربى، فبعد أن فتح السلطان سليم الأول مصر ترك بها حامية تتألف من حوالى اثنى عشر الف جندى يتكون منها ستة أوجاقات على رأس كل منها أغا، وكانت هذه الحامية تتكون من أخلاط مختلفة من العسكر. (١)

وكانت مهمة الحاميات: حفظ النظام والدفاع عن الولايات ضد أى خطر خارجى، وقمع العربان، كما كان لها اختصاصات سياسية وإدارية، فكان رؤساؤها يشاركون الوالى فى الحكم كما كانوا يحضرون اجتماعات الديوان، وكانت لهم الكلمة المسموعة. وإلى جانب ذلك كانوا يقومون بتوصيل الخراج إلى الآستانة وكثيرا ما حدثت الخلافات بينهم وبين الوالى، وكان التفوق فى الفترة الأولى من الحكم العثمانى للوالى ، ثم استطاع رجال الحامية بعد ذلك ان يسيطروا على زمام الأمور.

وعندما دب الضعف فى الدولة العثمانية ضعفت الحاميات فى الولايات وفسد أمرها، ولم تعد صالحة لاستتباب الأمن، بل تحول أفرادها إلى السلب والنهب والأمثلة على ذلك متعددة نذكر منها أن الحامية فى بلاد الشام كانت من أهم أدوات التخريب، فقد خرج جنودها عن اختصاصاتهم وكثر اعتداؤهم على الأهالى وتطاولوا على أموالهم وأعراضهم وكثرت شرورهم. (٢)

وفى عدن ثار الأهالى ضد تسلط الحامية العثمانية وغدرها بأميرهم عامر الطاهرى، فاضطرت الآستانة إلى أن ترسل أسطولا بحريا لم يتمكن من السيطرة على الموقف إلا بصعوبة. (٣)

وفى تونس أعلن الجنود عصيانهم، وهددوا النظام باعتدائهم على الأرواح والممتلكات.

وفى مصر ركنت الحامية العثمانية إلى حياة الاستقرار واندمجت فى الشعب المصرى، وتركت حياتها العسكرية لدرجة أن الحملة الفرنسية حينما هاجمت مصر

---

(١) للتفاصيل انظر: الراقد: المرجع السابق، ص ٢٧٦- ٢٧٧.
(٢) محمد كرد على: المرجع السابق، ص ٢٢٥.
(٣) فاروق أباظة : الحكم العثمانى فى اليمن، بيروت، دار العودة ١٩٧٩، ص ٢٠.

فى أواخر القرن الثامن عشر لم تجد من يتصدى لها سوى المماليك وجموع الشعب المصرى. (1)

رابعا: العصبيات المحلية:

كان هدف العثمانيين من إشراك العصبيات المحلية فى الحكم هو الاستفادة منها فى إدارة الولايات التى يحكمونها وحتى يظلوا على ولائهم للدولة العثماينة ولا يقوموا بالتمرد عليها، ونتيجة لذلك شارك المماليك فى تولى مقاليد بعض الأمور فى مصر، كما شاركت بعض العشائر العربية فى الشرقية والبحيرة فى حكم المناطق التى تقطنها ، واعترف السلطان العثمانى بالعصبيات الكردية وأبقى حكم كردستان للبيوتات الكردية الحاكمة فى شمال العراق، كما ترك لمشايخ العراق سلطة إدارة عشائرهم ، ومن أهم هذه المشيخات مشيخات الخزاعل والعبيد وشمر والمنتفق. (2)

والسؤال المطروح هو هل ظلت هذه العصبيات على ولائها للدولة العثمانية أو تحينت الفرص للتخلص من الحكم العثمانى واستقلالها عنه؟

الواقع أن هذه العصبيات كانت غالبا ما تتطلع إلى استرجاع نفوذها القديم، ومن هنا أخذت فى استغلال فرص انشغال الدولة العثمانية بمشكلاتها الخارجية والداخلية، ففى مصر استطاع على بك الكبير المملوكى القيام بثورة ضد الدولة العثمانية فى عام ١٧٧١م، والانفصال عنها، ولم يستطع العثمانيون السيطرة على زمام الموقف إلا بعد الوقيعة التى دبروها بين على بك وقائده محمد أبو الدهب.

وفى اليمن استطاعت العصبيات المحلية القيام بثورات متعددة ضد الحكم العثمانى، تمكنت خلالها من انهاك جيوش الدولة العثمانية حتى اضطرتها إلى الجلاء عن اليمن لفترة. (3)

---

(1) الراقد : المرجع السابق، ص ٢٧٨- ٢٨٠.
(2) عبد العزيز نوار: داود باشا والى بغداد، القاهرة ، دار الكاتب العربى، ١٩٦١، ص ١١.
(3) للتفاصيل انظر: فاروق أباظة : المرجع السابق، ص ٤١٥.

وفى وسط الجزيرة العربية قامت الدعوة السلفية التى دعت إلى العودة بالإسلام إلى مبادئه الأولى وألقت بتهمة نشر البدع والخرافات فى العالم الاسلامى على العثمانيين.

وفى العراق قامت العصبيات المحلية بالعديد من الثورات ضد الحكم العثمانى مثل ثورة آل مهنا فى جنوب العراق وآل شعيب فى البصرة، والعشائر الكردية فى كردستان. [1]

وفى الشام قامت أسرة آل العظم ، وظاهر العمر بمحاولات للاستقلال الذاتى عن الحكومة المركزية فى استنبول.

ومع كل ذلك فان خروج هذه العصبيات المحلية على السلطنة لم تقلق الدولة العثمانية كثيرا وخاصة أنها كانت تستطيع الانتظار حتى تحين الفرصة المناسبة فتستعيد نفوذها وعلى سبيل المثال نذكر على بك الكبير وظاهر العمر اللذين استغلا فرصة انشغال العثمانيين فى حروبهم مع الروسيا ونجحا فى الانفصال عن الدولة ورفع راية العصيان ضدها فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر، ثم ما لبثت الدولة ان استرجعت نفوذها على المناطق التى كانوا يحكمونها بعد انتهائها من الحرب.

---

(١)نوار: المرجع السابق، ص ٦٨- ٦٩.

أحوال العالم العربى فى ظل الحكم العثمانى

بعد أن سيطرت الدولة العثمانية على العالم العربى فى معظمه، وصارت الدولة الاسلامية الوحيدة فى المنطقة تقريبا، تحول العالم العربى إلى منعطف جديد فى النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية وفيما يلى نعرض لذلك.

أولا: الأحوال السياسية:

١-انتقال مركز الخلافة من القاهرة إلى الآستانة:

بعد هزيمة المماليك أمام العثمانيين انتقل مركز الخلافة من القاهرة إلى الآستانة[١]، واتخذ السلطان سليم الأول لقب الخليفة ليضمن ولاء العرب والمسلمين له على اعتبار أن الخليفة هو فى الواقع خليفة رسول الله وأنه يجب على المسلمين طاعته.

٢-العثمانيون والأماكن المقدسة:

أضفت الدولة العثمانية حمايتها على الأماكن المقدسة لما لها من أهمية دينية، وحمل السلطان العثمانى ألقاب حامى حمى الحرمين الشريفين، وخادم الحرمين الشريفين ، وهو لقب يكسب من يحمله احترام المسلمين وتقديرهم[٢]، وكان السلطان سليم الأول قد اتخذ لنفسه هذا اللقب بعد أن أرسل شريف مكة ابنه إلى القاهرة ليبلغ السلطان العثمانى ولاءه واعترافه بالسيادة العثمانية على الحجاز، وتمسك السلاطين العثمانيين منذ ذلك الوقت بهذا اللقب الدينى[٣]، ولحماية الأماكن الاسلامية المقدسة من أخطار البرتغاليين الذين حاولوا أكثر من مرة النيل منها أغلق العثمانيون البحر الأحمر، وحولوه إلى بحيرة اسلامية. [٤]

---

(١) الراقد: المرجع السابق، ص ٢١١- ٢١٤.
(٢) الراقد : المرجع السابق، ص ٢٢٨- ٢٢٩.
(٣) عبد العزيز الشناوى: الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها، جـ١، ص ٦٦.
(٤) محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربى، القاهرة، الأنجلو المصرية، ١٩٨٥، ص ١٤٤.

٣-عدم إشراك العناصر العربية فى حكم بلادها:

ركزت الدولة العثمانية سياستها على أن يبقى العالم العربى فى حوزتها أطول مدة ممكنة، ولذلك لم يسمحوا للعناصر العربية فى حكم بلادها، بل قاموا بنشر عوامل الصراع بينها حتى تنشغل عن التفكير فى السلطة يضاف إلى ذلك أن الحكم العثمانى كان مركزيا ، فكان السلطان هو السلطة العليا المسيطرة على كافة الأجهزة السياسية والإدارية والعسكرية ، وكان السلاطين يرون أن الولايات العربية وما عليها هى من أملاكهم الخاصة، ولهم حق التصرف فيها على أية صورة، ولم يكن يهم الدولة سوى جمع الأموال والحاصلات التى صارت نهبا لها ولأتباعها. (١)

٤-عدم إشراك العرب فى الدفاع عن بلادهم:

بعد الفتح العثمانى للعالم العربى صار الدفاع عن الولايات العربية ضد أية اعتداءات خارجية من اختصاص القوات العثمانية فأفقد ذلك المواطنين العرب الإحساس بقدرتهم على حماية بلادهم. (٢)

ثانيا: الأحوال الاقتصادية:

أبقى العثمانيون النظم الاقتصادية القائمة على النظام الاقطاعى قبل حكمهم الولايات العربية كما هى:

وقد عنى السلطان سليم الأول بمسح الأراضى فى مصر والشام، وخصص مقدارا منها للأجناد ومقدارا لنفقات الوالى ومقدارا للسناجق وما عدا ذلك سمى بالأراضى الديوانية اى التابعة للديوان الأعظم بالآستانة. وقد عد السلطان العثمانى نفسه مالكا لكل الأراضى الزراعية، ورأى أن أصحاب الأراضى لا يملكونها بل لهم حق الانتفاع بها فقط، ونتيجة لذلك أصبحت الأراضى تؤول عند موت صاحبها إلى الدولة، إلا أن ورثته يستطيعون ردها إلى حوزتهم إذا دفعوا مبلغا من المال للدولة. غير أن ذلك الوضع أخذ يتبدل بمرور الزمن وبخاصة بعد ازدياد نفوذ بكوات

---

(١)الراقد: المرجع السابق، ص ٢٦١- ٢٦٥.
(٢)انيس: المرجع السابق، ص ١٤٥.

المماليك، وتمكنهم من تقسيم معظم الأراضى فى مصر بينهم فآلت إليهم ملكية ثلث ما يزرع من الأرض، ووزع الباقى بين الفلاحين والملتزمين والأوقاف. [1]

وقد قام العثمانيون باتباع طريقة المماليك فى تحصيل الأموال على الأراضى، باتباع نظام الالتزام بالمزايدة ، وذلك بأن يتعهد الملتزم بدفع مقدار محدد من المال كل عام عن مساحة محددة من الأرض على أن يحصل من الفلاحين العاملين فى هذه الأرض كل ما يستطيع من الأموال، وإذا هرب الفلاح وقت تحصيل الضرائب تصدر ضده عقوبات صارمة . وقد استخدم الولاة سلطاتهم لجمع كل ما يمكن جمعه من الأموال دون الاهتمام بأى إصلاح اقتصادى. فأدى ذلك إلى تدهور الزراعة والتجارة والصناعة وزاد الطين بلة تحول طرق التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح.

ثالثا: الأحوال الاجتماعية:

نظر العثمانيون إلى المجتمع على انه ينقسم إلى قسمين الحكام وهم الأتراك، والمحكومين وهم الرعية، وواجب القسم الثانى ان يعمل فى خدمة القسم الأول لامداده بما يحتاج إليه، وبعبارة أخرى كان الأتراك يكونون داخل المجتمعات العربية طبقة أرستقراطية عزلت نفسها عن بقية أجزاء المجتمع بحكم فهمها لوظيفتها وإحساسها بذاتيتها ، فكان الحكم العثمانى عديم التأثير فى حياة الأهالى[2]، وخاصة أن العثمانيين لم يشاركوا العرب فى حياتهم الاجتماعية العامة، ولم يهتموا باللغة العربية وبانعاش آدابها وعلومها، كما لم يهتموا بعثمنة البلاد فاحتفظ العالم العربى ببنائه الاجتماعى الذى كان سائدا فيه قبل الحكم العثمانى، فاحتفظت الطوائف الدينية الاسلامية باحترامها، بصفتهم حماة الشريعة، وقد نجحت هذه الطبقة فى رد المظالم ، وكانت بمثابة حلقة الوصل بين الطبقة الحاكمة والمحكومة، كما احتفظت الطبقات المنتجة من التجار والفلاحين وأصحاب الحرف بسماتها السابقة، فكان لكل طائفة شيخ تخضع لسلطته وينوب عنها لدى السلطات الحكومية ويتولى شئونها ويدافع عنها ويقوم بحل

---

(١)عمر عبد العزيز : دراسات فى تاريخ مصر الحديث، الاسكندرية، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م،١٥٤.

(٢)محمد انيس: المرجع السابق، ص ١٤٩.

المنازعات بين أفرادها، ويعاقب كل من يخالف منهم عرف وتقاليد الطائفة عقوبات صارمة، وكان منصب الشيخ وراثيا وكان لمشايخ الطوائف وكلاء يعرفون باسم النقباء[1]، أما فى الريف فكان شيخ القرية يقوم مقام شيخ الطائفة وكان الابن يرث أباه فى مهنته سواء كان الأب فلاحا أو تاجرا ، أو صانعا ، أما البنت فتتزوج زميل والدها فى الحرفة وقد أدى ذلك إلى تقوية الرابطة الاجتماعية وتوثيقها. [2]

أما أهل الذمة فقد ظلوا على هامش الحياة الفكرية والسياسية فى داخل المجتمع العربى وإن كانت لهم مشاركات فى الحياة الاقتصادية بطريقة فعالة.

وعند تقييمنا للحكم العثمانى فى الوطن العربى يتضح ما يلى:

١- أن الحكم العثمانى كان ضعيفا فى تأثيره على العالم العربى على الرغم من طول مدته التى تجاوزت أربعة قرون ، فلم ينجح العثمانيون فى عثمنة مصر، بل ما حدث هو أن تمصر العثمانيون وأصبحوا جزءا من الحياة المصرية. [3]

٢- ان الأحوال الاجتماعية والاقتصادية ظلت جامدة وتدهورت الزراعة نتيجة لعدم الاهتمام بمرافقها ، وتدهورت الصناعة وانحصرت فى بعض صناعات بدائية، كما تدهورت التجارة بسبب اضطراب الأمن، وسوء طرق النقل، وضعف القوة الشرائية. [4]

٣- أن الحكم العثمانى كان يستند فى المقام الأول على رجال الدين الذين وقفوا بجانب الدولة العثمانية للاحتفاظ بنفوذها فى الولايات العربية حيث كانوا يصرون على ضرورة الولاء العام للسلطان باعتبار حامى حمى الاسلام.

٤- ظهور المحلية: أى أن الأفراد كانوا يقوموا بتنظيم أمور حياتهم بعيدا عن تدخل الدولة او اشرافها ففى المدن كان الناس يقسمون إلى طوائف حسب مهنهم ووظائفهم الاجتماعية، فالطائفة كانت تضم أصحاب المهنة الواحدة

---

(١)عمر عبد العزيز: المرجع السابق، ص ١٥٦.

(٢)انيس : المرجع السابق، ص ١٤٩- ١٥٠.

(٣)نفسه، ص ١٤٤.

(٤)د. حسين خلاف: التجديد فى الاقتصاد المصرى الحديث، القاهرة، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، الطبعة الأولى، ١٩٦٢، ص ٧.

وعلى رأسها شيخ يتولى تنظيم شئونها والفصل فى الخصومات بينها وبين الحكومة، وفى الريف كانت كل قرية تمثل مجتمعا قائما بذاته يكاد يكون معزولا عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية للقرى الأخرى وبعبارة أخرى ان نظام الحكم العثمانى تميز بضعف التدخل الحكومى، وترك الأهالى وشأنهم فى كل ما يتعلق بأمورهم(١)، وقد أدى ذلك فى نهاية الأمر إلى عدم ولاء الفرد للدولة. (٢)

٥- نجحت الدولة العثمانية فى وقف الأطماع الأوربية فى الوطن العربى لفترة من الوقت ، فقد أوقفت الخطر البرتغالى على البلدان العربية، ولاحقت فرسان القديس يوحنا وتمكنت من طردهم من ليبيا ، كما كسرت شوكة الأسبان فى غرب حوض البحر المتوسط.

٦- اعتاد العثمانيون الأخذ ولم يعتادوا العطاء. فلم يهتموا بتحسين أحوال الولايات، لذلك كان يندر ان يصل من الآستانة رجل صالح فى أخلاقه معروف باستقامته وسعة معرفته يحسن إدارة الأمور، ويوقف الظالم عن ظلمه. (٣)

---

(١)محمد شفيق غربال : محمد على الكبير، ص ٢٣.
(٢)محمد انيس : المرجع السابق، ص ٥.
(٣)محمد كرد على: المرجع السابق، جـ٢، ص ٢٦٧.

الفصل الثانى

الحركات الانفصالية ضد الدولة العثمانية

أ-فى مصر: حركة على بك الكبير.

ب-فى بلاد الشام:

* حركة ظاهر العمر.

* حركة أحمد باشا الجزار

ج-فى الجزيرة العربية: دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

إن نظرة متفحصة لأحوال الدولة العثمانية فى منتصف القرن الثامن عشر وبخاصة فى الفترة التى قامت فيها حركة على بك الكبير تبين لنا مدى الضعف الذى لحق بالدولة العثمانية من جراء الضربات التى انهالت عليها من الدول الأوربية وبخاصة الروسيا، فأوهن ذلك قبضتها على ممتلكاتها وأوجد العديد من الحركات الانفصالية المشابهة لحركة على بك الكبير والتى من أهمها حركة ظاهر العمر فى فلسطين، وحركة الأكراد فى شمال العراق والشام، والثورات فى البوسنة والهرسك والجبل الأسود والافلاق والبغدان[1]، والنزاع بين الأشراف على إمارة مكة . ونتيجة لذلك أخذ بكوات المماليك فى مصر بالاستئثار بالنفوذ والسلطة حتى صار نفوذهم يفوق سلطة الباشا العثمانى. وأصبح لزعيمهم الذى كان يعرف بشيخ البلد الكلمة المسموعة فى البلاد، وفى النهاية استغل أحدهم وهو على بك الكبير الفرصة وتمكن من الانفراد بالسلطة فى مصر فى عام ١٧٦٦.

١-حركة على بك الكبير:

وقبل أن نتناول حركة على بك الكبير بالدراسة لابد لنا من وقفة نعرض فيها لنشأته وكيفية وصوله إلى حكم مصر.

---

(١)محمد رفعت رمضان: على بك الكبير، القاهرة، دار الفكر العربى، ١٩٥٠، ص ٥.

الاسم الحقيقى لهذا المملوك هو يوسف بن داود وقد ولد فى عام ١٧٢٨ فى بلده أبازة من أعمال القوقاز العثمانى، وكان والده واحد من قساوسة الكنيسة اليونانية، ويرغب فى أن يكون ابنه مثله قسيسا، ولكن القدر لم يمكنه من ذلك وبخاصة بعد أن اختطفت عصابة من قطاع الطرق هذا الابن فى أثناء رحلة صيد كان يقوم بها فى احدى الغابات وباعوه لأحد تجار الرقيق فسافر به حتى وصل إلى الاسكندرية وباعه هناك بثمن بخس لمدير جمرك الاسكندرية، وقد قام مدير الجمرك باهدائه إلى ابراهيم بك أحد زعماء المماليك فى مصر(١)، وقد اعتنق يوسف الاسلام، وتسمى باسم على، وقد أظهر هذا المملوك من ضروب الشجاعة فى ركوب الخيل والتدريبات ما ساعده على الترقى فاكتسب لقب "جن على" ولما بلغ الثامنة عشر اعتقه أستاذه وولاه سنجقا، ثم زادت شهرته بعد نجاحه فى الضرب على ايدى البدو الذين كانوا يغيرون على القاهرة ليلا، فقربه سيده وجعله كاشفا(٢)، وواصل على بك الترقى حتى وصل إلى منصب شيخ البلد، وخلال ذلك اخذ على بك فى التودد إلى العثمانيين حتى اكتسب ثقتهم وفى الوقت نفسه نشط فى وضع اتباعه فى المناصب الهامة(٣)، كما نجح فى تقليص نفوذ كل من الحامية والديوان عن طريق توريطهم فى المشاركة فى الحروب الداخلية، وتأخير رواتبهم بحجة قلة المال.

كما نجح على بك الكبير فى تركيز السلطتين الحربية والإدارية فى يده وبخاصة بعد نجاحه فى كسر شوكة العربان فى الوجهين البحرى والقبلى فصار صاحب النفوذ المطلق على جميع أنحاء مصر واستقامت له الأمور حتى خافه الناس وهابه الأمراء وأخذ يدير دفة الأمور كما يشاء(٤). وانتهز على بك فرصة انشغال الدولة العثمانية بحروبها ضد روسيا(٥)، فاستصدر من الديوان أمرا بعزل الوالى ثم

---

(١)محمد رفعت رمضان : المرجع السابق، ص ١٨- ١٩.
(٢)محمد فؤاد شكرى: الحملة الفرنسية وظهور محمد على، القاهرة، دار المعارف، ص ١٦.
(٣)الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، جـ١، القاهرة، المطبعة العامرة الشرقية، ص ٣٨٤.
(٤)ميخائيل شاروبيم: الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث، ص ١٥١.
(٥)محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق، ص ٢٠.

تولى الحكم مكانة وأبطل ورود الولاة العثمانيين إلى مصر[1]، وامتنع عن دفع الأموال إلى الخزينة السلطانية، وفى عام ١٧٦٨ أحدث تغييرا فى شكل العملة فجعل على أحد وجهيها اسم السلطان، وعلى الوجه الآخر اسمه.

وعلى الرغم من كل ذلك فمن الصعب القول أن على بك الكبير كان يرغب فى الانفصال عن الدولة العثمانية نهائيا ، بل كان كل هدفه هو الاستيلاء على السلطة فى ظل السيادة العثمانية وخاصة أن الدولة العثمانية كانت تمثل درعا تحمى الولايات الاسلامية من الأطماع الأوربية، ويؤكد ذلك ما أورده الجبرتى بقوله " اتفق ان على بك صلى الجمعة فى أوائل شهر رمضان بجامع الداودية فخطب الشيخ عبد ربه ودعا للسلطان ثم دعا لعلى بك، فلما انقضت الصلاة وقام على بك يريد الانصراف أحضر الخطيب، وكان رجلا من أهل العلم يغلب عليه البله والصلاح فقال له: من أمرك بالدعاء باسمى على المنبر أقيل لك أنى سلطان ؟ فقال : نعم أنت سلطان وأنا أدعو لك فأظهر الغيظ وأمر بضربه، فبطحوه وضربوه بالعصى، فقام بعد ذلك متألما من الضرب، وركب حمارا وذهب إلى داره وهو يقول فى طريقة بدأ الإسلام غريبا وسيعود كما بدأ، ثم أن على بك أرسل إليه فى ثانى يوم دراهم وكسوة واستسمحه. [2]

وقد استطاع على بك الكبير خلال حكمه لمصر أن يخرج البلاد من الدائرة الضيقة التى فرضتها عليه المنازعات وحكم الحكام فبدأ يهتم باقرار الأمن فى البلاد وتنظيم الادارة، كما أخذ يتطلع إلى ما وراء حدود مصر فتحالف مع ظاهر العمر حاكم عكا، كما عقد اتصالات سياسية مع روسيا واتصل بقائد الأسطول الروسى فى البحر المتوسط وطلب منه امداده بالذخائر الحربية والأسلحة. فاستجاب القائد الروسى لطلبه بغية انهاك الدولة العثمانية فى حروب داخلية، واضعاف قدرتها العسكرية ضد روسيا[3]، وعلى الرغم من ازدياد نفوذ على بك ، وافتئاته على حقوق العثمانيين فان انشغال السلطان العثمانى بأمور الدولة الخارجية قد أضعف جهوده الرامية إلى

([1])الجبرتى : المصدر السابق، جـ١، ص ٢٨٤.
([2])الجبرتى: المصدر السابق، جـ٢، تحت عنوان "حوادث عام ثلاث وثمانين ومائة وألف".
([3])محمد فريد: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص ١٥٩.

التخلص من على بك[1]، ونتيجة لذلك بدأ على بك الكبير يتطلع إلى ما وراء حدود مصر.

ونتيجة لاختلال أحوال الحجاز فى تلك الفترة تحول انتباه على بك نحو بلاد العرب حتى تتمكن مصر من السيطرة على تجارة البحر الأحمر وشواطئ الهند[2]، وليجعل من ميناء جدة مقرا لهذه التجارة، هذا بالإضافة إلى إحرازه للمجد والشهرة بالاستيلاء على الحجاز أرض الحرمين الشريفين. [3]

وقد استطاع على بك الكبير الاستيلاء على بلاد الحجاز بعد أن أرسل قواته بقيادة محمد بك أبو الذهب[4]، إلى مكة، وتمكن من الاستيلاء عليها فى عام ١٧٦٩، وفى اعقاب ذلك منح شريف مكة على بك الكبير لقب سلطان مصر وخاقان البحرين[5]، فزاد ذلك من شهرته، وقوة شوكته. وقد شجعت هذه الانتصارات على بك الكبير على المضى فى مشروعاته التوسعية، فرأى ضرورة اخضاع بلاد الشام لسلطته ، وقد شجعه على ذلك ما يلى:

١- اضطراب الأحوال فى سوريا وثورة حليفة ظاهر العمر.
٢- انشغال الدولة العثمانية فى حروبها مع روسيا، وعدم تمكنها من إرسال النجدات العاجلة إلى بلاد الشام.
٣- علاقات على بك بالقيصرة كاترين الثانية قيصرة الروسيا واستعدادها لمعاونته ضد السلطان العثمانى، وظهور الأسطول الروسى فى البحر المتوسط.
٤- تذمر أهل الشام من العثمانيين نتيجة لفساد الحكم والتفريق بين الأجناس المختلفة.

---

(١)محمد رفعت رمضان : المرجع السابق، ص ٦٤.
(٢)Inwin, Eyles: Series of Adventures in the course of Avoyage up the Red see Dublin , ١٧٨٠, vol ١, P. ١٥٩.
(٣) شكرى : المرجع السابق، ص ٢١- ٢٢.
(٤)يرجع اطلاق اسم ابو الذهب على هذا المملوك إلى أنه لما لبس الخلعة بالقلعة، صار يفرق البقاشيش ذهبا ، وفى حال ركوبه ومروره جعل ينثر الذهب على الفقراء، الجبرتى: المصدر السابق، جـ١، ص ٤٢٢.
(٥)ابراهيم الطيب : مصباح السارى ونزهة القارى، ص ٢٣.

ونتيجة لذلك أمر على بك الكبير قائده محمد بك أبو الذهب بالزحف على بلاد الشام.

وقد أحرز الجيش المملوكى عدة انتصارات متوالية، فدخل أبو الذهب غزة فى مارس ١٧٧١، ثم استولى على الرملة وحاصر نابلس ثم تقدم صوب بيت المقدس حتى سلمت له ووصل إلى يافا وعكا حيث قوبل بكل حفاوة ، وبدت بلاد الشام كلها تحت رحمته، وخلال ذلك لقى أبو الذهب كل معاونة وتعضيد من الشيخ ظاهر العمر الذى ساعده بالنصح تارة وبالامدادات تارة أخرى حتى اضطر العثمانيون إلى التقهقر ، واستطاع أبو الذهب الوصول إلى دمشق[١]، ودخلها فى السادس من يونيو ١٧٧١م، وأتت إليه الوفود تهنئه وتزف إليه التهانى، ولما وصلت أخبار هذه الانتصارات إلى القاهرة اقيمت الاحتفالات والزينات، غير أن هذه الفرحة لم تتم فلم يلبث أبو الذهب أن غير موقفه من سيده، فأعلن العصيان عليه وأصدر أوامره إلى قواته بهدم خيامهم والانسحاب من دمشق، كما نادى أهالى الشام بالأمان[٢]، وكر عائدا إلى مصر، وسحب فى طريق عودته جميع الحاميات التى كان قد أقامها فى البلاد التى فتحها[٣]، ويختلف المؤرخون فى أسباب ذلك وفيما يلى نعرض لآرائهم:

١- اجتماع القائد العثمانى عثمان باشا بأبى الذهب فى خيمته واقناعه بأن ما قام به ضد السلطان العثمانى يخالف الشرف والأمانة، كما أن استيلاءه على دمشق عنوة يخالف الدين وخصوصا أن دمشق من أهم مراكز الحج الرئيسية إلى الحرمين ولا يصح انتهاكها.

٢- ارسال عثمان باشا صرة ثقيلة من الدنانير إلى محمد ابى الذهب حتى يترك دمشق ويعود إلى مصر. [٤]

٣- ان أبا الذهب حصل على وعد من السلطان العثمانى بالعفو عنه، وتوليته شياخة البلد بدلا من على بك الكبير. [٥]

---

(١)شكرى : المرجع السابق، ص ٢٤.
(٢)الجبرتى : المصدر السابق، جـ١، ص ٣٨٥.
(٣)محمد رفعت رمضان : المرجع السابق، ص ١٦٩.
(٤)شكرى : المرجع السابق، ص ٢٧.
(٥)تاريخ جودت ، جـ١، ص ٣٤٦- ٣٤٧.

٤- ان أبا الذهب كان يخشى من غضب الدولة العثمانية بعد أن تفرغ من حروبها مع الروسيا فتقوم بالانتقام منه ومن قواته فى بلاد الشام.

٥- ان العثمانيين نجحوا فى إثارة النزعة الدينية عند ابى الذهب، وأوهموه بأن من يعصى السلطان كأنه يعصى الله ورسوله ، كما أثبتوا له أن اتصال على بك الكبير بالروس أعداء الاسلام وانسياقه وراء أفكار كاترين امبراطورة الروسيا كل ذلك يعد خيانة للاسلام والمسلمين.

ولما وصلت أبناء انقلاب أبى الذهب الى سيده فى القاهرة لم يكن هناك متسع من الوقت لتجهيز الجيوش لملاقاته، ومع ذلك فقد أرسل على بك جيشا لمقاتلته بقيادة اسماعيل بك غير أن هذا الجيش انضم إلى ابى الذهب، وعندئذ لم يجد على بك مناصا من الانسحاب والالتجاء إلى حليفة ظاهر العمر فى عكا ، ومشاركته فى مواجهة العثمانيين فى بلاد الشام.

وفى بلاد الشام أعد على بك العدة للعودة إلى مصر، فجمع حوالى خمسة آلاف جندى تقدم بهم لملاقاة أبى الذهب الذى أرسل جيشا لملاقاته يصل تعداده إلى حوالى اثنى عشر ألفا[1]، وفى الصالحية دارت المعركة الفاصلة وانتصر اتباع على بك فى بداية الأمر، وانفتح الطريق أمامهم إلى القاهرة، ولكن أبا الذهب لم يلبث أن آثار الحماس فى أتباعه متهما على بك بالكفر والالحاد، كما رماه بالتحالف مع الكفار لاخضاع البلاد حتى يقضى على الدين الاسلامى ويرغم الأهالى على اعتناق المسيحية، ونتيجة لذلك ازداد حماس اتباع أبى الذهب وتمكنوا من إحراز النصر على قوات على بك الذى ظل يقاتل حتى أصيب بجرح فى وجهه وسقط من على جواده وأخذ أسيرا، وبقى فى الأسر سبعة أيام حتى مات فى الخامس عشر من صفر ١١٨٧هـ الموافق ٨ مايو ١٧٧٣م، وقد شكك الجبرتى فى طريقة موته، فقال: فأقام سبعة أيام ومات والله أعلم بكيفية موته.[2]

وبوفاة على بك الكبير أسدل الستار على أكبر محاولة عرفتها مصر للتخلص من السيادة العثمانية واعلان استقلالها واستأثر محمد أبو الذهب بالنفوذ والسلطة

([1])شكرى : المرجع السابق، ص ٢٨- ٢٩.
([2])الجبرتى : المرجع السابق، جـ١، ص ٣٨٥، وانظر ايضا فؤاد شكرى: المرجع السابق ص ٣٠

بمساندة العثمانيين، ومعاضدة الباب العالى له حيث راسل الدولة العثمانية وأظهر لهم الطاعة(1)، واعترف بسيادتهم على مصر، ولكن حكمه لم يستمر طويلا حيث وافته المنية فى الثامن من يونيو ١٧٧٥م، أثناء محاربته لقوات ظاهر العمر فغير ذلك موازين الأمور داخل مصر.

وقد اختلفت آراء الباحثين حول وفاة أبى الذهب فمنهم من ذهب إلى أنه مات بداء السكتة القلبية ، ومنهم من قال انه مات بمرض الحمى، ومنهم من ذكر انه اصيب بمرض خبيث توفى على أثره نتيجة لأنه هدم ديرا للرهبان وقتل من فيه(٢)، وعلى كل حال فبعد وفاة أبى الذهب وقعت البلاد فى حالة من الفوضى فقد شرع كبار امراء المماليك فى التنازع على السلطة وانقسموا إلى شيع وطوائف، ولم تهدأ لهم ثائرة حتى تمكن مراد بك وابراهيم بك من الاستئثار بالحكم واقتسام مشيخة البلد وإمارة الحج فيما بينهما، وفى عهدهما ازدادت أحوال مصر سوءا فقد شاعت فيها الفوضى وانعدم الأمن، وانفلت زمام الأمور من يد العثمانيين(٣)، ولما خرجت الأمور عن حدودها وتدهورت الأحوال لدرجة ان اصبح الأجانب فى مصر رهينة تصرفات مراد بك وابراهيم بك وأخذا فى أبتزاز قناصل الدول الأوربية وتهديدهم بتخريب كنائس الاسكندرية إذا لم يدفعوا لهما الأموال التى يطلبانها ، تقدمت الدول الأوربية بشكواها إلى الباب العالى فى عام ١٧٨٦ فأرسلت الدولة العثمانية اسطولا بقيادة حسن قبطان باشا فتمكن من السيطرة على زمام الأمور(٤)، والدخول إلى القاهرة فى اغسطس ١٨٧٦م، والحد من سيطرة هذين المملوكين إلى درجة كبيرة، وظل الحال على هذا المنوال حتى جاءت الحملة الفرنسية على مصر فى يوليو من عام ١٧٩٨م.

---

(١)الجبرتى : المصدر السابق، جـ١، ص ٤٢٣.

(٢)تاريخ الأمير حيدر: نزهة الزمان فى تاريخ جبل لبنان، القاهرة ، مطبعة السلام، ١٩٠٠م، ص ٨٢٤.

(٣) Charles Roux: L' ANgleterre de suez , et l' Egypte pp ٢٠ - ٢١

(٤) Ibid , P. ١٩٥

ثانيا: الحركات الانفصالية ضد الدولة العثمانية فى بلاد الشام:

قسمت بلاد الشام بعد سقوطها فى يد العثمانيين فى أعقاب موقعة مرج دابق ١٥١٦م إلى ثلاث إيالات هى:

١-حلب وتشمل بلاد الشام الشمالية.

٢-طرابلس وتشمل وسط الشام.

٣-دمشق وتشمل معظم البلاد الجنوبية وفلسطين.

واستمر هذا التقسيم سائدا حتى عام ١٦٦٩م إذ استحدثت إيالة جديدة وهى صيدا لتشمل مدن الساحل وضواحيها وبلاد صفد حتى تتمكن الدولة من تقوية قبضتها على هذه المناطق[١]، وفيما يلى نعرض لأهم الحركات الانفصالية فى هناك:

١-حركة ظاهر العمر الزيدانى:

بعد أن اختار اهل طبرية وصفد ظاهر العمر حاكما عليهم فى عام ١٧٣٣م، أخذ فى تنظيم أموره استعدادا للانفصال عن الدولة العثمانية. وقد استطاع ظاهر العمر أن يضم فى فترة قصيرة صيدا ويافا وحيفا ونابلس والرملة إلى حكمه، ولما حاول باشوات الشام الوقوف فى وجهه اخفقوا فى مسعاهم فأدى ذلك إلى ازدياد نفوذه[٢]، ورغبته فى التوسع. وخلال ذلك تمكن ظاهر العمر من الحصول على فرمان من السلطان العثمانى بحكمه لصيدا ، كما تمكن من الاستيلاء على عكا وبنى بها قلعة وسكن فيها وصارت له شهرة ذائعة وأخذت قوته فى التزايد وبخاصة بعد تحالفه مع على بك الكبير فى مصر.

ونتيجة لانشغال الدولة العثمانية فى حروبها مع الروسيا استأثر ظاهر العمر بحكم عكا فى الفترة ما بين ١٧٥٠- ١٧٧٦م ولم تجرؤ الدولة على مناصبته العداء، بل اضطرت إلى التساهل معه وأدى ذلك إلى تراخى نفوذها وتقوية مركزه، فأخذ يبنى

---

(١)رأفت الشيخ: فى تاريخ العرب الحديث، القاهرة، دار الثقافة ١٩٧٧م، ص ١٣٥.

(٢)من أبرز الأمثلة على ذلك حملة سليمان باشا والى دمشق إلى طبرية فى عام ١٧٣٣ انظر ميخائيل الدمشقى الخورى : تاريخ الشام ١٧٢٠- ١٧٨٢ تحقيق احمد غسان سبانو، دمشق، الطبعة الأولى ١٩٨٢، ص ٢٤.

القلاع حول عكا، ويقوى من استحكاماتها ، ويتخذ الوسائل الكفيلة التى تدعم نفوذه فى هذه المنطقة. (١)

ونتيجة لتحالف ظاهر العمر مع على بك الكبير فى مصر، أبدى كل منهما استعداده لنجدة الآخر فى حالة محاولة الدولة العثمانية الغدر بهما ، وقد أبدى على بك استعدادا لنجدة ظاهر العمر ومساعدته ضد عثمان باشا والى الشام، وأرسل إليه جيشا من أربعة آلاف جندى لمعاونته.

وعندما أرسل على بك جيشا بقيادة محمد بك أبى الذهب إلى الشام لمحاربة الدولة العثمانية آزره ظاهر العمر حتى تم له النصر، ودخول دمشق إلا أن خيانة أبى الذهب لسيده قلبت الأمور رأسا على عقب وجعلت على بك يفر إلى فلسطين للاستنجاد بالشيخ ظاهر العمر فى محاولة لاستعادة مركزه فى مصر، وعلى الرغم من تقديم ظاهر العمر المساعدات لنجدته فقد اندحرت قواته للمرة الثانية على أيدى أبى الذهب ، فاخذت العواصف تهب بشدة على حليفه، وانتهى الأمر بالتدخل العثمانى المسلح والقضاء على ظاهر العمر فى عام ١٧٧٥م، وقتل معظم أبنائه وعودة النفوذ العثمانى إلى هذه المنطقة، ولكن ذلك لم يستمر طويلا فقد أدى انعدام السيطرة العثمانية على تلك المنطقة إلى ظهور أحمد باشا الجزار بحركة انفصالية اخرى فى محاولة لملء الفراغ السياسى فى تلك المنطقة فى الفترة ما بين ١٧٧٦- ١٨٠٤م.

٢ـحركة أحمد باشا الجزار(٢) ١٧٥٠- ١٨٠٤م:

بدأ نجم احمد باشا الجزار فى الظهور بعدما التحق بخدمة على بك الكبير فى مصر، إلا أنه ما لبث أن فكر فى الهرب من مصر خشية بطش سيده ، فتنكر فى زى المغاربة ، وتوجه إلى دمشق حيث عمل فى خدمة واليها فترة ، ثم اتجه إلى لبنان واتصل بالأمير يوسف الشهابى الذى أعجب بذكائه وقوة عزيمته وطموحه فأسند إليه

---

(١)فؤاد شكرى، المرجع السابق، ص ٢١.
(٢)اسمه الحقيقى احمد البوشناقى: واطلق عليه لقب الجزار لشدته وصرامته واسرافه فى القتل وسفك الدماء من أجل الوصول إلى الحكم والسيطرة والولاية.
للتفاصيل انظر: الأمير احمد حيدر الشهابى : لبنان فى عهد الشهابيين – تحقيق أسد رستم وفؤاد البستانى، القسم الأول، بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ١٩٣٣، ص ٩٦.

ولاية بيروت التى كانت مهددة فى ذلك الوقت من قبل الأسطول الروسى[1]، وقد تمكن الجزار من السيطرة على زمام الموقف فى بيروت لفترة ، إلا أن الأسطول الروسى سرعان ما هزم قواته هناك مما اضطره للرحيل إلى استنبول ، وهناك استطاع ان يظفر بلقبى الوزارة والباشوية، وبمنصب ولاية صيدا وان يبدا مرحلة جديدة فى حياته كوال تابع للدولة العثمانية مباشرة، وبعد أن برزت قدرة الجزار فى السيطرة على زمام الموقف، والقضاء على بقية الزيدانيين من أتباع ظاهر العمر ، منحته الدولة العثمانية عكا بالاضافة إلى صيدا ، فقام بتحصينها ، كما عمل على زيادة مماليكه وانصاره. وخلال ذلك سعى الجزار للقضاء على أسرتى آل العظم والشهابيين[2]، كما بلغ نفوذه شأوا عظيما لدرجة أن اصبح بمثابة الحاكم الفعلى لبلاد الشام.

وبعد أن سمع الجزار بتحرك قوات الحملة الفرنسية من مصر استعدادا للهجوم على الشام ، بدأ فى زيادة استحكاماته فى عكا ، وتجهيز مدافعه تحت إشراف عدد من الخبراء الأوربيين ، كما اوجد فيها حاميات عديدة تستمد مساعدتها بحرا من الأسطول الانجليزى بقيادة سيدنى سميث مما جعل عكا صعبة المنال أمام بونابرت وقواته وجعل رجالات الدولة العثمانية ينظرون إلى الجزار على أنه مطمح آمالهم فى النصر. ونتيجة لاستبسال الجزار وقواته فى الدفاع عن عكا، وتفشى مرض الطاعون بين القوات الفرنسية اضطر نابليون إلى الانسحاب من امام أسوار عكا والعودة إلى مصر، مما زاد من هيبة الجزار وعزز من مكانته امام الناس، وجعله يظهر بمظهر الحاكم المطلق فى بلاد الشام، ولما خشيت الدولة العثمانية من ازدياد نفوذه اخذت تدبر له المكائد للقضاء عليه فتحالفت مع الأمير بشير الشهابى ضده ولكن الجزار فوت هذه الفرصة على أعدائه، وحاول أن تظل علاقاته وطيدة مع العثمانيين وكان مستعدا لاعلان ولائه للسلطان ، وظلت الأمور على حالها حتى توفى الجزار فى ١٢١٩هـ/ ابريل ١٨٠٤م، وهو فى ذروة قوه وسلطانه.

---

(١)محمد جميل بيهم : الحلقة المفقودة فى تاريخ العرب ، القاهرة، مطبعة البابى الحلبى، الطبعة الأولى ١٣٦٩هـ/ ١٩٥٠، ص ٥٦.
(٢)للتفاصيل انظر الشهابى، المصدر السابق، ص ١٦٠- ١٦٥.

ثالثا: فى الجزيرة العربية:

اختلفت الآراء فى تقييم دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى كتابات المؤرخ عبد الرحمن الجبرتى بين مؤيد ومعارض، ومحايد، فالمادحون ذكر احدهم انها دعوة اصلاحية تصحيحية ، دعت إلى منع المنكرات والتجاهر بها، واتباع ما أمر به الله تعالى فى قرآنه المجيد، من إخلاص التوحيد لله وحده ، واتباع سنة رسوله الكريم- صلى الله عليه وسلم- وما كان عليه الخلفاء الراشدون والصحابة والتابعون، والأئمة المجتهدون[١]، ومنهم من ذكر أنها كانت حربا على كل ما ابتدع بعد الاسلام الأول من عادات وتقاليد، لذلك نادت بالعودة إلى الإسلام فى صفاته الأولى، وطهارته ونقائه، ووحدانيته ، واتصال العبد بربه من غير واسطة ولا شريك، فلا إله إلا الله معناها كل ذلك والكتب المملوءة بالتوسلات كتب ضارة بالعقائد[٢]، ومنهم من قال انها ردت على الضلالات، وأنارت مصابيح الهدى فى دياجير الظلمات ، ورفعت لواء التوحيد حتى عم فى العالم الاسلامى نور الهدى والرشد، واستيقظ المسلمون من سباتهم ، وبدت تباشير النهضة الاسلامية الشاملة[٣]، ومنهم من ذكر انها كانت تبتغى "تقويض الحكم التركى ، وتحرير الأماكن المقدسة"[٤]، وإعادة الاسلام إلى نقاوته الأولى، عقيدة الصحابة والتابعين. [٥]

اما القادحون ، فقد تصدوا لمواجهة الدعوة ، وتشويه حقيقتها ، فألصقوا بها وبالقائمين عليها التهم ، وأثاروا حولها الشبهات والافتراءات[٦]، وعدوها شبحا مخيفا

([١])عبد الرحمن الجبرتى ، عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، الجزء الرابع، القاهرة، المطبعة العامرة الشرفية ١٣٢٢هـ، ص ٥.

([٢])احمد أمين : فيض الخاطر، الجزء الخامس، القاهرة، النهضة المصرية، الطبعة السادسة، ص ١٨٨.

([٣])مسعود الندوى: محمد بن عبد الوهاب مصلح مظلوم ومفترى عليه – ترجمة عدب العليم البسترى، المملكة العربية السعودية، جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية، ١٤٠٤هـ، ص ص ٩، ١٠.

([٤])لوثروب ستودارد: حاضر العالم الاسلامى – ترجمة عجاج نويهض، المجلد الرابع، القاهرة، مكتبة البابى الحلبى، ١٣٥٢هـ، ص ٨٣.

([٥])نفسه: المجلد الرابع: ص ١٦١.

([٦])انظر: عبد الرحيم عبد الرحمن : الدولة السعودية الأولى- جـ١، القاهرة ، دار الكتاب الجامعى ١٩٧٩، ص ٥٠ - وأحمد بن زينى دحلان ، خلاصة الكلام فى بيان أمراء البلد الحرام، القاهرة، ١٣٠٥هـ، ص ٢٣٠.

، وأساءوا إلى سمعتها بين الناس، فادعوا أنها مذهب جديد، كما أطلقوا عليها اسم الوهابية ، وكأنها بدعة او دعوة جديدة إلى دين غير الدين الاسلامى، يضاف إلى ذلك انهم أطلقوا عليها أسماء أخرى ، منها: الخوارج وغيرها.

والحقيقة أن هذه الدعوة كانت يقظة اسلامية، سداها ولحمتها العودة إلى أصول العقيدة عن طريق التمسك بكتاب الله وسنة رسوله – صلى الله عليه وسلم- وإجماع السلف الصالح من الأمة، وقد أكد ذلك الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى احدى رسائله قائلا: " إننى هدانى ربى إلى صراط مسقيم دينا قيما ملة ابراهيم حنيفا مسلما وما كان من المشركين ، ولست ولله الحمد ادعوه إلى مذهب صوفى، أو فقيه متكلم، او إمام من الأئمة... بل أدعو إلى الله وحده لا شريك له ، وأدعو إلى سنة رسول الله- صلى الله عليه وسلم، التى أوصى بها أول أمته وآخرهم ، كما أننى متبع وليست بمبتدع عقيدتى". [1]

ومن هنا فإن هذه الدعوة لم تأت بجديد على الإسلام لأنها لم تقدم شيئا جديدا غير التفسير الصحيح للكتاب والسنة، كما أنها لم تأت بمذهب فقهى جديد، لأنها تتبع مذهب الإمام أحمد بن حنبل ، يضاف إلى ذلك أنها جاءت لتخليص الأمة الاسلامية، والعقيدة المحمدية من البدع والخرافات ، والتمسك بالتوحيد بعد أن اختلطت السنن بالبدع ، وترك المسلمون كتاب الله وسنة رسوله – صلى الله عليه وسلم – وظهرت بينهم الوثنية فى شتى صورها وأشكالها، فصار بعضهم يقدس الأشجار والأحجار ، ويخضعون لها ، ويتذللون أمامها، كما عد بعضهم الآخر قبور الأولياء مزارات حج وتقديس.

---

(1)جامعة الامام محمد بن سعود: مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب. القسم الخامس: الرسائل الشخصية، رسالة من الشيخ إلى عبد الله بن محمد بن عبد اللطيف، ص ٢٥٢، ورسالة أرسلها إلى السويدى احد علماء العراق، ص ٣٦.

وأهمية كتابات الجبرتى[1]، لا ترجع فقط لكونه قد عاصر الأحداث، وسمع بها وكتب عنها، ولكن لما اشتهر عنه من الصدق، وتحرى الدقة فى كتاباته والتمسك بحدود الله مهما كانت العواقب ، ومهما كان حرج الموقف بالنسبة له خاصة وأنه كان يعيش فى كنف وتحت سيطرة حاكم حارب الدعوة وناهضها، ومن هنا كانت كتاباته عن الدعوة كتابة المؤرخ المنصف، الذى كتب تاريخ مرحلة مهمة فى حياة الجزيرة العربية فى القرن التاسع عشر، أجاد فيها عرضه للصراع الذى خاضته الدعوة مع أعدائها والمتربصين لها ، كما كان من أوائل المؤرخين الذين قدروا هذه الدعوة حق قدرها ، فقد آمن بها فى قراره نفسه ، لاتفاق أفكارها مع المذهب السلفى الذى يتمسك به . فقد عدها دعوة إصلاحية هدفها نبذ البدع والخرافات التى دخلت على الاسلام من زيارة الأضرحة والطبل والزمر فى الموالد والأعياد ومواسم الحج، وغيرها من البدع التى كانت قد علقت بأذهان المسلمين فى هذه الفترة، وقد دفعه ذلك إلى انتقاد أعدائها، فلم يخف استهزاءه بالجيوش العثمانية التى قادها طوسون ومحمد على، وابراهيم للقضاء على هذه الدعوة . ولما كان الجبرتى من المناهضين لزيارة الأضرحة والتشفع بالأولياء ، وادعاء الغيبيات والكرامات، ويعتبر أن الوقف والنذر على القبور والأضرحة باطل[2]، فقد اتفقت أفكاره مع أفكار رجالات الدعوة، ويتضح ذلك فيما كتبه عنها وعن أصحابها فى كتابه " عجائب الآثار فى التراجم والأخبار" وكيف كان واضحا وصريحا فى سرده للأحداث، حتى ولو كان فى ذلك ما يؤدى إلى جلب المشاكل والأمثلة على ذلك عديدة نذكر منها:

أولا: بعد أن أحدثت الدعوة فزعا لدى مناهضيها ، حاولوا مقاومتها فشنوا عليها حربا نفسية وفكرية لا هوادة فيها ، بهدف إبعاد المسلمين عنها، وإيغار صدروهم ضدها ،

---

(1)ولد عبد الرحمن الجبرتى فى القاهرة عام ١٧٥٤م، وتعلم بالأزهر، وكان والده حسن الجبرتى من شيوخه، وقد شهد الجبرتى مقدم الحملة الفرنسية على مصر، وخروجها وما أعقبه من صراع على السلطة انتهى بتولية محمد على، كما عاش فترة حروب الحجاز بين أتباع الشيخ محمد بن عبد الوهاب وجنود محمد على، وكتب عنها فى كتابه وعجائب الآثار فى التراجم والأخبار، الذى يعد من المصادر الهامة التى كتبت عن هذه الفترة.

(2)د. احمد عزت عبد الكريم (اشراف): عبد الرحمن الجبرتى – دراسات وبحوث، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٦، ص ٣٧٧.

فذكروا ان اتباع الشيخ عطلوا سبل الحج إلى الحرمين الشريفين، وأنه من الواجب التخلص من هذه الدعوة ، استنقاذا للأماكن المقدسة من سيطرتهم.

ولما كان الجبرتى يعرف حقيقة الأمر، وهى أن اتباع الدعوة لم يمنعوا أحدا من الحج، إلا إذا كان مخالفا للطرق الشرعية والتعاليم الاسلامية الصحيحة فقد ذكر ذلك بلا لبس أو مواربة ، فقال: " والحال ليس كذلك ، فإنه لم يمنع أحدا يأتى الحج على الطريقة المشروعة وإنما يمنع من يأتى بخلاف ذلك من البدع التى لا يجيزها الشرع مثل المحمل والطبل، والزمر، وحمل الأسلحة". وضرب مثلا بالحجاج المغاربة الذين اتبعوا الطرق الشرعية أثناء الحج، فلم يعترضهم احد، فقال: " حجوا وقضوا مناسكهم دون أن يعترض لهم أحد بشئ"[1]. كما أوضح الجبرتى ان اتباع الدعوة لم يمنعوا قوافل الحجيج التى يتبع أصحابها البدع والطبل والزمر فجأة ، بل أعطوا لأصحابها الفرصة، ونصحوهم بنبذ هذه العادات داخل الأماكن المقدسة فى المرات القادمة، فذكر – فى خلال حديثه عن المحمل المصرى، وما يصحبه من طبل وزمر – ان اتباع الدعوة قالوا للمسئولين عن المحمل ، لا تفعلوا ذلك ، ولا تأتوا به بعد هذه المرة " وحذروهم من تكرار ذلك.[2]

ونظرا لتكرار هذه المخالفات من قافلة الحج الشامى، ومخالفة أصحابها للشروط التى اشترطها عليهم اتباع الدعوة وإصرارهم عن استعمال الطبل والزمر والأسلحة، وكل ما كان مخالفا للشرع، فقد رد اتباع الدعوة على ذلك بأنهم أرسلوا لأمير هذه القافلة يقولون له: "لا تأت إلا على الشروط التى شرطناها عليك فى العام الماضى"[3]، ولما سمع بذلك رجع بالقافلة من غير حج لإصراره على هذه المنكرات.
[4]

([1])الجبرتى : المصدر السابق، جـ٤، ص ٥٤ تحت عنوان "واستهل شهر شوال بيوم الأحد سنة ١٢٢٣هـ، والجدير بالذكر أن المؤرخ الأمريكى لوثروب ستودارد قد اكد قول الجبرتى موضحا ان ابن سعود لم يمنع قافلة الحج الشامى، بل طلب من اميرها عبد الله باشا والى الشام ان يدخل مكة ويقضى مناسك الحج هو وأصحابه، انظر: حاضر العالم الاسلامى، جـ٤، ص ١٦٣.

([2])الجبرتى : المصدر السابق، جـ٤، ص ٥٤ تحت عنوان " واستهل شهر صفر بيوم الجمعة سنة ١٢٢٢هـ.

([3])نفسه، جـ٤، ص ٥٣ تحت عنوان : ثم دخلت سنة ١٢٢هـ.

([4])نفسه.

والواقع أن اتباع الدعوة لم يمنعوا أحدا من تأدية شعائر الحج فى أى وقت من الأوقات، خاصة وأن تمسكهم بأركان الاسلام التى من بينها حج بيت الله الحرام ورغبتهم فى إحياء المبادئ الإسلامية الصحيحة تجعل من الصعب اتهامهم بذلك، وربما كانت ظروف الحرب بينهم وبين خصومهم هى التى ساعدت على ترويج هذه الشائعات، ويبدو ذلك واضحا فى أنه بعد أن استقرت الأمور لرجالات الدعوة تأكدت سلامة الحج وتأدية المناسك.

ثانيا: وعندما اشتدت شوكة الدعوة وانتشرت ، وازداد اتباعها خشى اصحاب المصالح من البدع والأباطيل على مصالحهم، فأخذوا فى إثارة القلاقل وبث الدعايات المغرضة ضدها ، واستنجدوا بالسلاطين العثمانيين ، بحجة قيام انصار الدعوة بالاستيلاء على ما فى الحجرة النبوية الشريفة من مجوهرات وأموال وتحف وقد أوضح الجبرتى ما حدث مستندا إلى قدرته على إيضاح حقيقة أمور الدين وجوهره فقال: "وهذه الأشياء أرسلها ووضعها خساف العقول من الأغنياء من الملوك والسلاطين الأعاجم وغيرهم، إما حرصا على الدنيا وكراهة أن ياخذها من يأتى بعدهم، أو لنوائب الزمان فتكون مدخرة ومحفوظة لوقت الاحتياج إليها، فيستعان بها على الجهاد ودفع الأعداء، فلما تقادمت عليها الأزمنة، ارتسم فى الأذهان حرمة تناولها ، وأنها صارت مالا للنبى- صلى الله عليه وسلم- فلا يجوز لأحد أخذها ، ولا انفاقها". (١)

وقد علق الجبرتى على ذلك بقوله: " والنبى صلى الله عليه وسلم منزه عن ذلك ، ولم يدخر شيئا من عرض الدنيا فى حياته ، وقد أعطاه الله الشرف الأعلى وهو الدعوة إلى الله تعالى والنبوة والكتاب، واختار أن يكون نبيا عبدا ولم يختر أن يكون نبيا ملكا". (٢)

واستعان الجبرتى فى إثبات تعفف النبى – صلى الله عليه وسلم- وزهده فى الدنيا بما رواه الترمذى أن النبى – صلى الله عليه وسلم – قال: " عرض على ربى

---

(١)الجبرتى : المصدر السابق، جـ٤، ص ٩٠ تحت عنوان "واستهل شهر ذى الحجة بيوم الثلاثاء ١٢٢٣هـ.

(٢)نفسه ، ص ٩٠.

ليجعل لى بطحاء مكة ذهبا قلت لا يا رب ، ولكن أشبع يوما وأجوع يوما.. فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك ، وإذا شبعت شكرتك وحمدتك[1]، كما ذكر موضحا بأنه إذا كان الرسول – صلى الله عليه وسلم – قد منع بنى هاشم فى حياته من تناول الصدقة وحرمها عليهم ، فإن كنز المال فى حجرته الشريفة وحرمان مستحقيه من الفقراء والمساكين والمحتاجين أمرا لا يوافق عليه الرسول – صلى الله عليه وسلم- ولا الشرع[2]، فليس فى الدين تقديم الهدايا وتعليقها لقبر الرسول- صلى الله عليه وسلم - كما أن الدين يحرم كنز الذهب والفضة، ويأمر بانفاقها فى سبيل الله، يضاف إلى ذلك أن الامام سعود كان قد استفتى علماء المدينة بصرف ما فى الحجرة فى منفعة الإسلام والمسلمين، فأفتوه بذلك أنه ينبغى على ولى الأمر إخراج المال الذى فى الحجرة وصرفه فى حاجة أهل المدينة وجيران الحرم ، خاصة وأن الحاجة والضرورة كانت قد اشتدت إلى إخراج هذا المال وانفاقه[3]، ومن هنا كانت الفرية التى رددها أعداء الدعوة حول هذا الموضوع للنيل منها ومن أصحابها، قد فندها الجبرتى ودحضها.

ثالثا: ولما كانت الأداة التى استغلها السلطان العثمانى للحد من قوة الدعوة هى جيش محمد على المكون من الألبان، فإن الجبرتى قد ذكر حقيقة هؤلاء الجند، ولم يخف سخطه عليه وإظهارهم على صورتهم الحقيقية فاستهزأ بأفعالهم ، وقارن بين ذلك وبين ما يفعله أتباع الدعوة الذين يتمسكون بكتاب الله وسنه رسوله الكريم ، والذين كانوا فى قتالهم يصلون صلاة الخوف ، بينما كان جنود محمد على لا يفهمون قواعد الدين ، وقد استشهد الجبرتى فى ذلك بصورتهم فى المعسكر الذى اجتمعوا فيه قبل السفر إلى الحجاز، فحكى عن أنواع المحرمات التى فعلوها فى شهر رمضان قائلا: "يأكلون ويشروبن جهازا فى نهار رمضان ويقولون نحن مسافرون

([1])الترمذى : باب الزهد (٣٥) وانظر ايضا تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى، جـ٧، ص ١٢- ١٤.

([2])الجبرتى : المصدر السابق، جـ٤، ص ٩١ (ذى الحجة ١٢٢٣هـ)

([3])محمد اديب غالب : من أخبار الحجاز ونجد فى تاريخ الجبرتى: المملكة العربية السعودية – دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الطبعة الأولى ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥، ص ١١٣.

ومجاهدون.. كما كانوا يأكلون الحشيش ويشربون المسكرات ويزنون ويلوطون ويشربون الجوزه ويلعبون القمار جهارا فى نهار رمضان ولياليه". (١)

ولما انهزمت جيوش طوسون بن محمد على فى وادى الصفراء على يد السعوديين فى ١٣ ذى الحجة ١٢٢٦هـ لم يستطع الجبرتى ان يخفى ما يكنه فى صدره تجاههم فأوضح حقيقة ما حدث مبينا كيف كان فرار هؤلاء الجند مزريا ، فقال: " انهزموا جميعا وولوا الأدبار ، وطلبوا جميعا الفرار ، وتركوا خيامهم وأحمالهم وأثقالهم، وطفقوا ينهبون ويخطفون ما خف عليهم من أمتعة رؤسائهم، فكان القوى منهم يأخذ متاع رفيقه الضعيف ، ويأخذ دابته ويركبها وربما قتله .. حتى كانوا من شدة حرصهم وخوفهم واستعجالهم على النزول فى الفنائر يخوضون فى البحر إلى رقابهم كأنما العفاريت فى أثرهم تريد خطفهم". (٢)

ثم شرح أسباب هزيمتهم واندحارهم على لسان بعضهم بقوله " ولقد قال بعض أكابرهم من الذين يدعون الإصلاح والتورع، أين لنا بالنصر، وكثرة عساكرنا على غير الملة ، وفيهم ما لا يتدين بدين ، ولا ينتحل مذهبا ، وصحبتنا صناديق المسكرات، لا يسمع فى عرضينا آذان ولا تقام به فريضة ، ولا يخطر فى بالهم ولا خاطرهم شعائر الدين". (٣)

وقارن الجبرتى بين هؤلاء وبين عساكر الدولة السعودية الأولى، فوصف تقواهم وورعهم وتمسكهم بالدين قائلا: " والقوم إذا دخل الوقت أذن المؤذنون وينتظمون صفوفا خلف إمام واحد بخشوع وخضوع، وإذا كان وقت الصلاة والحرب قائمة أذن المؤذن وصلوا صلاة الخوف ، فتتقدم طائفة للحرب وتتأخر الأخرى للصلاة وعسكرنا يتعجبون من ذلك، لأنهم لم يسمعوا به فضلا عن رؤيته". (٤)

وبعد أن انتصر جند محمد على فى بعض المعارك ، واستطاعوا الوصول إلى بدر، وصف الجبرتى ما فعله هؤلاء الجند مع الأهالى من أهوال تقشعر لها

---

(١) الجبرتى : المصدر السابق، جـ٤، ص ٢٢٨ تحت عنوان " واستهل شهر رمضان بيوم الاربعاء سنة ١٢٣٩، انظر ايضا ص ٣١٠.

(٢) الجبرتى : المصدر السابق، جـ٤ ص١٤٩، ثم دخلت سنة سبع وعشرين ومائتين والفا".

(٣) نفســـــه.

(٤) نفســـــه

الأبدان ، وقارن بين ما فعله هؤلاء وبين ما يفعله جنود الدعوة عند انتصارهم فقال عن جند محمد على: " ولما وصلوا بدرا واستولوا عليها وعلى القرن والخيوف، وبها خيار الناس، وبها أهل العلم والعلماء نهبوهم ، وأخذوا نساءهم وبناتهم وأولادهم وكتبهم ، فكانوا يفعلون فيهم ويبيعونهم من بعض لبعض ويقولون هؤلاء الكفار الخوارج". [1]

وقد تعجب الجبرتى من هذه الأفعال قائلا: " وطفقوا يبيعونهم على من يشتريهم مع أنهم مسلمون وأحرار"[2]، كما آلمه القتل والتنكيل الذى أحدثته قوات محمد على فى انصار الدعوة ، فأبدى غضبه من ذلك قائلا: " كيف تقتلون أناسا يقولون لا إله إلا الله".

أما عن اتباع الدعوة فقد وصفهم الجبرتى بأن جل همهم كان تنقية الدين من البدع والخرافات ، فأوضح أنه بعد انتصار الأمير سعود ودخوله مكة فى عام ١٢١٨هـ عقد مجلسا بالحرم ، وتباحث فى شأن البدع والمحرمات المخالفة للكتاب والسنة التى يتبعها الناس[3]، وامر بمنع المنكرات والتجاهر بها ، وشرب الأراجيل بالتنباك فى المسعى بين الصفا والمروة (كما أمر) بالملازمة على الصلوات فى الجماعة، ودفع الزكاة ، وترك لبس الحرير والمقصبات، وإبطال المكوس والمظالم[4]، بعد أن وصل الحال فى هذه البلاد المقدسة إلى حال لا تحتمل من الظلم حتى وصل الأمر ببعض الناس أنهم كانوا يأخذون على الميت إتاوة حتى يستطيع أهله دفنه ، وإذا لم تدفع هذه الإتاوة يظل الميت بلا دفن ، يضاف إلى ذلك انهم استحدثوا العديد من المكوس على البيع والشراء ، وصادروا أموال العديد من الناس ومساكنهم". [5]

---

(١) الجبرتى : المصدر السابق، جـ٤، ص ١٤٩ تحت عنوان "ثم دخلت سنة سبع وعشرين ومائتين والف".

(٢) نفسه ، ص ٣٢٦ تحت عنوان : واستهل شهر صفر بيوم الجمعة سنة ١٢٣٥هـ.

(٣) نفسه، جـ٣، ص ٢٦٨ تحت عنوان "شهر صفر سنة ١٢١٨هـ".

(٤) نفسه ، جـ٤، ص ٥ تحت عنوان " سنة احدى وعشرين ومائتين وألف".

(٥) الجبرتى : المصدر السابق جـ٤ ، تحت عنوان : سنة احدى وعشرين ومائتين وألف".

كما طلب الأمير سعود من المجتمعين فى الحرم اتباع ما أمر به الله تعالى، واتباع سنة الرسول- عليه السلام- وما سار عليه الخلفاء الراشدون والصحابة والتابعون والأئمة المجتهدون ، وترك ما حدث فى الناس من الالتجاء لغير الله، مثل تقبيل الأعتاب، والخضوع والتذلل والمناداة والنذور والاختلاط النساء بالرجال. (١)

كما ضرب الجبرتى مثلا آخر لبيان الفرق بين جنود الدعوة ، وبين جنود محمد على، فأوضح أنه بعد دخول اتباع الدعوة المدينة المنورة على ساكنها افضل الصلاة وأتم التسليم لم يحدثوا بها حدثا غير منع المنكرات ، وشرب التنباك فى الأسواق، وهدم القباب ما عدا قبة الرسول صلى الله عليه وسلم. (٢)

ومما ذكره الجبرتى يتضح ان الجند المتمسكون بعقيدتهم هم دائما على خشية الله فى اعمالهم وأفعالهم ، اما الجند الذين لا يأبهون بدين أو عرف ، فالنهب والسلب كان طريقهم.

والسؤال الذى يطرح نفسه هو : هل اشترك المصريون فى جيش محمد على أثناء محاربته للسعوديين؟

الواقع أن المصريين كانوا بعيدين عن الجندية خلال هذه الفترة، وأن جيوش محمد على كانت خالية تماما منهم، بل كانت تتكون من الترك ، والألبان والمغاربة ، ويؤكد ذلك ان المؤرخين الذين عاصروا هذه الفترة وكتبوا عنها ذكروا فى كتاباتهم ان قوات محمد على – التى دخلت الجزيرة العربية- كانت من غير المصريين ، وذكروا هذه القوات مرة باسم "الترك"(٣)، ومرة باسم "الدالاة"(٤)، ومرة باسم "الططر"(٥)، ومرة باسم "المغاربة"(٦)، وتذكرنا وقائع التاريخ ان رغبة محمد على فى التخلص من جنوده الانكشارية، والألبان الذين جلبهم معه من تركيا إلى مصر لا خراج الفرنسيين

---

(١)نفسه.
(٢)نفسه، جـ ٣، ص ٣٦٧ تحت عنوان "شهر رجب ١٢٢٠هـ.
(٣)انظر على سبيل المثال : الجبرتى : المصدر السابق، جـ٤، ص ١٥٥، ١٥٩، ٢٢٦، ٣٠٨.
(٤)انظر على سبيل المثال : الجبرتى جـ٤، ص ٢٤١، ٢٤٥، والجدير بالذكر ان الدلاة جاءوا من نواحى الشام وجبل الدروز والمناولة.
للتفاصيل انظر : الجبرتى جـ٤، ص ٢٤١، ٢٤٢.
(٥)انظر على سبيل المثال : جـ٣، ص ٣٧١.
(٦)انظر على سبيل المثال : الجبرتى جـ٤، ص ص ٢٢٠، ٢٢٧، ٢٩٠، ٣٠٨، ٣٢٦.

، وكانوا يثيرون الشغب والاضطراب ضده فى بدايات حكمه لمصر، هى التى شجعته على دخول الحرب بهم ضد السعوديين حتى يتخلص منهم ويبعدهم عنه[1]، كما تذكرنا وقائع التاريخ أيضا أن المصريين لم يدخلوا الجندية فى عهد محمد على إلا فى عام ١٨٢٠ ميلادية[2]، بينما كانت حروب محمد على فى الجزيرة العربية قد انتهت فى أواخر عام ١٨١٨ بسقوط الدرعية. [3]

يضاف إلى ذلك ان هذه الحرب كانت غرما على المصريين لا غنما لهم، فقد أوضح الجبرتى ان محمد على ارهقهم ماديا، بحجة حروبه فى الحجاز فأمر بزيادة الضرائب عليهم ، وجعل على كل فدان ستة قروش وسبعة وثمانية، وذكر أنها مساعدة على حروب الحجاز[4]، هذا إلى جانب ما أوضحه الجبرتى من أن هذه الحروب اوجدت حالة من اختلال الأمن والارتباك الاقتصادى، وعدم استقرار معيشة المصريين، لدرجة أن عسكر محمد على وقفوا "خارج المدينة يخطفون ما يأتى به الفلاحون من السمن والجبن والتبن والبيض وغير ذلك"[5]، وتوالت المظالم ، وتزايدت أنواعها، مع استمرار الغلاء فى جميع أسعار المبيعات والمآكل والمشارب بسبب ذلك[6]، لدرجة أن قل اللحم والسمن والجبن خاصة بعد أن أخذ محمد على مواشى الفلاحين وأغنامهم[7]، وكل ذلك زاد أحوال المصريين ضنكا على ضنك ، وارهقهم فى المساهمة فى حرب ليس لهم فيها ناقة ولا جمل.

وهكذا كان موقف الجبرتى واضحا من الدعوة الوهابية ومن محمد على.

---

(1)للمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع انظر : الدارة : العدد الرابع: السنة السابعة رجب ١٤٠٢هـ/ مايو ١٩٨٢ تحت عنوان " محمد على ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية، ص ص ٤٥- ٥٣.

(2)انظر على سبيل المثال : عبد الرحمن الرافعى " تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر- الجزء الثالث ، عصر محمد على، القاهرة الطبعة الأولى ١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م، ص ص ٣٥٤- ٣٦٧.

(3)نفسه، ص ١٥٣

(4)الجبرتى :المصدر السابق، جـ٤، ص ٣١٣ تحت عنوان "واستهل شهر ذى الحجة الحرام بيوم الجمعة سنة ١٢٣٣هـ.

(5)نفسه، جـ٣، ص ٣٦٩ تحت عنوان "واستهل شهر رمضان بيوم السبت سنة ١٢٢٠هـ

(6)نفسه: جـ٤، ص ٩٠ تحت عنوان: واستهل شهر ذى الحجة بيوم الثلاثاء سنة ١٢٢٣هـ

(7)نفسه.

الفصل الثالث

التدخل الأوربي السياسى في العالم العربي ومضاعفاته

يعالج هذا الفصل تطورات التدخل السياسي في العالم العربي والتيارات السياسية التي صاحبته ومضاعفاتها في الفترة من ١٢١٣ هـ/١٧٩٨م إلى ١٣٣٧ هـ/١٩١٨م إي منذ الحملة الفرنسية على مصر وحتى نهاية الحرب العالمية الأولى .

فقد عملت الدول الاستعمارية الأوروبية على سلب الشعوب العربية استقلالها ، وحرمانها من حريتها سواء بالاحتلال العسكري المباشر أو السيطرة الاقتصادية المتمثلة في القروض والشركات الاستغلالية أو الغزو الثقافي الإجتماعى المتمثل في محو الروح القومية لهذه الشعوب عن طريق فتح المدارس الأجنبية والبعثات التبشيرية التي تتخذ من الدين ستاراً ممهداً للاستعمار، وقد ساعد على ذلك أن معظم أقطار الوطن العربي منذ القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي لم تكن تملك مصائرها بأيديها بل كانت تابعة للدولة العثمانية التي وصلت في أيامها الأخيرة إلى درجة من الضعف والتخلف جعلت المؤرخين يطلقون عليها اسم " الرجل المريض " ، وكانت الحملة الفرنسية على مصر ١٢١٣-١٢١٦ هـ/١٧٩٨- ١٨٠١ م بداية التدخل الأوربي في الوطن العربي ، كما كان اهتمام إنجلترا بالسيطرة على جميع الأراضي العربية الواقعة على الطريق الرئيسي لأكبر مستعمراتها في الشرق وهى الهند سبباً في اهتمامها بالسيطرة على مناطق البحر الأحمر ، ومصر وجنوب الجزيرة العربية والخليج والعراق وغيره . هذا في الوقت الذي تطلعت فيه فرنسا لتدعيم سيطرتها على أقطار المغرب العربي . أما الدول الأوروبية الأخرى فقدت تنافست على ما تبقى من أقطار عربية فعملت إيطاليا على احتلال ليبيا كما عملت ألمانيا على مد نفوذها الإقتصادى في الدولة العثمانية عن طريق إنشاء خط حديدي يربط برلين ببغداد والبصرة ماراً بالأستانة والذي أطلق عليه مشروع الاتجاه نحو الشرق Drang Nachos ten وفيما يلي نعرض لذلك : .

أولاً : مصر

أحست بريطانيا بعد حملة بونابرت على مصر بتعرض مصالحها وممتلكاتها في الشرق للخطر خاصة بعد أن أثبتت وقائع هذه الحملة أن موقع مصر الجغرافي يمثل الشريان الرئيسي لها وأنه يربطها بأكبر مستعمراتها في الشرق (وقتذاك) وهى الهند.

ومن هنا أخذ الإنجليز يعملون كل ما في وسعهم لإحباط مساعي الفرنسيين لتثبيت نفوذهم في هذه البلاد مما وضع المسألة المصرية في المكان الأول على مسرح السياسة الدولية ، ومع أن الحملة لم تكن لها نتائج حربية تذكر ، فإن نتائجها السياسية كانت ذات شأن كبير لدرجة يمكن معها القول أن المسألة المصرية بدأت منذ اليوم الذي نزل فيه بونابرت أرض مصر حيث تفتحت فيه أعين الدول الكبرى إلى الأهمية الإستراتيجية والتجارية لمصر وأن خرج الفرنسيين منها بعد ذلك يعد بمثابة إسدال الستار على المرحلة الأولى من النزاع السياسي بين انجلترا وفرنسا والذي قدر له فيما بعد أن يحتل المركز الأول على مسرح السياسة الدولية في المنطقة العربية ، ودفع انجلترا وفرنسا إلى التقرب من الباب العالي في الأستانة كما حاولت التقرب من زعماء المماليك . ولما نجحت فرنسا في مصادقة الباب العالي على حساب إنجلترا أرسل الإنجليز حملتهم البحرية بقيادة الجنرال "فريزر" Frazer للاستيلاء على مصر فاستولوا على الإسكندرية وأرسلوا قواتهم لاحتلال رشيد، ولكن حملتهم باءت بالفشل مما اضطر الأسطول الإنجليزي إلى الانسحاب على عجل من الإسكندرية ١٢٢٢ هـ / سبتمبر ١٨٠٧ خاصة وأن الموقف في أوربا كان قد تحول في غير صالحهم (١)

ومع ذلك فقد استمر التنافس الفرنسي الإنجليزي على مصر حيث اعتبر الفرنسيون مصر من مناطق نفوذهم فأرسل بونابرت إلى الأستانة السفير "سباستيانى" لإقناع السلطان العثماني بالوقوف بجانب فرنسا ونجح في ذلك إلى حد كبير . وبعد

---

(١) للتفاصيل انظر . محمد رفعت : التيارات السياسية في حوض البحر المتوسط ، لجنة البيان العربي القاهرة ، ١٩٤٩ ص ٤٧

استقرار الأمور لمحمد على وقف الفرنسيون بجانبه وعملوا على نشر نفوذهم الثقافي والسياسي من خلاله فحاولوا إحياء فكرة مشروع قناة تربط البحرين الأحمر بالمتوسط ، ولكن محمد على لم يسترح لهذه الفكرة بل اعتبرها مقدمة لبسط نفوذهم على مصر ، وقد حاول الفرنسيون تنفيذ هذه الفكرة في عهد خلفاء محمد على حتى وجدت قبولاً في عهد ابنه سعيد .

واستمر تربص الدول الأوربية بمحمد على ورغبتها في تحجيم قوته حتى واتتها الفرصة في أعقاب الثورة في بلاد اليونان ضد الحكم العثماني ولجوء السلطان إلى الاستعانه بمحمد على في إخماد هذه الثورة ، فبعد أن أرسل محمد على قواته بقيادة ابنه إبراهيم باشا إلى هذه البلاد وتمكن من إحراز العديد من الانتصارات خشيت الدول الأوربية من عواقب ذلك الانتصار ، مما جعل القضية اليونانية تستحوذ انتباه الرأي العام الأوربي وأدى إلى قيام أساطيل الدول الأوربية بالتدخل في الأمر ، ونشوب معركة بحرية بينها وبين الأسطولين المصري والعثماني نتج عنها تحطيم الأسطول المصري وفقدان حوالي ثلاثين ألف جندي وانتهى الأمر بسحب القوات المصرية من المورة وتبادل الأسرى بين الطرفين (٢)

ومع أن خسارة مصر العسكرية في هذه الحرب كانت فادحة من الناحية العسكرية فإن مكاسبها السياسية كانت كبيرة ، فقد فاوضت الدول الأوربية محمد على لأول مرة دون وساطة الدولة العثمانية مما أعطى لمصر منزلة سياسية أشبه ما يكون بالاستقلال الفعلي عن تركيا ونتيجة لذلك دب الخلاف بين السلطان ومحمد على وكان ذلك نذيراً ببداية سوء العلاقات بينهما، وانتهى الأمر باستيلاء محمد على على بلاد الشام وتوسيع رقعة أملاكه على حساب الدولة العثمانية ، ورغبته في تكوين دولة مستقلة تمتد حدودها إلى أقصى بلاد الشام ، ولكن الدول الأوربية وخاصة انجلترا عارضته أشد المعارضة ، وحذرته من عواقب ذلك ، وهددته باستخدام القوة إذا تمسك

---

(٢) Dodwell , H : The Founder of Modern Egypt , A Study of Muhammad Ali , Cambridge, ١٩٣٢p.٢٢ .

برأيه، وأجبرته في نهاية الأمر على قبول تسوية ١٢٥٦-١٢٥٧هـ/١٨٤٠-١٨٤١م . وعلى الرغم من ذلك فقد حاول الباشا اصطناع المجاملة في صلاته بكل من إنجلترا وفرنسا بشرط ألا يتعارض ذلك مع مصالح مصر كما حاول الاستفادة من منافسة كل منهما الأخرى ، ولما كان يخشى باستمرار أطماع إنجلترا في مصر فإنه تعاون مع الحكومة الفرنسية في تحصين السواحل المصرية وفى نفس الوقت تعاون مع انجلترا بنقل بريدها عن طريق مصر ومع ذلك فقد رفض محمد على محاولات انجلترا إقناعه بإقامة مشروع للسكك الحديدية بدلاً من مشروع القناة [٣] كما رفض مطالب فرنسا بشق القناه خشية تزايد نفوذ كل منهما في مصر وفضل تنفيذ مشروع القناطر الخيرية[٤]

وفى أعقاب تولى عباس باشا الحكم ١٢٦٥-١٢٧١هـ/١٨٤٨-١٨٥٤م تم فرض العديد من القيود على الأجانب المقيمين في مصر ، والتخلص ممن كان يعمل منهم في المصالح والمؤسسات الحكومية . ومما يحسب له أنه لم يفتح أبواب التدخل الأجنبي على بلاده ، ولم يمد يده للاستدانة من أحد وإن كان اعتماده على الإنجليز أكثر من جده قد بدا واضحاً .

أما في عهدي سعيد وإسماعيل فقد استطال النفوذ الأجنبي والتدخل السياسي مصر خاصة وأن سياستها شجعت الأجانب على التدفق إليها فزادت أعدادهم ، وطالت إقامتهم فيها . فقد أدت ثقة سعيد باشا (١٢٧١-١٢٨٠/١٨٥٤-١٨٦٣م) المفرطة بالأجانب إلى فتح الثغرات أمام التدخل الأجنبي ، والتي كان أهمها امتياز قناة السويس والاستدانة من البيوت المالية الأوربية . فقد وقع سعيد مع "فرديناند دى لسبس " مرسوم الامتياز الخاص بإنشاء القناة لمدة ٩٩ عاماً كما أنه لجأ إلى الاستدانة من

---

(٣) أحمد عبد الرحيم مصطفى : علاقات مصر وتركيا في عهد الخديوى إسماعيل ١٨٦٧-١٨٧٩ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٧ ص ٧-٨ .

(٤) عبد المنعم الجميعى : أواخر أيام محمد علي دراسة ضمن ندوة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية بمناسبة مرور ١٥٠ عاماً على رحيل محمد على باشا الكبير ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ٢٠٠٠م ص ١٢٢ .

البنوك الأوربية نتيجة لكثرة إنفاقه وتبذيره مما أدى إلى نذير من الكوارث والأحداث السياسية التي أصابت البلاد وأدت إلى فتح باب التدخل الأجنبي.

أما في عصر إسماعيل (١٢٨٠-١٢٩٧هـ/١٨٦٣-١٨٧٩م) فقد انفتح الباب على مصراعيه للأجانب بعد أن عقد قروضاً فاحشة مع البيوت المالية الأوربية . (٥)

وتقرب إلى الدول الأوربية وقناصلها لمساندته في تحقيق أغراضه . ونتيجة لذلك ، ونظراً لبذخه تعاظم أمر الديون خاصة بعد المبالغ الضخمة التي أنفقها في تشييد وبناء القاهرة الحديثة ، وفى حفلات افتتاح قناة السويس لدرجة أن ازدادت الديون من ٣,٢٩٣,٠٠٠ جنيه في أوائل عهده إلى حوالي ٩١ مليوناً من الجنيهات مما جعلها حملاً ثقيلاً على الخزينة المصرية ، وعلى أهالي البلاد .

ونتيجة لفشله في تسديد أقساط الديون ، وتوقفه عن تسديد سندات الخزانة المستحقة ، وظهور شبح إفلاس مصر تدخلت الدول الكبرى في شئون البلاد بحجة المحافظة على أموال رعاياها من أصحاب الديون . وكان من أهم مظاهر التدخل الأجنبي في مصر خلال هذه الفترة إرسال لجنة إنجليزية برئاسة الخبير المالي " ستيفن كيف" Cave بغرض دراسة أحوال مصر المالية وكتابة تقرير عنها واقتراحها بأن تصبح الحكومة المصرية تحت المشورة الأوربية ، وأن يكون هناك جهاز للرقابة عليها تحت إشراف موظف إنجليزي ، وأن يحترم الخديوي ما تصدره هذه اللجنة من قرارات ولا يعقد أية قروض قبل الحصول على موافقتها ، وحتى لا تنفرد إنجلترا بالأمر سعت فرنسا لمشاركتها في تقاسم الغنيمة ، ولما سارت الضائقة المالية في طريقها وعجزت الحكومة عن سداد التزاماتها وافق الخديوي تحت ضغوط الدائنين على إنشاء صندوق الدين العمومي (٦)

---

(٥) للتفاصيل انظر : Farman; Egypt and Its Betrayal , New yourk, ١٩٠٨ pp. ٢٣٠-٢٣٤.

(٦) فيليب جلاد : قاموس الإدارة والقضاء جـ ٢ ص ١٤٤ .

بحيث يتولاه موظفون أوربيون يقومون بجمع المبالغ المخصصة للديون من المصالح الحكومية وتسديد أقساط الديون وما استحق عليها من فوائد . ولم يقتصر الأمر على ذلك فإنه نظراً لعدم اقتناع الدول صاحبة الديون بهذه الإجراءات تشكلت لجنه مالية مختلطة لمراقبة حسابات الحكومة حيث اتفقت بريطانيا وفرنسا على تنسيق موقفيهما إزاء الأزمة المالية في مصر ، واتفقتا على إرسال مندوبين لبحث هذه المسألة ، فأرسلت انجلترا "جوشن" Goshen" وانتدبت فرنسا "جوبير" Jiubert مندوباً عن الدائنين الفرنسيين ليشترك مع المندوب الإنجليزي في عرض مطالب الدائنين على الخديوي . وقد طلب هذان المندوبان من الخديوي فرض الرقابة الثنائية على المالية المصرية ، وجعل السكك الحديدية وميناء الإسكندرية تحت إدارة لجنة مختلطة وقد وافق الخديوي على هذا الطلب كما اضطر بعد ذلك إلى التنازل عن أملاكه الخاصة ، وأملاك أسرته للحكومة .

يضاف إلى ذلك أن الخديوي وافق على تعيين وزيرين أوربيين في وزارة "نوبار باشا" أحدهما إنجليزي للمالية وهو المستر "ولسن" والآخر فرنسي للأشغال العمومية وهو المسيو "بلينير" يضاف إلى ذلك أن موافقة إسماعيل على إنشاء المحاكم المختلطة والتي كانت امتيازاً زاد من تدخل الأجانب وتغلغل نفوذهم في القضاء والتشريع ، حيث صار المصريون بعد إنشائها خاضعين للقضاء المختلط إذا وقع نزاع بينهم وبين الأجانب ، ونتيجة للغضب الذي ألم بالمصريين لما لحق بهم من هذه الإهانات ونظراً لإحالة هذه الوزارة عدداً كبيراً من الضباط دون حصولهم على رواتبهم المتأخرة تظاهر حوالي ٤٠٠ ضابط أمام وزارة المالية في (١٢٩٧هـ) ١٨ فبراير ١٨٧٩ مما اضطر الخديوي إلى إقالة وزارة نوبار وتعيين وزارة جديدة

برئاسة "شريف باشا" أخرج منها الوزيرين الأوربيين مما أدى إلى غضب انجلترا وفرنسا على الخديوي ، واتفاقهما على عزله (٧)

ونتيجة لضغوط الدول الأوربية على السلطان العثماني صدرت الأوامر بعزل إسماعيل وتولية ابنه توفيق مكانه وذلك في (١٢٩٧هـ) ٢٦ يونيو ١٨٧٩م كل هذه الأحداث أدت إلى اضطراب الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في البلاد ، وزاد من سخط المواطنين واشتداد الوعي القومي ، ووقوف المصريين جميعا في مواجهة النفوذ الأجنبي واستمرت إنجلترا تواصل سياستها للانفراد بالسيطرة على مصر حتى أمكنها التدخل بمفردها في النزاع الداخلي الذي حدث بين الخديوي توفيق و العرابيين، فأرسلت كل من إنجلترا وفرنسا في أول الأمر أسطولا بحريا لمراقبة تطورات الأحداث في ١٢٩٩ ه مايو ١٨٨٢ م ولما أزمعت إنجلترا التدخل بالقوة وقامت بضرب الإسكندرية أحجم الفرنسيون عن الاشتراك معها وتدخلت إنجلترا بمفردها فكانت موقعة التل الكبير في ١٣٠٠ هـ سبتمبر ١٨٨٢م وفيها انهزم العرابيون ، وكان الاحتلال الإنجليزي لمصر (٨) .

وفى ظل نظام الاحتلال الذي يظهر غير ما يبطن تمتع الخديوي بامتيازاته الداخلية وترك للمعتمد البريطاني الحق في أن يجمع بين يديه كل السلطات بواسطة المستشارين و المفتشين الانجليز مما شل به جميع السلطات الشرعية في البلاد .

ثانيا : السودان :

أدى فتح السودان في عهد محمد على في عام ١٨٢٠ إلى إرسال بعثات علمية للكشف عن منابع النيل فقد وصل البكباشي سليم أحد ضباط محمد على البحريين في ثلاث رحلات قام بها بين سنة ١٨٣٨ و ١٨٤٢ إلى خط عرض ٥ شمال خط الاستواء

---

(٧) كرابيتس : إسماعيل المفترى عليه – ترجمة فؤاد صروف – القاهرة ، دار النشر الحديث ص ٢٤٣ وأيضاً Cromer : Modern Egypt, Vol, ١, London, ١٩٠٨, p. ١٣٥

(٨) محمد رفعت : التيارات السياسية ص٥٧-٥٨

ثم استكمل الأوربيون اكتشاف أجزاء النيل العليا . وبعد افتتاح قناة السويس للملاحة في عام ١٨٦٩ أخذ الخديوي إسماعيل على عاتقه توطيد سلطان مصر في وادي النيل واستطاع أن يمد سلطانها جنوبي خط الاستواء ولما اضطرمت الثورة العرابية أغفلت الحكومة المصرية أمر الثورة المهدية في السودان لمواجهة الخطر الذي يهدد البلاد وعندما انتهت الثورة في مصر بالإخفاق أصدر الخديوي توفيق مرسوما بتسريح الجيش المصري وفى تلك الأثناء استفحل أمر الثوار وبعد أن توالت انتصاراتهم طلبت بريطانيا من مصر إخلاء السودان ، ولم تكد الحكومة المصرية تقرر إخلاء السودان حتى بادر الإنجليز في تنفيذ خطتهم المرسومة بالتواطؤ مع بعض الدول الأوربية على اقتسامه فبادر الإيطاليون باحتلال "مصوع" وتوسيع دائرة ممتلكاتهم في "إريتريا" واستولى الإنجليز على محافظتي "زيلع" و "بربرة" عام ١٣٠٢ هـ/ ١٨٨٤م والفرنسيون على "تاجورة" و جيبيوتى" .

كما عقدت إيطاليا وإنجلترا معاهدة في ١٣٠٩ هـ/١٥ أبريل ١٨٩١م اتفق فيها على اقتسام النفوذ بينهما في السودان ، إذ أقرت إنجلترا ما أخذته إيطاليا على حدود البحر الأحمر وفى الصومال ، كما سمحت لها باحتلال "كسلا" والأراضي المتاخمة لها حتى نهر العطبره وذلك في نظير إقرار إيطاليا لانجلترا باحتلال "زيلع" و "بربرة" . (٩) ونظراً لخشية الإنجليز من ازدياد أطماع الدول الأوربية فيما تبقى من أراضى السودان بحجة أنها لم تكن ملكا لأحد أو أنها "ملك مباح" Res Nelius يستطيع من يشاء أن يستحوذ عليها ، فقد رأت إنجلترا ضرورة استرجاع السودان خاصة وأن الإنجليز خشوا من أطماع فرنسا في هذه البلاد بعد أن أبرمت فرنسا مع ألمانيا اتفاقا في١٣٠٨ هـ/ يونيو ١٨٩٠ لتحديد المناطق الاستعمارية بينها على ساحل أفريقيا الشرقي ، واحتفظت لنفسها في هذا الاتفاق بحوض النيل الأعلى حتى الحدود المصرية ، ونظرا لتزايد التنافس الاستعماري بين إنجلترا و فرنسا على روافد النيل عهدت فرنسا إلى الكابتن "مار شان" Marchand بالزحف على "فاشودة" بقصد

---

(٩) عبد الرحمن الرافعي : مصر و السودان في أوائل عهد الاحتلال – النهضة المصرية القاهرة ، ١٣٦٧ هـ /١٩٤٨ م ، ص ١٤١ .

احتلال مركز هام في أعالي النيل تستطيع أن تساوم به إنجلترا على الدخول في مؤتمر أوربي تطرح فيه مسألة الجلاء عن مصر وتحديد مصير السودان المصري .

وقد سار "مارشان" على رأس كتيبة من الجند قاصدا "فاشودة" فعقد اتفاقا مع مشايخ "الشلك" تم بمقتضاه بسط حماية فرنسا على بلادهم (١٠) كما استطاع الوصول إلى "فاشودة" واحتلالها في ١٣١٦ هـ/ ١٠ يوليو ١٨٩٨ مما أدى إلى حدوث أزمة سياسية بين إنجلترا وفرنسا فأصدرت الحكومة البريطانية أوامرها إلى "كتشنر" سردار الجيش المصري في السودان بالإسراع إلى فاشودة ورفع العلم المصري عليها باعتبارها بلدا تابعا لمصر(١١) فسار "كتشنر" إليها مرتديا الطربوش ، كما أو عزت الحكومة البريطانية إلى الحكومة المصرية بأن ترسل برقية إلى لندن تطلب فيها رد جميع لأراضى السودانية إلى السيادة المصرية ، وعلى أثر ذلك اشتدت الأزمة بين إنجلترا وفرنسا ووصل التوتر في العلاقات بينهما إلى درجة الاستعداد للحرب ، ولما لم تكن فرنسا مستعدة للمخاطرة بالحرب مع إنجلترا من أجل مصر فقد اضطرت إلى التراجع و التسليم فأرسلت تعليماتها إلى "مارشان" بالانسحاب من فاشودة . وقد تم ذلك في ١٣١٤ هـ ديسمبر ١٨٩٧ م مما أدى إلى إصابة النفوذ الفرنسي في مصر بضربة قاضية .

وبعد استرجاع السودان سعت بريطانيا إلى مد سيطرتها عليه وكانت المشكلة التي واجهتها هي الكيفية التي يحكم بها السودان وهل يكون حكمه حكما إنجليزيا أم مصريا .

ولما كان مركز إنجلترا في مصر لا يزال يلقى مقاومة من بعض الدول الأوربية فقد استقر الرأي على أن يكون حكم السودان مشتركا بين الإنجليز والمصريين . نتيجة لذلك وقعت اتفاقية الحكم الثنائي في السودان بين بريطانيا ومصر

---

(١٠) على إبراهيم عبده : المنافسة الدولية في أعالي النيل ١٨٨٠ – ١٩٠٦ م ، القاهرة ، الأنجلو المصرية ١٩٥٨ ، ص٢٧١ .

(١١) أحمد شفيق : حوليات مصر السياسية جـ١ ، القاهرة ، ص٣١ .

في عام ١٣١٦ هـ/ ١٩ يناير ١٨٩٩م (١٢) والتي خولت لبريطانيا بمقتضاها رفع العلم الإنجليزي إلى جانب العلم المصري في كافة أرجاءه وتعيين حاكم عام للسودان واستئثار الإنجليز بإدارته (١٣) ، كما أدى إلى استنكار الرأي العام المصري لذلك حيث اعتبر ما حدث سلبا لحقوق مصر الإدارية في السودان ، ومقدمة لاستيلاء الإنجليز عليه (١٤) .

واستمرت الأمور على هذا المنوال حتى قامت الحرب العالمية الأولى ، وقامت في مصر ثورة ١٩١٩ وانتقلت روح الثورة على أثرها إلى السودان . ولما اضطرت انجلترا إلى إلغاء الحماية و الاعتراف باستقلال مصر كانت مسألة السودان ضمن النقاط الأربع التي احتفظت بها انجلترا .

ثالثا : بلاد الشام :

بعد أن حصلت فرنسا على امتيازات من الدولة العثمانية تضمن تسهيلات لرعاياها من التجار وغيرهم في بلاد الشام انتشرت المؤسسات التبشيرية والتعليمية التي كانت بمثابة مراكز للثقافة الفرنسية في الشرق حيث كانت فرنسا تعتبر نفسها نصيرة المسيحيين الكاثوليك ثم ازداد نفوذ الفرنسيين في بلاد الشام أثناء حكم محمد على لهذه البلاد بسبب اعتماده في مشروعاته على الفرنسيين ، ونتيجة لخشية الدول الأوربية من عواقب تعاظم قوة محمد على بعد غزوه لبلاد الشام وتهديده للآستانة عاصمة الدولة العثمانية ونجاحه في جمع قسم كبير من البلاد العربية والناطقين بالضاد تحت راية واحدة ، عملت إنجلترا بنوع خاص على إيجاد المصاعب أمام قواته لإجباره على التراجع و الانسحاب ، فبذرت بذور الثورة بين الأهالي عن طريق

---

(١٢) مضابط مجلس الشيوخ : وفاق بين حكومة ملكة الإنجليز ، وحكومة الجناب العالي خديوي مصر بشأن إدارة السودان في المستقبل ملحق رقم (١) ص ٢٢٩-٢٣٠

(١٣) عبد الرحمن الرافعي : مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية ، القاهرة ، النهضة المصرية ١٩٦٢ ، ص ١٢٢ .

(١٤) محمد فؤاد شكري : مصر و السودان – تاريخ وحدة وادي النيل السياسية في القرن التاسع عشر ١٨٢٠ – ١٨٩٩ ، دار المعارف القاهرة ، ١٩٦٣ ص ٥٢٩ .

عملائها وألقت في روعهم أن أوربا مصممة على إجلاء القوات المصرية من بلاد الشام بالقوة [15] إذا لم يرضخ محمد على للحلول السياسية ، كما شجعتهم على العصيان بحجة أنهم إذا ثبتوا على عصيانهم سيجدون أساطيل أوربا قادمة لمساعدتهم ، وإلى جانب ذلك كان بعض عملاء الإنجليز يمدون الثوار بالسلاح و البارود والطعام للاستمرار في عصيانهم [16] كما كانوا يمدونهم بالمعلومات الخاصة باستعدادات قوات محمد على لقمع عصيانهم .

أما عن فرنسا فقد كانت ترغب في التعرف على أخبار بلاد الشام أولا بأول رغبة منها في ترجيح كفتها السياسية على الإنجليز والروس ، وتحقيقا لآمالها في هذه المنطقة [17] ، كما شجعت اللبنانيين على استمرار عصيانهم ودست بعض مواطنيها مع الثوار لتقوية عزائمهم على مقاومة السلطة وتوزيع الرصاص و البارود و النقود عليهم[18] يضاف إلى ذلك أن البابوية كان لها مندوب في لبنان يقوم بمعاونة العصاة [19] .

وبالنسبة للدولة العثمانية فقد بذلت كل ما في وسعها للقضاء على نفوذ محمد على فاتهمته تارة بالكفر و الإلحاد ، وتارة أخرى بالمروق عن الإسلام لعصيانه لخليفة المسلمين ، كما أنها استنجدت بروسيا و بريطانيا للحد من تطلعات محمد على أما روسيا فقد كانت تخشى من قيام حكومة قوية في الآستانة إذا سيطر عليها محمد على ، يوما ما كل ذلك ساعد على إضعاف هيبة الحكم المصري في بلاد الشام، وشجع على العديد من الانتفاضات ضده ، وزعزع الثقة في نفوس القوات المصرية

---

(١٥) سليمان أبو عز الدين : إبراهيم باشا في سورية ، بيروت ١٩٢٩ ص ٢٥٥ – ٢٥٦ .

(١٦) محافظ عابدين : محافظة ٢٥٩ ترجمة الوثيقة التركية ١٦٤ – ١ بتاريخ ١١ ربيع الآخر ١٢٥٦ هـ من محمد شريف باشا إلى الجناب العالي .

(١٧) محافظ عابدين : محفظة ٢٥٩ ترجمة الكتاب العربي رقم ١٥٤–٣ بدون تاريخ .

(١٨) محافظ عابدين : محفظة ٢٥٩ وثيقة ١٧١ صورة الإفادة الواردة من محافظ بيروت إلى سليمان باشا بتاريخ ١٤ ربيع الثاني ١٢٥٦ هـ .

(١٩) محافظ عابدين محفظة ٢٥٩ نفس الوثيقة السابقة .

وأضعف من عزيمتها وجعل وجودها في بلاد الشام على شفا حفرة من نار ، وانتهى الأمر بالتدخل الأوربي في المسألة ، وعقد معاهدة لندن في ١٢٥٦ هـ/١٥ يوليو ١٨٤٠م التي ألزمت محمد على بالتخلي عن بلاد الشام فيما عدا الجزء الجنوبي منه ، وإرجاع الجزيرة العربية للدولة العثمانية (٢٠) والاكتفاء بمصر ليحكمهما هو وأفراد أسرته من بعده عن طريق الوراثة ، وولايتي "عكا" و "صيدا" ليحكمها مدة حياته فقط ، وإن يخلى سوريا وكريت وبلاد العرب وغيرها من الجهات التي بها جنوده في مدة عشرة أيام ، وإن رفض ذلك بعد انتهاء لرفضه الأول تقوم الدول الأوربية بمساعدة الدولة العثمانية عسكريا ضده .

ولإرهاب محمد على بدأ الأسطول الإنجليزي في ضرب بيروت وبعض سواحل الشام مما اضطره في النهاية إلى الرضوخ لفرمان ١٢٥٧ ه / ١٨٤١ م الذي يقضى بإخراجه من الجزيرة العربية وبلاد الشام وكريت وقصر نفوذه على ولاية مصر (٢١) بحيث تنتقل بعد وفاته بالإرث لأولاده وأولاد أولاده الذكور بشرط أن يتولى الأكبر فالأكبر فيقلده الباب العالمي منصب الولاية كلما خلا هذا المنصب من وال (٢٢).

وبذلك عادت مصر إلى حدودها القديمة وتم تحديد قواتها المسلحة بحيث لا تزيد عن ١٨ ألف جندي ، وأن تدفع للدولة العثمانية ٣٢٠ ألف جنية سنويا.

وعلى الرغم من خروج قوات محمد على من بلاد الشام ، إلا أن التدخل الأجنبي ظل ناشرا سيطرته على هذه البلاد فبينما كان الفرنسيون يمدون الموازنة بالأسلحة والعتاد و المعونات ، كان الإنجليز يساندون الدروز ، كما كانت الدولة العثمانية تشجع على إثارة الفتنة بين الطائفتين حتى تنفرد بالأمر مما يشجع على إثارة فتنة طائفية بين

---

(٢٠) Kelly , J.B : Britain and the Persian Gulf , London , ١٩٦٥ , p. ٢٨٢

(٢١) إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ج١ ، المطبعة الأميرية القاهرة ١٣١٢ هـ ص ٦٩٠ – ٦٩١ .

(٢٢) فيليب جلاد : قاموس الإدارة و القضا ، المجلد الخامس ، المطبعة البخارية الإسكندرية ، ١٨٩٦ م ص ١٥٥ .

الجانبين راح ضحيتها على أثرها في عام ١٢٧٧ هـ/ ١٨٦٠ م مجموعة كبيرة من أبناء هذه البلاد .

ولما تحركت قوات فرنسا بإرسال قوات إلى بيروت بحجة إخماد الفتنة وإيقاف المذابح و الحروب الأهلية بين سكان الجبل من الدروز و الموازنة و المسحيين والمسلمين وقفت انجلترا لها بالمرصاد ، واشترطت عليها ألا تبقى هذه القوات أكثر من ستة أشهر وبعد أن هدأت الأمور اتفقت الدول الأوربية مع الدولة العثمانية على وضع نظام خاص لحكم جبل لبنان يقضى بجعله متصرفية مستقلة إدارياً وان يساعد حاكمها أثنى عشر عضواً يمثلون جميع الطوائف واستقرت الأمور نوعاً ما على اثر تنفيذ هذا الوضع واستمر هذا النظام في جبل لبنان حتى قيام الحرب العالمية الأولى حيث ألغته تركيا . إلا أن نفوذ الفرنسيين أتسع في ظله ، كما حرصت فرنسا في السنوات السابقة للحرب الأولى على توسيع نفوذها الإقتصادى في بلاد الشام بمد خطوط حديدية وبرية وغيرها كما حرصت على تأكيد نفوذها الثقافي والروحي حتى فرضت نفسها على هذه البلاد هذا في الوقت الذي دخلت فيه الدولة العثمانية غمار الحرب العالمية الأولى إلى جانب دول الوسط المكونة من ألمانيا و النمسا و المجر ضد معسكر دول الحلفاء المكون من بريطانيا و فرنسا و الروسيا و إيطاليا وبدأت بريطانيا في سعيها لجذب العرب إلى صفها حيث أصبح موقفهم أمرا بالغ الأهمية بالنسبة لها خاصة وأن خطر الدعوى إلى الجهاد كان من أشد الأخطار التي تخشاها بريطانيا . ومن هنا حاول الإنجليز تبديد مخاوف المسلمين عن طريق ضم العرب إلى جانبهم ضد العثمانيين في مقابل الاعتراف بالأماني السياسية لهم .[٢٣] هذا في الوقت الذي كان فيه "الحسين بن على" شريف مكة لا يزال يفاوض السياسي الإنجليزي "هنري مكماهون" ويستعد لإعلان تحالفه مع بريطانيا و القيام بثورته ضد الترك ، كانت بريطانيا تعقد صفقه مع فرنسا لتحديد مناطق النفوذ بينهما في البلاد العربية فعينت الحكومة البريطانية "مارك مايكس" كما عينت الحكومة الفرنسية "جورج

(٢٣) جورج أنطونيوس : يقظة العرب – ترجمة على حيدر الركابى ، مطبعة الترقي ، دمشق ١٣٦٥ هـ / ١٩٤٦ م ص ١٨١ .

بيكو" قنصل فرنسا في بيروت مندوبين عنهما كي يقوما بمباحثات غايتها الاتفاق على اقتسام البلدان العربية فيما بينهما . وقد توصل المندوبان إلى الاتفاق المعروف باسم اتفاقية "سايكس بيكو" وصادقت عليه حكومتاهما في ١٣٣٥ هـ / مايو ١٩١٦ م وقد احتفظت فيه فرنسا لنفسها بالجزء الشمالي من سورية ، وبإنشاء حكم مباشر لها في الساحل الشمالي (٢٤) وبعد أن وضعت الحكومة البريطانية خطة الهجوم النهائي لطرد العثمانيين من سورية رشح الجنرال "اللنبى" Allenby لقيادة هذه القوات كما عهد إلى القوات العربية بمهمة قطع طرق المواصلات بين دمشق وجنوب سوريه لحماية جناح القوات البريطانية الأيمن ومنع القوات العثمانية من الحصول على الإمدادات .

وفى مساء ١٣٣٧ هـ / ٣٠ سبتمبر ١٩١٨ م كانت القوات العربية قد أحاطت بدمشق ، وأقيمت حكومة عربية هناك برئاسة "رضا باشا الركابى" كأول تحقيق عملي لليقظة العربية الحديثة ، ورفرف العلم العربي على قاعدة بلدية دمشق ، واستمرت القوات العربية في زحفها حتى دخلت حمص وحماه وحلب ، ووصلت إلى المناطق الساحلية في صيدا وبيروت وطرابلس وبذلك انتهى الحكم العثماني لسورية ، وعم الفرح دمشق ، وخرج أهلها للترحيب بالقوات العربية و البريطانية ، وأظهروا لها حماسا عظيما ، ولكن شبح اتفاقية سايكس بيكو كان يخيم على هذه الآمال بعد أن أذاعت الحكومة الروسية نصوص الاتفاقية .

وبعد أن دخل الأمير "فيصل" دمشق صدم صدمة عنيفة بعد ما سمع الجنرال "اللنبى" يصارحه بتعهدات بلاده لفرنسا والاعتراف بالحماية الفرنسية على الساحل السوري ولبنان ، وأنه يجب عليه قبول هذا الوضع لحين عقد مؤتمر الصلح (٢٥) . وعندما احتج فيصل على هذه الإجراءات أصر "اللنبى" على قبولها حتى تتم التسوية النهائية بين الدول . كما ذهب الحلفاء إلى ما هو أبعد من ذلك إذ قرروا تقسيم سورية

---

(٢٤) خيرية قاسميه : الحكومة العربية في دمشق ١٩١٨ – ١٩٢٠ ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر بيروت ، ١٩٨٢ ص ٣٧

(٢٥) محمود صالح منسي : حركة اليقظة العربية في الشرق الآسيوي ، دار الفكر العربي ، القاهرة ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م ص ٣٧٩ – ٣٨٤

إلى ثلاث مناطق مختلفة وهى المنطقة الأولى وتشمل سورية الداخلية وشرق الأردن برئاسة الأمير فيصل ، والثانية وتشمل الساحل السوري المتمثل في صيدا وبيروت وطرابلس واللاذقية وقضائي أنطاكية واسكندرونة وتكون تحت الحكم الفرنسي والمنطقة الثالثة وتشمل فلسطين وتكون تحت الحكم البريطاني (٢٦) .

وعلى الرغم من أن هذه المناطق مرتبطة بوشائج الوحدة من وجوه عديدة أهمها النواحي الجغرافية و الاقتصادية و الثقافية و التاريخية فقد ضرب بهذه الاعتبارات عرض الحائط ، ولم يلتفت مجلس الحلفاء الأعلى إلا لأطماع أعضائه فوجد أن الوسيلة المثلى لإرضاء جشع كل من بريطانيا وفرنسا هي تقسيم سورية فيما بينهما (٢٧) ونتيجة لذلك اجتاحت بلاد الشام موجة من الارتياب في نوايا بريطانيا وفرنسا .

وعندما بدأت اجتماعات مؤتمر الصلح في باريس في ١٢٣٨ ه / ١٨ يناير ١٩١٩ م تقدم ، الأمير "فيصل" بمذكرة بسط فيها حقوق العرب في الاستقلال والوحدة واقترح أن يقوم المؤتمر بتعيين لجنة تحقيق تزور سورية وفلسطين حيث تقوم ببحث شامل للتأكد من رغبات السكان وحقهم في تقرير مصيرهم وقد أيد الرئيس الأمريكي و "لسن" هذا الاقتراح كما أيدته بريطانيا ومع ذلك فقد عارضته فرنسا كما عارضت بشدة أقامة سيادة عربية في بلاد الشام .

وعلى هذا الأساس أرسلت اللجنة الأمريكية المعروفة باسم لجنة "كنج كرين" – King Crane ، كما عاد الأمير فيصل إلى بلاد الشام معتقدا أن هذه اللجنة ستكون بداية لتحقيق الأماني العربية في الاستقلال . وبعد أن انتهت اللجنة من أعمالها قدمت توصياتها التي تتلخص فيما يلي :

١ـ رفض الأهالي للانتداب الفرنسي ورغبتهم في الوحدة و الاستقلال .

٢ـ وحدة البلاد السورية تحت حكم دستوري برئاسة الأمير فيصل بن الحسين على أن يعهد لأمريكا أو بريطانيا بالانتداب عليها .

---

(٢٦) قاسميه : الحكومة العربية في دمشق ص٥٢ .

(٢٧) أنطونيوس : يقظة العرب ص ٣٨٧ .

٣- التحذير من قيام دولة يهودية ، واقتراح الحد من هجرة اليهود إلى فلسطين .

وعلى الرغم من أهمية هذه التوصيات فقد اختفت من ملفات وزارة الخارجية الأمريكية خاصة وأن الولايات المتحدة شعرت أن عرضها سيهدد علاقاتها بحلفائها كما أن فرنسا بدأت تتهم بريطانيا بالتخلي عن التزاماتها في تطبيق أتفاق "سايكس بيكو" وفى أعقاب ذلك زار الأمير فيصل أوربا للمطالبة بتنفيذ وعود الحلفاء لبلاده ، كما أخذت الأحداث تتوالى فاجتمع المؤتمر السوري العام الذي يمثل الأمة السورية بأجمعها وقرر في ١٦ جمادى الثانية ١٣٣٨ هـ/ ٧ مارس ١٩٢٠ م إعلان استقلال سورية بحدودها الطبيعية ، واختيار الأمير "فيصل بن الحسين" ملكا دستوريا عليها [(٢٨)] وتأليف أول وزارة دستورية برئاسة "رضا الركابى" . وقد أثار هذا القرار كلا من بريطانيا وفرنسا وبدأت بريطانيا تؤيد فرنسا ضد العرب ، وعندما انعقد مجلس الحلفاء الأعلى في "سان ريمو" في ١٣٣٨ ه / أبريل ١٩٢٠ تقرر أن تتولى فرنسا الانتداب على سورية ولبنان في نظير أن تتخلى عن أطماعها في العراق [(٢٩)] وفى أعقاب ذلك وجه الجنرال الفرنسي "غورو" إنذارا إلى حكومة الأمير فيصل أهم بنوده قبول الانتداب الفرنسي على سورية ، وتسريح الجيش العربي ، وإلغاء التجنيد الإجباري [(٣٠)] وقد حدد "غورو" مدة أربعة أيام لإجابة المطالب الفرنسية وإلا سيكون لقواته مطلق الحرية في التصرف ، وانتهى الأمر برفض الإنذار وقيام السوريين بالدفاع عن عاصمتهم فالتقوا مع الجيش الفرنسي عند منطقة "ميسلون" وأبدى الشعب السوري بطولة نادرة وبسالة فائقة في الدفاع عن بلاده ، ولكن عدم التكافؤ في المعدات والسلاح أدى إلى حسم الموقف لصالح الفرنسيين[(٣١)] ، ونتيجة لذلك بدأ

---

(٢٨) ذوقان قرقوط : المشرق العربي في مواجهة الاستعمار قراءة في تاريخ سوريا المعاصر ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٧ ص ٩٣ – ٩٦

(٢٩) أنطونيوس : يقظة العرب ص ٣٨٩ .

(٣٠) حول نصوص هذا الإنذار انظر : قرقوط : المرجع السابق ص ١٢٣ .

(٣١) زاهية قدوره : تاريخ العرب الحديث ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٧٥ ، ص ٢٦٠ – ٢٦١ .

الانتداب الفرنسي على سورية وزالت أول دولة عربية أسست في دمشق عقب زوال الحكم التركي ، وتبعثر على أثرها رجال الثورة العربية ، ودعاة القومية ، وتمكن الفرنسيون من حكم سورية ولبنان .

رابعا : العراق :

منذ أن أخذت بريطانيا في توطيد نفوذها في المحيط الهندي والبحار الشرقية وهى تتطلع إلى العراق كطريق بالغ الأهمية لمواصلاتها إلى الهند لذلك نجدها تنشئ مركزا تجاريا لها في البصرة منذ منتصف القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي ، ثم تزايد الاهتمام بالعراق نتيجة لازدياد حجم التجارة البريطانية معه ، ولما اكتسبته خطوط مواصلاته من أهمية بين الشرق و الغرب في بدايات القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي خاصة وأن البصرة كانت ملتقى تجارة ما وراء البحار بعد استخدام السفن التجارية .

وقد سعت بريطانيا منذ حملة بونابرت على مصر ١٢١٣ـ١٢١٦هـ ١٧٩٨ ـ ١٨٠١ إلى جعل العراق قاعدة بحرية ضد الأطماع الفرنسية في الشرق ، كما سعت إلى وقف توسعات محمد على التي أخذت تطرق أبواب العراق ، وتقف وحجر عثرة في وجه أهداف بريطانيا الاستعمارية في المنطقة ، ونتيجة لذلك كثفت بريطانيا كافة جهودها للحصول على امتيازات ملاحية في نهر الفرات والتركيز على الملاحة التجارية في أنهار العراق فساعدت على تأسيس بيت "لينش" للملاحة البخارية ، كما عملت غلى معارضة المحاولات التي قامت بها الدولة العثمانية بإرسال بواخر عثمانية في أنهار العراق .

وعلي الرغم من تساهل الدولة العثمانية في إعطاء الامتيازات الملاحية للانجليز فإنها أدركت في نهاية الأمر خطورة نتائج ذلك علي مستقبل البلاد ، وكان من الطبيعي أن تعجز الدولة العثمانية عن مواجهة السياسية البريطانية بعد عقدها اتفاقاً مع الحكومة البريطانية يبيح لها التمتع بامتيازات الملاحة في أنهار العراق مما زاد من

قوة مركز شركة (لينش) وجعلها تتمكن من أن تدمج إليها البواخر العثمانية التي كان قد قصد بها أصلا كسر احتكار الشركة الانجليزية للملاحة في العراق (٣٢).

ونتيجة لوحدة ألمانيا ، ورغبتها في الاتجاه نحو الشرق طبقا لمشروع Drang Nachosten فقد رأي المسئولون الألمان أهمية إنشاء خط حديدي يجتاز الأناضول وشمال سورية والعراق إلي الخليج ، ونظراً لأن الإنجليز كانوا يخشون من نمو النفوذ الألماني في هذه المناطق تحول المشروع عن مقصده إلي حلقة من حلقات الصراع السياسي والاقتصادي علي المصالح بين الدول الأوربية ألكبري ، وقد وقف السلطان العثماني خلال ذلك الصراع بجانب الألمان خصوصا وأنه وجد في ألمانيا دولة أقل أطماعاً في بلاده من الإنجليز والفرنسيين الذين كانوا يلاحقون الدولة العثمانية بأغلالهم وقيودهم ، ونتيجة لذلك وبعد مفاوضات ألمانية تركية تم إبرام العقد النهائي في الخامس من مارس ١٩٠٣ م / ١٣٢١هـ والذي تم بمقتضاه الإتفاق علي ما يلي :

١ ــ أن يمتد الخط الحديدي من قونية إلي أدنه فالموصل فسامراء فبغداد فالبصرة ، وينتهي إلي نقطة علي الخليج يتم تحديدها فيما بعد .

٢ ــ إعطاء الامتياز للألمان لمدة ٩٩ عاما .

٣ ــ قدرت التكاليف الإنشائية للمشروع بخمسمائة مليون فرنك والتزمت الحكومة التركية بضمان سنوي قدره ١٦٥٠٠ فرنك لكل كيلو متر .

٤ ــ التزمت الدولة العثمانية بجعل تشغيل الخط في يد شركة سكة حديد الأناضول .

وهكذا كان إبرام هذه الاتفاقية نجاحا للسياسة الألمانية ، وسببا في اعتراض الدول الأوربية علي قيام الألمان بإنشاء هذا الخط الحديدي مما أدي إلي تعكير الجو الدبلوماسي والإعلامي والسياسي بين هذه الدول خصوصا وأن بريطانيا كانت تشعر

---

(٣٢) للتفاصيل أنظر د . عبد العزيز نوار : المصالح البريطانية في العراق ، الإنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٨.

وكأنها الدولة المهيمنة علي تنظيم أمور الشرق الأدنى والخليج ، ونتيجة لذلك عقدت بريطانيا اتفاقا سرياً مع الشيخ مبارك حاكم الكويت في عام ١٣١٧ هـ / ١٨٩٩ م اتفق بمقتضاه علي التزام حاكم الكويت بألا يتنازل عن أي جزء من أراضيه لأي دولة أجنبية دون موافقة الحكومة الانجليزية .

وظل الصراع علي أشده بسبب هذا الخط حتى قامت الحرب العالمية الأولي ، ودخلت الدولة العثمانية بجانب ألمانيا في الحرب ضد بريطانيا وفرنسا والروسيا ، وخرجت ألمانيا من هذه الحرب خاسرة مما أحاط السكون علي استمرار تنفيذ هذا الخط الحديدي .

وخلال هذه الفترة ظهرت بين العرب صيحات تهيب بأبناء الأمة العربية في السلطنة العثمانية أن يهبوا من رقادهم ، ويسعوا لإعلاء شأنهم ، وينفضوا عن أنفسهم غبار الخمول الذي تراكم عليهم قرونا عديدة ، ولكن هذه الصيحات أخذت بحذر من أبناء الأمة العربية الذين غمرتهم الفرحة والحماسة للوطنية العثمانية بعد إعلان دستور ١٣٢٦ هـ / ١٩٠٨ م ، ولكنهم سرعان ما وجدوا أنفسهم وجها لوجه أمام نوايا الاتحاديين المعادية للعرب ، فتملكهم التشاؤم وأخذوا في تنظيم الجمعيات ، وبث الدعايات بهدف نيل حقوقهم ، وصدا لطغيان تيار الاتحاديين عليهم الذين حاولوا هضم حقوق العرب وامتهان لغتهم [٣٣]، ونتيجة لذلك ظل العراق حتى إعلان الحرب العالمية الأولي في عام ١٣٣٣ هـ / ١٩١٤ م جزءا من أملاك الدولة العثمانية ، تحكمه حكما مباشرا ، وترسل إليه الولاة والحكام من قبلها ، ولما أعلنت الحرب وانضم الأتراك إلي جانب ألمانيا وحلفائها أغتنم الإنجليز الفرصة ـ وكانت لهم أطماع قديمة في العراق ـ وسيروا الجيوش لاحتلال البصرة وتمكنوا من إنزال جنودهم فيها بحماية أسطولهم ثم بدأوا عملياتهم الحربية ضد الدولة العثمانية [٣٤] ، ونتيجة لاشتداد المقاومة ضد الإنجليز في العراق وتكبدهم خسائر بشرية ضخمة قام الإنجليز باستمالة

(٣٣) أنيس المقدسي : الحركات العربية المنظمة ، المقتطف المجلد الثالث والتسعون ، يونيو / ديسمبر ١٩٣٨ م ، ص ٤٢١ . ٤٢٢.

(٣٤)مجموعة من الأساتذة العراقيين : العراق في التاريخ ، بغداد ، ١٩٨٣ ، ص ٦٦٣.

العرب ، وفصلهم عن الترك بعد أن أذاعوا في طول البلاد وعرضها أنهم ما جاءوا فاتحين ولا مستعمرين بل جاءوا منقذين ومحررين ، وأنهم إنما يحاربون باسم حليفهم وصديقهم الشريف (الحسين بن علي) شريف مكة [٣٥] ، وبعد أن استتب الأمر للإنجليز في العراق تجاهلوا وعودهم للعراقيين ، فأنشأوا نظاما غريبا يقضي بإلحاق العراق بحكومة الهند ، بمعني أن يصبح العراق مستعمرة لإدارة استعمارية تابعة لحكومة الهند ، يضاف إلي ذلك أنهم أثقلوا كواهل العراقيين بالمصادرات والغرامات بهدف تغطية الجزء الأكبر من نفقات الجيش البريطاني في العراق [٣٦] ، ونتيجة لذلك كبر علي العراقيين الأمر ، ونشطت جمعياتهم الوطنية في إضرام نار الثورة ضد الإنجليز ، كما نشطت المساعي السلمية من أجل الاستقلال فعندما بدأت اجتماعات مؤتمر الصلح في باريس في ١٣٣٨ هـ / ١٨ يناير ١٩١٩ م طالب الأمير (فيصل بن الحسين) بإنهاء الاحتلال البريطاني للعراق وإقامة حكومة عربية فيه [٣٧]، ولكن الحلفاء في مؤتمر (سان ريمو) قرروا وضع العراق تحت الانتداب البريطاني مما أصاب أماني العراقيين بخيبة أمل ، وأدخل قضيتهم في طور جديد حيث بدأت الثورة العراقية في الثلاثين من يونيو ١٩٢٠م (١٣٣٩هـ) وعمت معظم أنحاء العراق ودارت علي أثرها معارك عنيفة بين العراقيين والقوات الإنجليزية قام العراقيون خلالها بقطع السكك الحديدة شمالي بغداد وجنوبي الحلة[٣٨] ، ونظراً لتفاقم الأمور أضطر الإنجليز إلي تبديل سياستهم ، وإدراك مدى أهمية التفاهم مع العرب ، وانتهي الأمر بالاتفاق علي إنشاء حكومة عربية برئاسة (فيصل بن الحسين) واعتراف

---

(٣٥) أمين سعيد : ملوك المسلمين المعاصرون ودولهم ، البابي الحلبي ، ١٩٣٣ ، ص ٧٧.

(٣٦) العراق في التاريخ ، ص ٦٦٤.

(٣٧) محمود صالح منسي : حركة اليقظة العربية في الشرق الآسيوي ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م ، ص ٤١٧ . ٤٢٢.

(٣٨) مجموعة من الأساتذة : العراق في التاريخ ، بغداد ، ١٩٨٣ ، ص ٦٦٦.

بريطانيا باستقلال العراق ، وقيام حكومة وطنية فيه [٣٩] ، وأن تقوم بريطانيا بتركيز علاقاتها مع العراق علي أساس معاهدة تحالف بينهما وأن تسعي لتحقيق غياتها عن طريق المفاوضات بدلا من فرض رغباتها كما فعلت في سان ريمو ، وهكذا أثبتت الثورة العراقية مدى قوة الوعي لدي العرب ، وقدرتهم علي الصمود والمقاومة[٤٠]، وفي ١١ من يوليو ١٩٢١ م - ١٣٤٠ هـ قرر مجلس الشورى العراقي تقديم عرش العراق إلي الأمير فيصل بن الحسين والمناداة به ملكا ابتداء من ٢٣ من أغسطس ١٩٢١ م - ١٣٤٠ هـ .

خامساً : الخليج وجنوب الجزيرة :

تعد منطقة الخليج العربي وجنوب الجزيرة من أكثر المناطق العربية عرضة للصراعات الدولية ، فقد تنازعت عليها القوى الدولية الطامعة في السيطرة العالمية نظراً لمركزها الاستراتيجي المتميز ، وثرواتها البترولية الضخمة ، ومخزونها الاحتياطي الكبير ، وموانيها البحرية والجوية المؤدية إلي معظم أرجاء العالم ، وقد برزت أهمية هذه المنطقة بالنسبة للهند أثناء الحروب النابليونية فعندما تفاقم النزاع بين بريطانيا وفرنسا علي التجارة والمستعمرات في المحيط الهندي وما يتاخمه من سواحل ، قامت بريطانيا بعقد عدة معاهدات مع سلطان مسقط كان أهمها معاهدة ١٣٠٩ هـ/ ١٨٩١ م التي تعهد فيها بألا يتنازل أو يبيع أو يرهن شيئا من أراضي سلطنته إلا للحكومة البريطانية ، وعقدت بريطانيا مع شيخ الكويت عدة اتفاقيات كان أبرزها اتفاقية ١٣١٧ هـ / ١٨٩٩ م التي تعهد فيها بألا يتناول عن طريق التأجير أو البيع أو المنح أي جزء من أراضي إمارته لأي دولة عدا بريطانيا أو رعاياها ، وأجبرت بريطانيا أمير قطر علي توقيع معاهدة حماية معها عام ١٣٣٥ هـ/ ١٩١٦ م كما أجبرت شيوخ البحرين علي توقيع معاهدات معهم حرمتهم من خلالها من مظاهر السيادة علي بلادهم .

---

(٣٩) أمين سعيد : ملوك المسلمين المعاصرون ودولهم ، ص ٨٠ ، ٨١.

(٤٠) جورج أنطونيوس : يقظة العرب ، ص ٣٩٤.

وقد نجح الانجليز منذ القرن الثالث عشر الهجري ، بدايات القرن التاسع عشر الميلادي فى توطيد مركزهم في هذه المنطقة خاصة بعد أن تخلصوا من منافسة فرنسا التقليدية لهم ، كما هيأ لهم تدهور أحوال الدولة العثمانية العديد من الأمور منها التخلص من سيادة الأتراك الاسمية علي الكويت والبحرين وغيرها ، وإذا كانت قد ظهرت في بدايات القرن الرابع عشر الهجري ، العشرون الميلادي منافسة روسية وألمانية وعثمانية وفرنسية لبريطانيا تمثلت في مشروع الخط الحديدي الذي اعتزمت ألمانيا إقامته في برلين ليصل إلي بغداد ، وفي رغبة فرنسا في التطلع إلي هذا الإقليم ، وفي رغبة الدولة العثمانية في فرض سيطرتها علي هذه المناطق فإن الإنجليز حاولوا التخلص من منافسة هذه القوي التي نازعتهم النفوذ في منطقة الخليج ، وإذا كانت بريطانيا قد تمكنت من التقليل من منافسة فرنسا وروسيا بعقد الاتفاق الودي مع فرنسا في عام ١٣٢٢ هـ ، ١٩٠٤ م ، وتسوية أمورها مع روسيا القيصرية بعد عقد التحالف الثلاثي بين روسيا وفرنسا وانجلترا في عام ١٣٢٥ هـ ، ١٩٠٧ م فإن ألمانيا والدولة العثمانية ظلتا تثيران العقبات أمام بريطانيا ، فألمانيا التي اتجهت بثقلها نحو الشرق بهدف استغلال المواد الخام به ورغبت في إقامة خط سكك حديدية من برلين إلي بغداد ثم إلي البصرة منذ أيام بسمارك جعل بريطانيا تخشي علي مصالحها في منطقة الخليج العربي مما جعلها تسرع في عقد معاهدة حماية مع الكويت حتى يكون للوجود البريطاني في هذه المنطقة قدرة علي الوقوف بالمرصاد أمام أي محاولة ألمانية لتوصيل الخط الحديدي المقترح من البصرة إلي ساحل الخليج (٤١) ، ولكن ألمانيا استطاعت إقناع قيصر روسيا خلال زيارته لبرلين ١٩١٠ م بالموافقة علي المشروع.

أما عن الدولة العثمانية فقد كانت بريطانيا تخشي من إعلانها حركة الجهاد الديني ، مما استلزم من بريطانيا تقديم حمايتها الصريحة لحكام هذه المنطقة خشية من التهديد العثماني لهم .

---

(٤١) جمال زكريا قاسم : الخليج العربي ، دراسة لتاريخ الإمارات العربية ١٩١٤ . ١٩٤٥ ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٧٣ ص ١ .

ونتيجة لذلك رأت بريطانيا خطورة سيطرة أي قوي أجنبية لهذه المنطقة الحيوية علي مصالحها إذ هي حلقة مواصلاتها إلي الهند ، ومحطات تجارتها ، وقواعد أسطولها ومركز استطلاعها ومراقبتها لمنطقة الشرق الأوسط ، ومناطق تحكمها في العديد من مناطقه ، ففضلا عما في بواطن بره وبحره من ثروات طبيعية كبيرة لذلك حاولت سد منافذ الطرق علي جميع الدول التي حاولت الاقتراب من هذه المنطقة الحيوية وإحباط محاولاتها في الوصول إليها ، فكان شأنها مع البرتغاليين ومع الهولنديين ثم كان شأنها مع فرنسا وألمانيا وروسيا والدولة العثمانية وبلاد فارس ، فقد قامت بسد الزرائع وتفويت الفرص ، واحتواء القوي العربية المحلية عن طريق المصالح والمعاهدات أحيانا ، وعن طريق القوة المسلحة في بعض الأحيان ، حتى تمكنت من الخليج العربي وأحكمت قبضتها عليه وقد شملت هذه المعاهدات مع بريطانيا كلا من مسقط والبحرين ثم رأس الخيمة وأبو ظبي ودبي والشارقة وعجمان وأم القوين ثم الكويت وقطر وبذلك أصبح حوض الخليج مع نهاية القرن التاسع عشر أشبه ببحيرة بريطانية .

وقد قامت أسس هذه المعاهدات علي الإبقاء علي الأوضاع الداخلية في كل إمارة وربط هذه الإمارات بحكومة الهند البريطانية وبذلك استطاعت بريطانيا تحقيق أغراضها ، وإحكام قبضتها علي المنطقة وتسيير شئونها بما يتوافق مع مصالحها ، كما استطاعت تفويت الفرص علي الدول الأخري في الوصول إلي هذه المنطقة [٤٢] ، وقد امتدت السيطرة البريطانية علي بلدان الخليج حيث شملت الساحل الغربي للخليج كله مثل قطر والبحرين والكويت وإمارات ساحل الصلح السبع وذلك عن طريق عقد معاهدات مع أمراء ومشايخ المنطقة بأن يمتنعوا عن التصرف في أراضيهم بأي وجه من الوجوه إلا بموافقة سابقة من بريطانيا ، وكذلك تتولي بريطانيا جميع الشئون الخارجية لإمارات الخليج وتتدخل في شئونها بواسطة المقيم السياسي العام في

(٤٢) فتوح الخنرش : تاريخ البحرين السياسي من عام ١٧٥٣ . ١٩٠٤ التأسيس والازدهار . دراسة وثائقية ، دار السلاسل الكويت ، ١٩٩٢ ، ص ١٢ . ١٣ .

البحرين ، والمعتمدين البريطانيين في سائر الإمارات الذين أصبحوا بمثابة الحكام الفعليين ، والمسيطر الأساسي علي المقدرات الاقتصادية والسياسية في المنطقة .

وهكذا تمكن الإنجليز من السيطرة علي سواحل الخليج وفرض حمايتهم علي إماراته وأمنوا بذلك الطريق إلي الهند وذلك بعد القضاء علي محاولات الدول الأخري التي كانت تنافسهم فيه واعتبروا أن تواجد أي قاعدة بحرية علي الخليج من قبل أي دولة أخري بمثابة تهديد للمصالح البريطانية ، واستمرت الأمور علي ذلك حتى شهد القرن العشرين غروب شمس الإمبراطورية البريطانية واستقلال الإمارات العربية الواحدة تلو الأخري .

سادساً : شمال أفريقية :

كان لضعف القوي البحرية العثمانية في البحر المتوسط منذ القرن الثامن عشر نتائجه الخطيرة علي مستقبل أقطار المغرب العربي حيث ضعف سلطان الدولة علي هذه الأقطار ، وبرز عدم قدرتها علي حمايتها خاصة بعد أن بدأ الضغط الأوربي يتزايد عليها وأرادت فرنسا أن تمد نفوذها شرقا بالاستيلاء علي منطقة شمال أفريقية القريبة منها والتي لا يفصلها عنها سوي مياه البحر المتوسط الذي تلاطم أمواجه سواحل فرنسا ، ولم تستطع الدولة العثمانية حماية ولاياتها في الجزائر وتونس وليبيا من السقوط في براثن الغزو الأوربي ، كما أن مراكش تلك الولاية التي استطاعت الحفاظ علي استقلالها ومنع النفوذ العثماني والإسباني من الوصول إليها لم تستطع هذه المرة وقف التنافس الاستعماري عليها ، وفيما يلي نعرض لذلك .

١ ـ الجزائر :

ظلت الروح الصليبية تؤثر في العلاقات بين ولايات المغرب العربي والدول الأوربية حتى بدأت المشروعات التي وضعت للتدخل في شئون هذه الولايات تبدو واضحة للعيان ، فنتيجة لتردي العلاقات بين فرنسا والجزائر في عهد إمبراطورية نابليون راودت (بونابرت) في عام ١٢٢٣ هـ ١٨٠٨ م فكرة الاستيلاء علي الجزائر ، ولكن الظروف الدولية في ذلك الوقت لم تمكنه من تحقيق ذلك ، كما راودت فرنسا

هذه الفكرة بعد فقدان الدولة العثمانية لأسطولها في معركة نوارين البحرية ١٨٢٧م فحاولت اقتطاع الجزائر من أملاك العثمانيين خاصة وأنها كانت ترغب في الحصول علي المواد الأولية اللازمة لصناعاتها ، وإيجاد الأسواق اللازمة لتصريف منتجاتها وتوظيف رءوس أموالها ، ولكن ظروفها الداخلية لم تمكنها من تحقيق مرادها، ثم لاحت لها هذه الفرصة بعد المشادة الكلامية التي حدثت بين قنصلها وداي الجزائر في عام ١٨٢٧ نتيجة لمماطلتها في تسديد المستحقات التي عليها للجزائر نظير الحبوب التي استوردتها منها ، فوجهت إنذارا إلي (الداي) كانت أهم بنوده الترضية الكاملة عما لحق بفرنسا من إهانة ، وتقديم كافة الضمانات التي تعطي لفرنسا حق الدولة الأكثر رعاية وأن يعلن (الداي) أن حكومة فرنسا قد أوفت بالتزاماتها المالية تجاه الجزائر ، وأنه ليس لها أي حق قبلها .

وقد هددت فرنسا بإعلان الحرب علي الجزائر في حالة رفضها شروط الإنذار ، ومع ذلك فقد رفض الداي الإنذار الفرنسي وشجبه (٤٣).

ونتيجة لذلك أبلغت فرنسا الدولة العثمانية بأن داي الجزائر الذي أظهر عداء واضحا للفرنسيين بتحقيره للقنصل الفرنسي ، ورفضه تقديم الترضية العلنية سيجعل الحرب محققة بين البلدين إذا لم يتدخل الباب العالي لإيجاد حل مناسب، وعلي الرغم من خطورة الموقف فقد تباطأت الدولة العثمانية في حسم هذه الأمور مما أعطي لفرنسا فرصة الانفراد بالأمر ، وخلال ذلك بدأت فرنسا في البحث عن حلول أخري تجنبها نفقات الحرب ، وفي نفس الوقت تجعل المسلمين يقاتلون بعضهم بعضا ، فاقترح (درفتي) قنصل فرنسا في الإسكندرية قيام (محمد علي) والي مصر بحملة علي الجزائر لتأديب الداي والقضاء علي سلطته واحتلال الجزائر وضمها إلي أملاكه

---

(٤٣) للتفاصيل أنظر : صلاح العقاد : المغرب العربي بين التضامن الإسلامي والاستعمار الفرنسي ج ١ ، الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، ص ٨٠ . ٩١..

علي أن يكون لفرنسا امتيازات واسعة في هذه البلاد (٤٤)، ونتيجة لرفض محمد علي لهذه الفكرة خاصة بعد اعتراض الإنجليز عليها وتحذيرهم له من الارتباط بالمصالح الفرنسية وتنبيهه إلي خطورة هذه السياسة فقد تحينت فرنسا الفرص للقيام بنفسها بحملة عسكرية ضد الجزائر والانفراد باحتلالها ، وقد جاء الوقت المناسب لذلك عندما انشغلت بريطانيا بالانقلاب النيابي الذي حدث فيها خلال تلك الفترة ، وانشغال الروسيا وبروسيا والنمسا بالثورات التي اندلعت في إيطاليا وبولندة في تلك الفترة ، فتذرعت فرنسا أمام الرأي العام الأوربي أنها تدافع عن قضية أوربية تدعم من خلالها قواعد العدل فقامت بغزو الجزائر في عام ١٢٤٦ هـ - ١٨٣٠ م.

وهكذا يتضح أن أهم العوامل التي ساعدت فرنسا علي احتلال الجزائر كان تغير الموقف الدولي لصالحها ، هذا بالإضافة إلي دخول الدولة العثمانية في دور الاضمحلال وعدم قدرتها علي الصمود أمام الهجوم الاستعماري الغربي وعدم معرفة داي الجزائر بعواقب الأمور ، وبقدرات فرنسا العسكرية التي برزت مع النهضة الأوربية والتطور الصناعي في أوربا .

٢ - تونس :

بدأت الدول الأوربية في عقد معاهدات تجارية وسياسية مع تونس منذ القرن الثالث عشر الهجري أوائل القرن التاسع عشر الميلادي ، ونتيجة لبذخ بعض حكام تونس وانغماسهم في الترف ، ومحاولات ظهورهم بمظهر الحكام العصريين واجهت تونس مصاعب مالية وتراكمت الديون عليها مما أدي إلي وقوع تونس فريسة في أيدي الدول الأوربية ، وإقحام الأجانب في شئون البلاد الداخلية بحجة القيام ببعض الإصلاحات ، ثم إجبارهم (بأي) تونس علي إصدار ما يسمي بعهد الأمان الذي أعطت معظم نصوصه مزايا عديدة للأجانب منها حق الملكية والعمل في تونس مما كان له أكبر الضرر علي التونسيين.

---

(٤٤) أرجمند كوران : السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر . ترجمة عبد الجليل التميمي . تونس، ١٩٧٤ ، ص ١٧ . ٣٥.

وبعد أن قررت فرنسا الاحتفاظ بالجزائر ومد سياستها الاستعمارية في شمال أفريقية ازداد عزمها علي احتلال تونس رغبة منها في منع أي نظام في تونس يهدد احتلالها للجزائر ، وقد شجعها علي ذلك تأييد كل من ألمانيا وبريطانيا لها ،۔ فقد رغب المستشار الألماني (بسمارك) في إبعاد فرنسا عن التفكير في هزيمتها في الحرب السبعينية وصرف أنظار الفرنسيين عن (الألزاس و اللورين) وعن فكرة الانتقام لهزيمتهم بتأييد جهود فرنسا الاستعمارية خارج أوربا مما يساعد علي غرس المشاكل بينها وبين الدول الاستعمارية الأخري مثل انجلترا من جهة وإيطاليا من جهة أخري (٤٥) .

أما عن إيطاليا فإنها اعترضت علي تغلغل النفوذ الفرنسي في تونس التي كانت في مقدمة الأقطار التي ترنوا إليها وقاومته ، وبدأت في حملة دعاية قوية ضد فرنسا خاصة وأن تونس كانت محط أنظار الإيطاليين الذين باتوا متلهفين علي إنشاء دولة استعمارية لهم تشبها بالدول الكبرى الأخري وأحياء لأمجاد الدولة الرومانية القديمة والذين كانت لهم جالية كبيرة العدد في تونس يضاف إلي ذلك أنه كان هناك معاهدة بين إيطاليا والباي كانت معقودة منذ عام ١٨٦٨م كان من أهم بنودها صون مصالح الإيطاليين في تونس ، والاحتفاظ بجنسيتهم هناك ، يضاف إلي ذلك قرب المسافة بين صقلية وتونس حيث أنها لا تزيد عن سبعين ميلا .

ولما بدا لفرنسا ضرورة الإسراع لاحتلال تونس بحجة انها امتداد طبيعي للجزائر اتخذت من عبور بعض القبائل التونسية لحدود الجزائر ذريعة لضم تونس إليها وتمكنت من ذلك بعد إجبار (الباي) علي عقد معاهدة (باردو) في ١٢ مايو ١٨٨١ م ـ ١٢٩٨ والتي أعلنت في أعقابها الحماية علي تونس بحجة المحافظة علي الأمن والنظام .

---

(٤٥) صلاح العقاد : المغرب بين التضامن الإسلامي والاستعمار الفرنسي ، ج ١ ، ص ٢٠٥ . ٢٠٦ ..

٣ ـ مراكش :

تطلعت ألمانيا بعد تكامل وحدتها في عام ١٢٨٧ هـ ـ ١٨٧٠ م إلي البحث عن مستعمرات لها خارج أوربا أسوة بانجلترا وفرنسا حتى تستطيع تصريف منتجاتها الصناعية والحصول علي المواد الخام اللازمة وإنشاء أسواق لها فيها ومن هنا برز التنافس بين ألمانيا وفرنسا من أجل مراكش .

وقد تصدت فرنسا لهذه المحاولة ، وحاولت وأدها في مهدها وذلك بربط نفسها بعدة اتفاقات مع بعض دول أوربا ، فعقدت اتفاقا مع إيطاليا في عام ١٣١٨ هـ - ١٩٠٠م اتفق فيه الطرفان علي أن تطلق إيطاليا يد فرنسا في مراكش مقابل أن تطلق فرنسا يد إيطاليا في طرابلس وبرقة ، كما تقربت فرنسا من بريطانيا خاصة بعد اعتلاء الملك أدوارد السابع عرش انجلترا وعقدت معها (الاتفاق الودي) في ١٣٢٢هـ/ ١٩٠٤ م وبمقتضاه أطلقت بريطانيا يد فرنسا في مراكش مقابل أن تطلق فرنسا يد إنجلترا في مصر والسودان [٤٦]، ومنذ ذلك الحين بدأت فرنسا تعد العدة بمد نفوذها غربا بضم مراكش إلي إمبراطوريتها الأفريقية ، وكان قد سبق وزير خارجية فرنسا أن تفاوض مع إسبانيا بشأن تقسيم مراكش واتفق علي أن تحصل إسبانيا علي منطقة الريف التي تشمل الشريط الساحلي من مراكش المقابل للساحل الإسباني عند جبل طارق بينما تحصل فرنسا علي ما تبقي من مراكش وعلي أثر ذلك تشجعت فرنسا ولم تهتم باعتراضات المانيا وأخذت تتغلغل في الداخل وكانت خطة فرنسا في الاستيلاء علي مراكش تتركز في أن يقوم وزير خارجيتها بتقديم العديد من المقترحات إلي سلطان مراكش بشأن الإصلاحات الداخلية في بلاده حتى إذا رفضها يكون في ذلك ذريعة لتدخل فرنسا عسكريا لفرضها بالقوة ، كل ذلك أزعج الألمان وجعلهم يقومون باتصالات مباشرة مع حاكم مراكش يعربون فيها عن عدم ارتياحهم لما جاء في الاتفاق الودي ويحرضونه علي رفض اقترحات وزير الخارجية الفرنسي، وأعقب ذلك قيام الإمبراطور الألماني وليم الثاني بزيارة رسمية لميناء طنجة في ١٣٢٣ هـ /

---

(٤٦) رأفت الشيخ : في تاريخ العرب الحديث ، دار الثقافة ، القاهرة ، ١٩٧٥ ، ص ٣٩٨.

٢٨ مارس ١٩٠٥م في محاولة منه لإفساد ما حدث من اتفاق بين الإنجليز والفرنسيين بشأن مراكش فألقي خطابا دراميا أوضح فيه تأييد المانيا لاستقلال مراكش ، ودعا إلي أن تحافظ مراكش علي استقلالها وطالب سلطانها بإتباع سياسة الباب المفتوح لجميع الدول علي السواء بحيث لا يكون لدولة فيها امتياز علي الأخري ، وأن تسير سياسة مراكش مع جميع الدول علي مبدأ المساواة المطلقة ، واقترح الإمبراطور الألماني عقد مؤتمر دولي لبحث هذه المسألة مما أدي إلي استفزاز فرنسا ، وتأزم الموقف الدولي ، وخشية من تطورات الموقف اتفق علي عقد مؤتمر دولي في ١٣٢٤ هـ / أوائل ١٩٠٦ م في بلدة (الجزيرة الخضراء) في جنوبي أسبانيا القريبة من جبل طارق وقد اشتراك في هذا المؤتمر اثنتا عشرة دولة بالإضافة إلي مراكش ، وهذه الدول هي ألمانيا والنمسا وبلجيكا وإسبانيا والولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا وإيطاليا وهولندا والبرتغال وروسيا والسويد ، وقد خرج هذا المؤتمر بنتائج كانت في معظمها في غير صالح المانيا حيث وقف معظم مندوبي الدول المشاركين في المؤتمر إلي جانب فرنسا ولم يبق بجانب ألمانيا سوي النمسا حيث تقرر إنشاء قوة بوليسية من فرنسا وإسبانيا للمحافظة علي الأمن في مراكش وأن تدير كل منهما شئون الجمارك هناك ، وتعمل ما تراه مناسبا من الإصلاحات ، كما تقرر تأسيس بنك تشرف عليه فرنسا وأسبانيا وانجلترا وألمانيا ، ونتيجة لذلك أخذت فرنسا تبذل أقصي جهودها للسيطرة علي مراكش ، وانتهي الأمر بفقدان مراكش لاستقلالها بهيمنة فرنسا وأسبانيا عليها فعندما حدثت بعض القلاقل في مراكش استنجد السلطان عبد الحفيظ بالفرنسيين للقضاء علي الثورة في بلاده ، فانتهزت فرنسا الفرصة وأرسلت قواتها البحرية إلي (الدار البيضاء) بحجة حماية الرعايا الفرنسيين مما ضايق ألمانيا فاعتبرت ما حدث انتهاكا لمصالحها فأرسلت الطراد (بانثر) في مظاهرة بحرية علي سواحل مراكش عند مياه (أغادير) علي ساحل الأطلنطي في أول يونيو ١٣٢٩ هـ ١٩١١ م في محاولة لإثبات حق ألمانيا في بلاد المغرب واحتجاجا علي إرسال فرنسا لقواتها إلي مراكش وبحجة حماية مصالحها التجارية هناك (٤٧) مما أحدث ردود فعل عنيفة في

(٤٧) جلال يحيي : المغرب الكبير ج ٣ ، ص ٧٣٣ . ٧٣٥.

باريس ولندن وروما ، ولتهدئة الموقف حدثت العديد من المساومات بين الطرفين وقعت خلالها ألمانيا مع فرنسا اتفاقية حصلت بمقتضاها علي جزء من الكونغو الفرنسية ضمته ألمانيا إلي مستعمراتها في غرب أفريقية في مقابل الاعتراف بمكانة فرنسا المتميزة في مراكش علي أن تتبع فرنسا سياسة الباب المفتوح بها ، وبذلك انتهت الأزمة المراكشية بإعلان فرنسا لحمايتها علي مراكش ، وظلت فرنسا مصممة علي الاحتفاظ بسلطانها علي هذه المناطق مهما اختلفت الحكومات في فرنسا وتنوعت أنظمة الحكم فيها ، وسارت فرنسا في سياستها الاستعمارية في شمال افريقية وفق خطة منظمة أساسها أن يبقي الحكم مركزاً بيد الحكومة الفرنسية وأن تتهيأ المستعمرات لخدمة فرنسا وتمدها بكل متطلباتها .

٤ ــ ليبيا :

نزلت إيطاليا إلي ميدان الاستعمار بعد أن أتمت وحدتها السياسية في عام ١٢٨٧ هـ / ١٨٧٠ م ، و تزايد عدد سكانها بسرعة لدرجة أن الأراضي الزراعية فيها لم تعد قادرة علي استيعابهم (٤٨) ، من هنا حاولت إيطاليا أن تساير الدول الأوربية في مجال التنافس الاستعماري فتطلعت إلي الساحل الجنوبي للبحر المتوسط وحاولت الاستيلاء علي تونس ، ولما سبقتها فرنسا في ذلك حاولت استراضاءها باتفاق أطلقت فيه يدها في ليبيا في نظير أن تطلق إيطاليا يد فرنسا في مراكش (٤٩) ، يضاف إلي ذلك أن روسيا اتفقت مع إيطاليا علي مساندة أطماعها في ليبيا في نظير اعتراف إيطاليا بحق مرور سفنها في المضايق ونتيجة لذلك بدأت إيطاليا تمهد للسيطرة علي ليبيا اقتصاديا وثقافيا قبل القيام بعملياتها العسكرية فحصلت علي امتياز بفتح فرع لبنك روما في كل من طرابلس وبرقة عام ١٣٢٣ / ١٩٠٥م ذلك البنك الذي لم يقتصر دوره علي الأعمال البنكية بل نشط في عمليات الرهن والتسليف مع الأهالي ، وقرض

---

(٤٨) أحمد صدقي الدجاني : ليبيا قبيل الاحتلال الإيطالي أو طرابلس الغرب في أواخر العهد العثماني الثاني ١٨٨٢ . ١٩١١، القاهرة ، ١٩٧١ ، ص ٣٢

(٤٩) أنتوني جوزيف : ليبيا في العهد العثماني الثاني ١٨٣٥ . ١٩١١ ترجمة يوسف العسلي . دار إحياء الكتب العربية القاهرة ، ١٩٤٦ ص ٥٩.

الأموال لأصحاب الأراضي الزراعية ثم سلبها منهم ، كما فتحت إيطاليا المدارس المجانية في ليبيا بقصد نشر الثقافة الإيطالية وأنشأت المستشفيات والملاجئ للمرضي والفقراء ، وأنشأت مكتبا للبريد في بنغازي(٥٠) ، وإلي جانب ذلك قامت بإرسال البعثات العلمية لاكتشاف المناطق الداخلية في ليبيا ومسح أراضيها هذا في الوقت الذي لم تقم فيه الدولة العثمانية بأي عمل جدي لوقف التوغل الإيطالي في ليبيا .

ولكي تبرر إيطاليا أهدافها الاستعمارية في ليبيا بدأت في مهاجمة الأتراك، ونددت بسياستهم في ليبيا ، وطالبت بضرورة إصلاح أحوال هذه البلاد، والنهوض بها (٥١) .

وبعد أن تهيأت الأذهان أمام سيطرة الإيطاليين علي ليبيا طالبت إيطاليا الدولة العثمانية ١٣٣٠ هـ - سبتمبر ١٩١١ بعدة مطالب لها في ليبيا هي :

١ – خروج العساكر العثمانية من طرابلس وبنغازي ودرنة .

٢ – تشكيل قوات عسكرية في هذه المناطق تحت قيادة ضباط إيطاليين .

٣ – أن تكون إدارة الجمارك في ليبيا تحت أيدي موظفين إيطاليين .

٤ – أن يتم تعيين والي طرابلس بموافقة إيطاليا ورضاها .

ولم تكتف إيطاليا بذلك بل وجهت إنذارا إلي الدولة العثمانية تتهمها فيه بعدم النهوض بليبيا ، وتجاهل رغائبها فيها ، ومعارضة مشروعاتها هناك رغم مصالحها الحيوية في هذه البلاد هذا إلي جانب قيامها بتحريض الأهالي علي الرعايا الإيطاليين بخاصة وعلي الرعايا الأجانب علي اختلاف جنسياتهم بعامة مما جعلهم يخشون علي حياتهم ، ويشرعون في الهجرة من هذه البلاد.

---

(٥٠) جلال يحيي : ا لمغرب ا لكبير ج ٣ ، العصور الحديثة وظهور الاستعمار دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٨١ ، ص ٧١٥.

(٥١) زاهية قدوره : تاريخ العرب الحديث ، ص ٤١٨ . ٤١٩.

ونتيجة لذلك فإن الحكومة الإيطالية مضطرة حرصا علي مصالحها وشرفها إلي احتلال طرابلس وبنغازي احتلالا عسكريا.

وقد صدرت الأوامر إلي السفير الإيطالي في الآستانة بالحصول علي رد من الحكومة العثمانية علي هذا الإنذار في مدة أربع وعشرين ساعة وإلا فإن الحكومة الإيطالية مضطرة إلي احتلال ليبيا .

وعند تحليلنا لهذا الإنذار نجده يثير الدهشة والاستغراب ولا نجد سببا واحدا معقولا من الأسباب التي وردت فيه يدعو إيطاليا إلي القيام بهذا العمل العدائي ، فهل من المنطقي أن تهدد إيطاليا باحتلال المدن الليبية لأن الدولة العثمانية لم تعمل علي النهوض بهذه البلاد وهل من المنطقي أن تهدد إيطاليا بالاستيلاء علي ليبيا لأن الدولة العثمانية لم تمنحها امتيازات اقتصادية ، وحقوق في هذه البلاد .

وللإجابة علي ذلك نجد إن إيطاليا استغلت ضعف الدولة العثمانية وانشغالها ، وسوء أحوالها في تحديها والافتراء عليها ، كما أنها أرادت أن تحول أنظار الشعب الإيطالي إلي الخارج حتى تبعده عن التفكير في مشاكل بلاده الداخلية .

وقد كان رد الدولة العثمانية علي هذا الإنذار ضعيفا حيث حاولت التنصل من اتهامات إيطاليا لها ، وأظهرت حسن نيتها تجاه الإيطاليين ، ومشروعاتهم الاقتصادية في طرابلس وبرقة [٥٢] ، ودعت إلي إجراء مفاوضات بين البلدين بهدف تجنب الحرب ، وحسم النزاع بينهما بطرق سلمية مقابل أن تعطي لإيطاليا مركزا ممتازا في ليبيا كما قامت الدولة العثمانية بإرسال برقيات إلي الدول الأوروبية تطلب منها التوسط في الأمر ، ولكن إيطاليا رفضت هذه المحاولات وأعلنت الحرب علي الدولة العثمانية في ١٣٣٠ هـ / ٢٩ سبتمبر ١٩١١م ، وبدأت في محاصرة طرابلس مدة ثلاثة أيام حتى سقطت بعد قتال غير متكافئ في أعقاب مجزرة بشرية تمثلت فيها

---

(٥٢) جلال يحيي : المغرب الكبير ، ج ٣ ، ص ٧٣٨ .

أفظع أدوار الهمجية (٥٣)، وبعدها تم للإيطاليين احتلال المواني والنقط الساحلية في ليبيا في أكتوبر ١٩١١ أما باقي المناطق فقد ظلت في أيدي ا لقوات الوطنية التي وقفت للإيطاليين بالمرصاد ، وقاومت الجيش الإيطالي المدجج حاملة لواء الحرب ضد جنود الاحتلال والإدارة الإيطالية تقاومهم بالعتاد والسلاح مقاومة عنيفة في كل مكان مما دفع بالإيطاليين إلي بذل الكثير من التضحيات، ودفع بشعوب العالم الإسلامي إلي تكوين الجمعيات لجمع الاكتتابات اللازمة للمشاركة في نفقات هذه الحرب ، وإمداد المقاتلين بالمال و العتاد (٥٤).

ولعل من المفيد أن نذكر أن المقاومة ضد الإيطاليين والتي لاقي فيها الكثير من الأهالي حتفهم ، وقضي آخرون حياتهم داخل السجون كانت موزعة في أربع مناطق هي إقليم برقة ، ودرنة ، وبنغازي ، وطرابلس ، وقادها السنوسيون وبعض رجال القبائل ومجموعة من الضباط الأتراك .

وقد واجه المجاهدون الجيش الايطالي في معارك طاحنة وقوية استبسلوا فيها خصوصا وأنهم يناضلون عن قضية من أشرف القضايا وهي الدفاع عن وطنهم ، والذود عن حياضهم ولكن الفارق في التسليح والإعداد والإمكانات كان له أكبر الأثر في حسم المعركة لصالح ايطاليا .

وقد استغل الايطاليون في ذلك ارتكاب أخطاء جسيمة في معاملتهم للأهالي ، ومحاولة فرض وجودهم بالقوة ، وطريقة تتنافي مع قوانين الحرب(٥٥).

وبعد أن عجزت الدولة العثمانية عن مد يد المعونة الفعلية إلي الأهالي، وفشلت قواتها في مواجهة الموقف اضطرت إلي عقد معاهدة أوشي لوزان مع إيطاليا ، والتي

---

(٥٣) لوثروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامي . ترجمة عجاج نويهض ، المجلد الثاني ، الجزء الثالث ، بيروت دار الفكر ، ص ٣٧٦.

(٥٤) جلال يحيي : المغرب الكبير ، ج ٣ ، ص ٧٧٧.

(٥٥) المرجع نفسه ، ج ٣ ، ص ٧٦٢.

انسحبت بمقتضاها من ليبيا في ١٨ أكتوبر ١٩١٢ ، وتركتها لقمة للايطاليين ، كما تركت أهلها يقاومون الجيش الايطالي بمفردهم مقاومة عنيفة لأكثر من ثلاثين سنة(٥٦)

والخلاصة أن مضاعفات التدخل السياسي الأوربي في شئون العالم العربي ، وضعف الدولة العثمانية وعدم قدرتها علي مواجهة هذا التدخل قد أدي في نهاية الأمر إلي نجاح الدول الاستعمارية في السيطرة عليه واحتلاله عسكريا، وتقطيع أوصاله حتى أصبح نهبا مقسما بين الاستعمار الأوربي بدوله المختلفة .

ولم يمر علي بداية القرن العشرين فترة طويلة حتى كان الاستعمار الأوروبي قد احتل البلدان العربية وسيطر علي شئون الحكم والإدارة فيها واستخدم كل وسائل الشدة والإرهاب في إخضاع أبناء العروبة والإسلام .

ولم يكن أمام العرب بد من أن يعتمدوا علي أنفسهم في مقاومة الأطماع الأجنبية التي تحالفت عليهم وتربصت بهم .

(٥٦) احمد صدقي الدجاني : ليبيا قبل الاحتلال الابطالي ، ص ٤٥٠.

الفصل الرابع

الحركات السياسية والفكرية في العالم العربي

بين فكرة الجامعة الإسلامية وحركة التتريك

- محاولات السلطان عبد الحميد استخدام الرابطة الدينية في مواجهة أعدائه .
- سكة حديد الحجاز .
- فكرة الجامعة الاسلامية بين الأفغاني وعبد الحميد .
- الكواكبي والدعوة إلي انتقال الزعامة للعرب .
- الجمعيات السرية ودورها في الدعوة للحركة العربية .
- الثورة العربية الكبري وأحوال العرب السياسية خلالها .
- اتفاقية سايكس بيكو .
- تصريح بلفور .
- أحوال العالم العربي خلال الحرب العالمية الأولي وفي أعقابها .
- العرب ومؤتمر الصلح في باريس .

بعد تفاقم الاعتداءات الأوربية علي العالم العربي منذ أواخر القرن الثامن عشر الميلادي ، وتسابق الدول الاستعمارية في السيطرة عليه ، وشعور المسلمين بمدي الخطر الذي يحيق ببلادهم ، رأوا ضرورة جمع كلمتهم في شتي بقاع الأرض للوقوف في وجه أعداء الاسلام ومن ثم استيقظت لديهم فكرة احياء الوحدة الاسلامية الكبري لتوحيد الجهود في مواجهة الاستعمار فنشأت فكرة الجامعة الاسلامية .

لقد كان مبعث ولاء المسلمين للسلطنة العثمانية دينيا حيث كانوا مكلفين شرعا بطاعة السلطان العثماني باعتباره الخليفة والأب الروحي للمسلمين (١) خاصة وأن الفكرة المتسلطة علي العقول في ذلك الوقت كانت تقتضي ضرورة طاعة السلطان ، حيث له عليهم الولاية العامة والطاعة التامة والسلطان الشامل ، وله حق القيام علي دينهم ، فيقيم فيهم حدوده وينفذ شرائعه ، وله بالأولي حق القيام علي شئون دنياهم أيضا ، ولم يكن هناك ما يسمي جنسية عربية ، فكلمة عثماني كانت تنطق علي كل من يقطن البلاد العثمانية ومنها البلاد العربية(٢).

ونظرا لتأزم الأمور في العالم العربي رأى السلطان عبد الحميد أهمية استخدام الرابطة الدينية لمقاومة معارضيه في الداخل ومواجهة أعداء الاسلام في الخارج وذلك بابراز السمات الدينية لمنصبه بصفته خليفة للمسلمين وبغرض تسخير قوة الدين لغاياته السياسية وحتى يضمن التفاف العالم العربي حوله ، وجمع كافة الشعوب الاسلامية بما في ذلك الشعوب الخاضعة للاستعمار الأوربي وخاصة أهالي شمال أفريقية الخاضعين لفرنسا ، ومسلمي الهند الخاضعين لبريطانيا وغيرهم (٣) ، ونتيجة لذلك حاول السلطان عبد الحميد كسب ود القوميات المختلفة داخل السلطنة العثمانية وخاصة العرب فأغدق بالعديد من المناصب ومظاهر التكريم علي بعض

---

(١) عن انتقال الخلافة لأل عثمان أنظر : محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربي ص ١٢.

(٢) عبد المنعم الجميعي : عبد الله النديم ودوره في الحركة السياسية والاجتماعية ، ١٩٨٠ ، ص ٢٣١.

Antonius , G :the Arab Awakening ١٩٣٨ p . ٧٥(٣)

الشخصيات العربية، وانفق الأموال الطائلة علي اصلاح وتزيين المساجد في مكة المكرمة والمدينة المنورة والقدس الشريف ، ولكي يزيد من سيطرته علي الاراضي المقدسة عين وال علي الحجاز من قبله بقصد اخضاع هذه البلاد لحكمه المباشر ، وسارع في الاعلان أن سلطته الزمنية تستند إلي سلطته الدينية فهو ظل الله في الأرض وأمير المؤمنين ، وخادم الحرمين يضاف إلي ذلك أنه حاول اقناع الرأي العام الاسلامي أن الخلافة والسلطنة متكاملتان حتى إذا ما استعادت الخلافة مكانها اللائق بها عمد إلي تسخيرها لتكون قوة دافعة لتحقيق أغراضه السياسية .

ولكي يجذب السلطان عبد الحميد قلوب عامة المسلمين إليه أحاط حياته الخاصة بإطار من التقي والتقشف ، كما أحاط نفسه برهط من الفقهاء ورجال الدين الذين يتمتعون بشهرة واسعة بين أبناء المسلمين كما أخذ في التقرب من العرب بشكل واضح فأدخل بعضهم في خدمته الخاصة ، وشكل فرقة مختارة منهم ضمها إلي حرسه الخاص كما وضع بعضهم في مراكز بارزة من السلطنة مثل عزت باشا العابد السوري الذي صار من سكرتارية السلطان(١)، وأبي الهدي الصيادي الذي كان من أشد المقربين إليه والسؤال المطروح هو : لماذا قرب السلطان عبد الحميد العرب بالذات إليه أثناء دعوته لفكرة الجامعة الاسلامية ؟

الواقع أن السلطان عبد الحميد كان يعي قيمة العرب في مساندته لدعوته خصوصا وأن منهم رسول الله ، وفيهم نزلت الرسالة وبلغت للناس أجمعين وإلي جانب ذلك فقد أهتم السلطان عبد الحميد بأمور الحج فدفع شريف مكة لنشر دعوته بين الحجاج كما اهتم بمشروع خط سكة حديد الحجاز الذي يمتد من دمشق إلي المدينة فمكة ، وذلك بهدف تسهيل أمور الحجاج ظاهرا ، ولرغبته في رفع مكانته كخليفة في العالم الاسلامي كله بينما كان السبب الحقيقي يتعلق بالعديد من العوامل السياسية والعسكرية خاصة وأنه يمكنه من نقل قواته إلي شبه الجزيرة العربية رأسا مما يسهل له تقوية قبضته عليها وتشديد سيطرته خاصة علي الحجاز واليمن .

---

(١) الجميعى : مرجع سابق

ولأجل تنفيذ هذا المشروع عين السلطان لجنة برئاسة عزت باشا العابد ، كما وجه نداء إلي العالم الاسلامي يوضح فيه فكرة مد هذا الخط الحديدي ، ويطلب من المسلمين الإكتتاب لتغطية نفقاته .

وقد جذب هذا المشروع أنظار العرب ، وأثار حماسا كبيرا في مختلف جهات العالم الاسلامي فانهالت اتبرعات من كل مكان لانشاء هذا الخط حتى وصل ما قدمه أبناء العالم الاسلامي من هبات للمشروع ثلاثة ملايين من الجنيهات التركية أي ما يوازي ثلث التكاليف ، وقد قام المهندسون الألمان في عام ١٩٠١ وبتشجيع من السلطان ببناء هذا الخط الحديدي الممتد من دمشق ، وقد انتهي العمل فيه في عام ١٩٠٨ عندما امتد إلي المدينة المنورة (١) ، ولكنه سرعان ما توقف نشاطه بسبب قيام الحرب العالمية الأولي ونسف الانجليز لجزء كبير منه .

ونتيجة للحماس الاسلامي لهذا المشروع وتأييد عامة المسلمين للخلافة شعر السلطان عبد الحميد بالارتياح وقد ظل معظم زعماء المسلمين علي ولائهم للدولة العثمانية باعتبارها دولة الاسلام الكبري التي تظل المسلمين بظلالها ، ولم يفكروا في الانفصال عنها ، بل كان جل ما يسعون إليه هو ادخال الاصلاحات السياسية والاقتصادية في نظام الدولة حتى تتمكن من النهوض والتقدم في مواجهة الاطماع الاستعمارية .

والسؤال الذي يطرح نفسه هو : هل كان السلطان عبد الحميد أول الداعين إلي فكرة الجامعة الاسلامية ؟ الواقع أنه قبيل اعتلاء عبد الحميد العرش بسنوات قام جمال الدين الأفغاني بالدعوة إلي الجامعة الاسلامية بهدف أن يرتفع بالشعوب الاسلامية إلي مستوي الأمم الحرة الناهضة وأن يعمل علي تحرير الشرق من سيطرة الغرب الأوربي ونظراً لأهمية الدور الذي قام به في الدعوة إلى الجامعة الاسلامية فإننا سنقوم بالتعريف به وبأهم أعماله .

---

(١) توفيق برو : ا لمرجع السابق ، ص ٤٥.

تتضارب الروايات حول مولد جمال الدين فمنها من قال أنه افغاني مولود في افغانستان ، ومنها من قال أنه فارسي مولود في همدان .

والواقع أن كل من تقرب من جمال الدين عرف أنه من افغانستان ، وأن مولده كان في أسد أباد عام ١٢٥٤ هـ الموافق ١٨٣٨ م (١) ، وأنه عندما شرع السلطان عبد الحميد في الدعوة إلي سياسته الاسلامية كان الافغاني في أوجه نشاطه ينتقل بين أوربا وفارس وتركيا لدعوة المسلمين إلي التكاتف والتآزر في مواجهة أعداء الأمة الاسلامية .

وحركة الجامعة الاسلامية التي دعا إليها الافغاني هدفت إلي وقف الزحف الاستعماري عن طريق تنظيم الحكومات الاسلامية القائمة ، وادخال الافكار والنظم الغربية التي تساعد علي التطور ثم توحيد صفوف المسلمين لمواجهة التيار الاستعماري الزاحف وإلي جانب ذلك فقد نادي الافغاني بتقوية الروابط بين البلدان الاسلامية ، واقامة العدل والشوري والتمسك بهدي القرآن، كما اقترح انشاء حلف اسلامي تتزعمه الدولة العثمانية ، وكانت خطته تتضمن تحويل الامبراطورية العثمانية إلي مملكة الممالك بتنظيمها علي أساس لا مركزي، و من أجل ذلك طالب الافغاني السلطان عبد الحميد بتحويل الولايات العثمانية إلي خديويات كما كان متبعا في مصر حتى تقوي الروابط فيما بينها ، ويؤدي ذلك إلي انضمام بلدان مثل ايران وافغانستان والامارات الاسلامية في الهند إلي الامبراطورية العثمانية في شكلها الجديد وبذلك يمكن حماية بلاد المسلمين من سيطرة الغرب المسيحي (٢) .

ولترويج فكرة الجامعة الاسلامية أنشأ الافغاني في باريس جريدة العروة الوثقي في عام ١٨٨٤ وكتب فيها العديد من المقالات التي تدعو إلي اتحاد المسلمين وضرورة جمع كلمتهم منها مقال عنوانه (الجنسية والديانة الاسلامية) الذي دعا فيه

---

(١) لوثروب ستودارد : حاضر العالم الاسلامي ، المجلد الأول ، الطبعة الرابعة ١٩٧٣م، ص ٢٨٩.

(٢) منسي : المرجع السابق ، ص ٧١ . ٧٢.

الافغاني إلي ضرورة التأثر بحياة المسلمين الأوائل وسيرة السلف الصالح بقوله (هذا ما أرشدتنا إليه سير المسلمين من نشأة دينهم إلي الآن ، لا يعتدون برابطة الشعوب وعصبيات الأجناس ، وإنما ينظرون إلي جامعة الدين ، لهذا تري العربي لا ينفر من سلطة التركي ، والفارسي يقبل سيادة العربي ، والهندي يذعن لسياسة الأفغاني ، ولا اشمئزاز عند أحد منهم ، ولا انقباض وأن المسلم في تبدل حكوماته لا يأنف ولا يستنكر ما يعرض عليه في أشكالها وانتقالها من قبيل إلي قبيل مادام صاحب الحكم حافظا بشأن الشريعة (١).

وأوضح الأفغاني أن رابطة الدين هي الرابطة القومية التي يتمسك بها المسلمون فقال (علمنا وعلم العقلاء أجمعون أن المسلمين لا يعرفون لهم جنسية إلا في دينهم واعتقادهم) كما طالب المسلمين بالتمسك برابطة الدين بقوله (اعتصموا بحبال الرابطة الدينية التي هي أحكم رابطة اجتمع فيها العربي بالتركي والفارسي بالهندي ، والمصري بالمغربي ، وقامت لهم مقام الرابطة النسبية حتى أن الرجل منهم ليتألم لما يصيب أخاه من عاديات الدهر، وأن تناءت دياره وتقلصت أقطاره هذه صلة من أمتن الصلات ساقها الله إليكم وفيها عزتكم ومنعتكم وسلطانكم وسيادتكم فلا توهنوها (٢).

وعلي أية حال فانه ما كاد السلطان العثماني عبد الحميد الثاني يبدأ الدعوة إلي الجامعة الاسلامية حتى وجد التأييد والعون من الافغاني الذي كان يري ضرورة توحيد العالم الاسلامي تحت حكم خليفة واحد ، ولا يهتم بجنس ذلك الخليفة سواء أكان تركيا أم أفغانيا أم عربيا ، ولكن ذلك العون لم يستمر طويلا خاصة بعد أن اتضح أن أفكار كل من هما تسير في مسار يخالف مسار أفكار الأخر ففي حين كان الافغاني يسعي إلي العثور علي حاكم مسلم يستطيع عن طريقه تجديد العالم الاسلامي ، وهذا ما جعله يتطلع إلي السلطان العثماني لمحاولة استخدام نفوذه في سبيل خدمة الاسلام

---

(١) جمال الدين الافغاني ومحمد عبده : العروة الوثقي والدورة التحريرية الكبري ، مقال بعنوان (الجنسية والديانة الاسلامية) .

(٢) العروة الوثقي : مقال التعصب .

كان السلطان عبد الحميد ـ علي العكس ـ تراوده الآمال في استخدام الافغاني وأفكاره عن الجامعة الاسلامية في جمع شتات المسلمين حول عرشه تحقيقا لمصالحه وللمحافظة علي سلطانه ، وإلي جانب ذلك فإن الافغاني في دفاعه عن الاسلام كان ينادي بجعل اللغة العربية هي اللغة الأولي في الدولة العثمانية ، خاصة وأن اللسان العربي هو لسان الدين ، ويدفعه ذلك إلي حد المطالبة بتعرب الدولة العثمانية لأنها لو تعربت وانتفي من بين الأمتين النعرة القومية ، وزال داعي النفور والانقسام ، بين التركي وا لعربي وصاروا أمة عربية بكل ما في اللسان من معني وما في الدين الاسلامي من عدل وما في سيرة أفاضل العرب من أخلاق وفي مكارمهم من عادات لكان أعادة عصر الرشيد للمسلمين ميسورا .

ونتيجة لذلك بدأ السلطان عبد الحميد يشعر بالارتياح لأن أبناء العالم العربي في ذلك الوقت كانوا يميلون إلي تأييد الخلافة علي أساس أن في ذلك تأييد للاسلام ووقوفا في وجه الاطماع الاستعمارية ولذلك فان اليقظة العربية التي برزت في ذلك الوقت كان هدفها الرغبة في الاصلاح في ظل الدولة العثمانية دون التفكير ـ آنذاك في اقامة دولة عربية مستقلة (١).ولكن ذلك لم يستمر طويلا فسرعان ما ظهرت أفكار عبد الرحمن الكواكبي التي تدعو إلي الغاء حق السلطان العثماني في الخلافة وإلي المناداة بتنصيب خليفة ينتمي إلي قريش وأن يكون مركزه مكة (أم القري) وطالب بجمع كلمة المسلمين في ظل هذه الخلافة ، كما تخيل الكواكبي في كتابه (أم القري) أن اثنين وعشرين شخصا يمثلون علماء وفقهاء المسلمين في اثنين وعشرين قطرا من الأقطار الاسلامية اجتمعوا في مكة المكرمة لأداء فريضة الحج ، وبعد تبادل الآراء فيما بينهم في أكثر من اثنتي عشر جلسة رسمية اتفقوا علي تشكيل جمعية غايتها بعث الاسلام واعلاء كلمة الله ، ثم أخذوا يرسمون خطط الاصلاح لاستعادة امجاد الأمة الاسلامية

---

(١) محمد عمارة : الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني ، ص ٧٦.

في عصورها الزاهرة (1) ورأوا انشاء جمعية تحوز رضا الحكومات الاسلامية ويكون دورها النهوض بالأمة من وهدة الجهالة والترقي بها في مدارج المعارف (2).

وكان من الطبيعي أن تساعد الأفكار التي نادي بها الكواكبي علي انتقال الزعامة إلي العرب فشكلت جمعيات عربية وضعت مناهج محددة هدفها حماية حقوق العرب ، فشكل نجيب عازوري في باريس عام ١٩٠٤ منظمة أطلق عليها رابطة الوطن العربي وكان هدف هذه المنظمة تخليص بلاد الشام والعراق من السيطرة العثمانية بمساندة فرنسا ، وقد وضع عازوري افكاره في كتاب أسماه (يقظة الأمة العربية) .

والسؤال المطروح هو لماذا تزايدت في هذا الوقت بالذات فكرة الانفصال عن الدولة العثمانية وبدأ صداها يتردد بسرعة بين ابناء الوطن العربي ؟

الواقع أنه بعد نجاح جمعية الاتحاد والترقي في السيطرة علي زمام الأمور بالدولة العثمانية بدأ افرادها في تبني فكرة تمييز العنصر التركي علي العنصر العربي ، ومحاولاتهم القضاء علي اللغة العربية لغة القرآن الكريم ، واحلال اللغة التركية محلها ، وابعادهم عن مقوماتهم الثقافية وروحهم العربية، يضاف إلي ذلك أن حكومة الاتحاديين كانت تري أن تكون السيادة للعناصر التركية علي العرب (3) ، وترويج المصلحة التركية علي المصلحة العربية ، وتمجيد العنصر التركي ورفعه فوق العناصر الأخري ، مما أدي إلي ذعر العناصر العربية ، ورفضها لفكرة الدعوة إلي الوحدة العثمانية التي طلب منها قبولها والاخلاص لها ، والاندفاع نحو الفكرة العربية (4) ، خاصة بعد أن اتضح للعرب أن استمرار التعاون مع الاتحاديين بات مستحيلا، وأنه يجب عليهم اتخاذ الخطوات اللازمة للدفاع عن حقوقهم والمحافظة علي

---

(١) عبد الرحمن الكواكبي : أم القري ، وهو ضبط مفاوضات ومقررات مؤتمر النهضة الاسلامية المنعقد في مكة المكرمة ١٢١٦ هـ ، بيروت ، دار الرائد العربي، ص ٧. ٨

(٢) نفسه ، ص ١٨.

(٣) عمر عبد العزيز : تاريخ المشرق العربي ، ص ٤٢٧.

(٤) انطونيوس : المرجع السابق ، ص ١١٤.

مصالحهم ونتيجة لذلك تشكلت الجمعيات السرية التي أعلنت معاداتها للدولة العثمانية ، وللاتحاديين كما تشكلت بعض الجمعيات والنوادي ذات البرامج المعتدلة وكانت هذه الجمعيات في ظاهرها أدبية علمية ، وفي باطنها سياسية تحررية ومن أهم هذه الجمعيات نذكر :

١ ــ جمعية المنتدي الأدبي :

أسست في الآستانة في صيف ١٩٠٩ من بعض الموظفين والمبعوثين و الكتاب والطلاب وكانوا في معظمهم من السوريين وكانت مركزا يلتقي فيه العرب من زوار العاصمة والمقيمين فيها ، وقد تمتعت هذه الجمعية بتقدير سياسي كبير ، وانحصرت مساهمتها في تنمية الدعوة للحركة العربية وتوسيع مداها كما كان لها فروعا مختلفة في بلاد الشام والعراق هذا إلي جانب نشاطها في القاهرة وظلت هذه الجمعية تزاول انشطتها حتى أغلقتها الحكومة التركية في عام ١٩١٥ ([١]) .

٢ ــ حزب اللامركزية الادارية العثمانية :

تأسس في عام ١٩١٢ بالقاهرة بهدف اقامة نظام لامركزي في الولايات العربية داخل اطار الدولة العثمانية وتعبئة الرأي العام العربي لتأييد هذا الطلب وقد كان لهذا الحزب فروعا في معظم بلاد الشام ولم يمض عام علي تأسيس هذا الحزب حتى أصبحت لجنته تنطق بلسان العرب وتعرب عن أمانيهم ([٢]).

٣ ــ الجمعية القحطانية :

جمعية سرية انشئت في عام ١٩٠٩ ، واشترك في تأسيسها عزيز المصري وبعض الضباط العرب ، وكان هدف القائمين عليها تحويل الأمبراطورية العثمانية إلي دولة ثنائية بحيث تتكون من الأقاليم العربية دولة واحدة لها برلمانها وحكومتها المحلية ،

---

(١) أمين سعيد : الثورة العربية الكبري ، ج ١ ، ص ٩ .

(٢) انطونيوس : المرجع السابق ، ص ١١٧ . ١١٨.

ولغتها العربية يتولي حكمها السلطان العثماني إلأي جانب حكمه للدولة التركية وظلت هذه الجمعية تزاول نشاطها السري حتى نشوب الحرب العالمية الأولي ([1]).

٤ ـ جمعية العربية الفتاة :

تأسست هذه الجمعية علي أيدي الطلبة العرب في باريس عام ١٩١١ ثم انتقلت إلي بيروت في عام ١٩١٣ وبعد ذلك انتقلت إلى دمشق وبقيت بها حتى عام ١٩٢٠ تقريبا وكان هدف هذه الجمعية في بداية الأمر النهوض بالوطن العربي وتمتعه بالحكم الذاتي في ظل الدولة العثمانية ثم تغير هدفها بعد نشوب الحرب الأولي ، وأصبح انشاء دولة عربية ذات سيادة وبعيدة عن النفوذ التركي([2]).

وإلي جانب هذه الجمعيات وجدت جمعيات أخري محدودة الأهمية أبرزها جمعية (الجامعة العربية) التي أنشأها محمد رشيد رضا صاحب المنار والذي كان يري أهمية التعاون بين العرب والترك وجمعية بيروت الاصلاحية التي تكونت في أواخر ١٩١٢ ، و كانت اللامركزية هي الاساس الذي ارتكزت عليه مطالبها كما كان من بين مطالبها أن يكون تعيين الموظفين من أهالي البلاد الذين يعرفون العربية وجمعية العهد التي أسسها مجموعة من الضباط العرب برئاسة عزيز المصري في عام ١٩١٣والتي كانت تهدف إلي اقامة مملكة ثنائية بمعني الحصول علي الاستقلال الداخلي للبلاد العربية في ظل الخلافة العثمانية ، ومع ذلك فان هذه الجمعية لم تنجح في تحقيق اهدافها بسبب تعارض خطتها مع سياسة الاتحاديين الذين أمروا بالقبض علي عزيز المصري ومحاكمته مما أدي إلي غليان الشعور العربي ضد العثمانيين حتى صدر العفو عنه .

هذه كانت أهم الجمعيات التي ألفها الأحرار العرب بهدف ابراز الكيان العربي داخل الدولة العثمانية ، ومن أجل توحيد الجهود بين هذه الجمعيات عقد المؤتمر العربي

---

(١) توفيق علي برو:العرب والترك في العهد الدستوري العثماني،١٩٠٨ـ ١٩١٤ ، ص ٣١٩ . ٣٢٢.

(٢) أمين سعيد : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٩ .

الأول في عام ١٩١٣ بباريس واشترك فيه مندوبون عن كافة الجمعيات الوطنية العربية ، وقد جاء في الدعوة لعقد هذا المؤتمر أنه في مقدمة الأسباب التي دعت الحاجة إليه حالة الفوضي والاضطراب التي شملت البلدان العربية نتيجة لانكار مطالبها ، واعلن أن المسائل التي سيدور حولها البحث في المؤتمر هي :

١ ـ حقوق العرب في الدولة العثمانية .

٢ ـ ضرورة الاصلاح علي أساس اللامركزية .

٣ ـ الحياة الوطنية و مناهضة الاحتلال .

وقد أكد المتحدثون رغبتهم في المحافظة علي كيان الدولة العثمانية شريطة الاعتراف بحقوق العرب السياسية .

ومع ذلك فان الاتحاديين حاولوا منع اقامة هذا المؤتمر باقناع الحكومة الفرنسية بعدم السماح بعقده في أراضيها ولما عجزوا عن ذلك حاولوا تهدئة مشاعر العرب الثائرة باعطائهم بعض الوعود حول استخدام اللغة العربية كأداة للتعليم في المدارس الابتدائية والثانوية ، وأغرائهم ببعض الوظائف ([1]) أما بخصوص اللامركزية قد عارضتها حكومة الاتحاديين .

هذه كانت أحوال العالم العربي قبيل الحرب العالمية الأولي والتي استمرت الحركة العربية خلالها بمحاولة التوفيق بين مطالبها وبين الولاء للدولة العثمانية ولكن سيطرة جمعية الاتحاد والترقي علي زمام الأمور في تركيا بعد خلع السلطان عبد الحميد ومحاولات الاتحاديين تتريك العرب واذابة قوميتهم داخل القومية التركية والقضاء علي اللغة العربية ، واعتبار الاتراك سادة والعرب مسودين ، كل هذه الأمور دفعت العرب إلى التفكير في الانفصال عن الدولة العثمانية و من هنا دخلت حركتهم في طور جديد وساعدهم علي ذلك قيام الحرب العالمية الأولي وانضمام الدولة العثمانية بجانب اعداء بريطانيا .

---

(١) أمين سعيد . المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٣٨ . ٣٩.

ونتيجة لذلك قام الاتراك بمحاولات عدة للقضاء علي هذه الحركة ، فساقوا زعمائها إلي مجالسهم العرفية في عالية لبنان ، كما أصدروا حكم الاعدام علي أكثرهم ونفذ الحكم في ساحتي دمشق وبيروت العموميتين ، كما أرسلت الدولة العثمانية الوالي جمال باشا إلي بلاد الشام الذي نشر جواسيسه لتتبع أخبار رجال الحركة العربية مما كان له أكبر الأثر علي زيادة الغليان ضد الحكم التركي واصرار العرب علي التخلص منه .

الثورة العربية الكبري وأحوال العرب السياسية خلالها :

عندما نشبت الحرب العالمية الأولي في عام ١٩١٤ انضمت الدولة العثمانية إلى جانب دولتي الوسط (ألمانيا والنمسا) ضد دول الوفاق الثلاثي بريطانيا وفرنسا وروسيا ونتيجة لذلك رأت بريطانيا أن من مصلحتها الاستعانة بالعرب الساخطين علي الحكم العثماني ، وتشجيعهم علي الثورة ضد الاتراك والانضمام إلي جانب بريطانيا وحلفائها في مقابل بعض الوعود البراقة خاصة وأن موقف العرب أصبح مهما لاستراتيجية بريطانيا لأن الأتراك كانوا في مركز يستطيعون به تهديد المصالح البريطانية في قناة السويس ومنطقة الخليج العربي ولأسباب دينية وسياسية واستراتيجية وقع اختيار بريطانيا علي الشريف حسن بن علي أمير مكة الذي كان يتطلع لاقامة دولة عربية بمساعدة بريطانيا ([1]) ولكي تحقق بريطانيا أهدافها دخلت عن طريق معتمدها البريطاني في القاهرة السير (هنري مكاهون) في مفاوضات سرية مع الشريف حسين الذي كانت تسيطر عليه فكرة انشاء دولة عربية كبري ، والذي كان بينه وبين الاتراك جفاء كبير ، وقد كان للشريف حسين ثلاثة أبناء هم علي وعبد الله وفيصل ، وكان كل من هؤلاء الثلاثة ينشدون القضاء علي نظام المركزية في الدولة العثمانية وحصول الحجاز علي استقلال ذاتي تحت اشراف والدهم .

---

(١) محمود منسي : وعد بلفور ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، ص ٦٨.

ولما كان الأمير عبد الله ثاني أنجال الشريف حسين نائبا عن مكة في مجلس المبعوثان العثماني ، وعلي علاقات طيبة مع الخديو عباس الثاني[1] ، فقد اعتاد أن يمر بالقاهرة في غدوه إلي استنبول ورواحه منها ، وحدث في ربيع ١٩١٢ أن زار الأمير عبد الله القاهرة وحل ضيفا علي الخديو وخلال ذلك زار المعتمد البريطاني اللورد كتشنر الخديو وتم التعارف بينه وبين الأمير وبعد انتهاء المقابلة لحق كتشنر بالأمير ومع السير (رونالد ستورز) السكرتير الشرقي للقنصلية البريطانية ، وقد روي الأمير عبد الله ذلك في مذكراته بقوله (بعد وصولي إلي عابدين ، جاءني التشريفاتي علي بك شاهين وقال اللورد كتشنر هنا وقد جاء لزيارتك ، وكانت مباغته خفت عاقبتها علي سياسة والدي مع الاتراك وبالطبع لم أستطع رفض زيارة تكريميه[2].

وبعد أن استقبل الأمير عبد الله اللورد كتشنر ، ودار بينهما الحديث أعرب له كتشنر عن ارتياح الحكومة البريطانية لحالة الأمن في الحجاز ، وطلب منه ابلاغ والده بأن الحكومة البريطانية لا توافق علي تغيير منصب امارة مكة ، ولما حاول الأمير عبد الله معرفة موقف الحكومة البريطانية في حالة وقوع صدام بين العرب والترك لم يجد ردا شافيا من كتشنر خاصة وأنه رفض التورط في خطة محددة لمساعدة الشريف حسين وبعد انصراف المندوب البريطاني حاول الخديو عباس الثاني اقناع الأمير عبد الله بضرورة رد الزيارة لكتشنر [3] ، و علي الرغم من رغبة الأمير عبد الله في رد الزيارة فقد استأذن أولا المندوب العثماني بالقاهرة حتى لا يكون هناك

---

(١) عقد الأمير عبد الله علاقات صداقة مع الخديو عباس الثاني منذ عام ١٩٠٩ عندما كان الخديو يؤدي فريضة الحج ، فقد رافقه اثناء تواجده في مكة ، وتبادلت الزيارات بينهما لدرجة أن الأمير كان ينزل ضيفا علي الخديو اثناء مروره بالقاهرة في طريقه لاستنبول . سليمان موسي : الحركة العربية ، سيرة المرحلة الأولي للنهضة العربية الحديثة ، ١٩٠٨ . ١٩٢٤ ص ٦٦.

(٢) مذكرات الملك عبد الله ، عمان ، منشورات مجلة الرائد الطبعة الثانية ص ٩٩.

(٣) مذكرات الملك عبد الله ، ص ١٠٠ .

مجالا للتأويل وبعد الموافقة زار الأمير عبد الله اللورد كتشنر في مقره بالوكالة البريطانية ودارت الأحاديث بينهما حول شئون الحجاز والعلاقة بين العثمانيين ووالده ومدي محاولات الاتراك التدخل في المسائل الدينية وعلي الرغم من أن هذه الزيارات لم تسفر عن نتائج محددة إلا أنها أوضحت للانجليز مدي اتساع الخلاف بين العرب والترك (١)

ولما قامت الحرب العالمية الاولي في أغسطس ١٩١٤ ترك كتشنر منصبه بالقاهرة وشغل منصب وزير الحربية البريطانية ومع ذلك لم يغب الموقف في الشرق الأوسط عن خاطره ، فابرق إلي (ستورز) للاتصال بالشريف حسين للتعرف علي المعسكر الذي سينضم إليه العرب في حالة دخول تركيا الحرب بجانب الألمان ومن ثم بدأت سلسلة الاتصالات بين الطرفين والسؤال المطروح هو لماذا كانت انجلترا شديدة الرغبة في وقوف العرب بجانبها ؟

الواقع أن وقوف العرب بجانب بريطانيا ضد تركيا ، يضطر الاتراك إلى حجز جزء من قواتهم العسكرية في البلاد العربية بعيدا عن جبهات القتال الرئيسية ، وإلي جانب ذلك فإن قيام الثورة في الجزيرة العربية يمكنه أن يفصل بين القوات العثمانية الرئيسية في الشمال وبين القوات العثمانية في جنوب الجزيرة خاصة في اليمن وعسير يضاف إلي ذلك أن المسلمين في كافة أنحاء العالم كانوا يدينون بالولاء للخلافة في الدولة العثمانية ، وأن مركز الشرافه الديني في مكة يمكن أن يحول ولاء مسلمي الهند وغيرهم من الخلافة العثمانية إلي الخلافة العربية ومن الآستانة إلي مكة.

وعلي أي حال فقد أصبح مصير البلدان العربية بين شقي الرحي فهل يستغل العرب فرصة انشغال تركيا بالحرب ويثورون ضدها أم يقفون بجانبها ويحصلون علي ثقتها الواقع أن الامير فيصل كان من أنصار الوقوف بجانب تركيا ، وأن السلامة كل السلامة في التعاون مع الاتحاديين خاصة وأن الاطماع الفرنسية في سورية والانجليزية في جنوب العراق كانت بادية للعيان علي حين كان الأمير عبد الله يري

---

(١) سليمان موسي : مرجع سابق ، ص ٦٧.

في الثورة ضد الاتراك السبيل لتحقيق الأماني العربية ، ومن هنا حاول اقناع والده باستمرار المحادثات مع الانجليز، وخلال ذلك استقر رأي الشريف حسين علي ضرورة كسب الوقت ومحاولة استطلاع آراء زعماء العرب في شبه الجزيرة والشام للتعرف علي مدي استعدادهم للثورة فجرت الاتصالات بين الشريف حسين وبين جيرانه العرب فاتصل بالادارسه في عسير ، وأل رشيد في حائل وأل سعود في الرياض والأمام يحيي بن حميد الدين في اليمن وخلال ذلك اكتشف أن الموقف في شبه الجزيرة يشجع علي الثورة [1]

والي جانب ذلك فقد كانت هناك تيارات في سوريا والعراق تدعو إلي الثورة ضد العثمانيين ونتيجة لذلك ارسل الشريف حسين ابنه فيصل لاجراء الاتصالات مع الأحزاب العربية بالشام خاصة حزب العربية الفتاة والوقوف علي وضع السوريين وحالتهم النفسية وقد حل الأمير فيصل ضيفا في دمشق علي عطا الله باشا البكري : الذي عقد حزب العربية الفتاة أول اجتماع في بيته ، وقد تأكد لفيصل في هذا الاجتماع استعداد البلدان السورية للقيام بالثورة ضد الاتراك[٢] ، كما أطلع اعضاء الحزب علي نية الثورة عند الشريف حسين وكانت نتيجة هذا الاجتماع التمهيدي الاتفاق بين الفريقين علي القيام بثورة عامة في وقت واحد تكون نتائجها انشاء دولة عربية كبري تشمل الحجاز والعراق وسورية تحت لواء الشريف حسين [٣] ، وإلي جانب ذلك فقد طالب زعماء جمعيتي العربية الفتاة والعهد من الأمير فيصل تسليم والده المخطط الذي يوضح حدود البلدان العربية في آسيا والتي يجب أن يدور علي أساسها الحوار

(١) من المعروف أن اليمن اعلنت ولائها للعثمانيين .

(٢) مذكرات الملك عبد الله ، ص ١٤١ .

(٣) فيصل بن الحسين في خطبه وأقواله ، ص ٣٩ . ٤٠ .

مع الانجليز وقد عرفت هذه الافكار باسم (بروتوكول دمشق) وقد نص فيها علي أن حدود البلاد العربية التي يجب أن تعترف بريطانيا باستقلال العرب فيها تتمثل فيما يلي :

في الشمال من خط مرسين أطنه إلي خط عرض ٣٧ درجة شمالا ، ومنه علي طول الخط بيرجيك - أورفة - ماردين - مديات وجزيرة ابن عمر - عمادية حتى حدود فارس ، وفي الشرق تتمثل في الحدود مع ايران حتى الخليج ، وفي الجنوب المحيط الهندي باستثناء عدن ، وفي الغرب البحرين الأحمر والمتوسط حتى مرسين ، والغاء الامتيازات الاجنبية ، وعقد تحالف دفاعي بين بريطانيا والدول العربية المستقلة ومنح بريطانيا الافضلية في الشئون الاقتصادية وقد حمل الأمير فيصل هذه الشروط إلي والده في يونيو ١٩١٥ ، ولم تمر أسابيع قليلة حتى بدأت المراسلات المعروفة بمراسلات الحسين مكماهون ، والتي هدف الانجليز من ورائها اشعال الثورة العربية ضد الاتراك وقد ارسل الشريف حسين مذكرته إلي السير هنري مكماهون في ١٤ يوليو ١٩١٥ موضحا المقترحات العربية ودارت الاتصالات بينها وقد قطعت بريطانيا علي نفسها من خلالها وعدا بالعمل علي استقلال البلدان العربية إلا أنها أعربت عن بعض التحفظات علي هذه الحدود خاصة بالنسبة لمرسين والاسكندرونة واجزاء من بلاد الشام فذكرت أن لها مصالح في جنوب العراق لا ينبغي أهمالها كما أن لفرنسا مصالح في بعض المناطق بسورية وفيما عدا ذلك فان بريطانيا علي استعداد للإعتراف باستقلال العرب وتأييده وتقديم كافة المساعدات اللازمة لتحقيق ذلك .

وطالت المفاوضات بين الطرفين دون أن يتمكن الحسين من الحصول علي ضمانات كافية من الانجليز واستقر الأمر علي أن يقوم الشريف حسين بالثورة علي الاتراك والانضمام إلي الانجليز وحلفائهم في نظير أن تتعهد بريطانيا بسيادته علي البلدان العربية من جبال طوروس شمالا حتى المحيط الهندي جنوبا ، وألا تعقد بريطانيا صلحا ما لم يشمل شروطا تتضمن ذلك ، ونتيجة لذلك بدأ الحسين يمهد للثورة علي العثمانيين فأرسل ابنه فيصل إلي دمشق لاثارة الاهالي واشعال نار الثورة

ضد الاتراك وذلك بناء علي إشارة منه بعد أن يهيىء الأمر لاعلان ثورته في الحجاز وقد حدد يوم السبت العاشر من يونيو ١٩١٦ موعدا لبدء الثورة في مكة ، فاطلق الشريف حسين بنفسه في ذلك اليوم الرصاصة الأولي علي قلعة الاتراك في مكة إيذانا باعلان الثورة ، وتمكنت قواته في فترة وجيزة من تثبيت أقدامها في الحجاز ، واجبار القوات التركية الموجودة هناك علي الاستسلام باستثناء المدينة المنورة التي ظلت بها الحامية التركية حتى أواخر الحرب تقريبا وعلي الرغم من محاولات الاتراك استرجاع مكة المكرمة فانهم فشلوا في ذلك .

وقد شرح الحسين موقفه في بيانه الأول الذي ناشد فيه المسلمين جميعا بالثورة علي الاتراك مستندا في ذلك إلي العاملين القومي والديني فندد بارهاب الاتحاديين وتعليقهم المشانق في بلاد الشام كما هاجمهم لخروجهم علي الاسلام وبذلك عطل الدعوة إلي الجهاد التي أذاعها الاتراك في البلاد العربية ، كما ناشد الشريف حسين العرب بمساندة القوات البريطانية في مجهوداتها بحجة أنها تعمل علي تحرير بلادهم من الحكم التركي [1] .

وبايعاز من الشريف حسين نفسه نودي به ملكا علي البلاد العربية في ٢ نوفمبر ١٩١٦ ، ولكن الحلفاء لم يعترفوا له بهذه الصفة ، بل اعترفوا به ملكا علي الحجاز فقط حتى لا يتعرضوا لغضب أمراء العرب الأخرين .

وعلي أي حال فقد نجح فيصل بن الحسين في اعداد قواته للقتال ، واجتذاب العديد من القبائل إليه مما مكنه من نسف سكة حديد الحجاز بين معان والعقبة واحتلال ينبع والزحف شمالا والاستيلاء علي العقبة ثم التقدم شمالا لمحاربة الاتراك في منطقة الأردن وبذلك قدم الحلفاء مساعدات هامة ، هذا في الوقت الذي تمكن فيه الانجليز من دخول العراق ، ونجاح اللورد اللنبي في احتلال القدس ثم دخول القوات العربية منتصرة إلي دمشق في أول اكتوبر ١٩١٨ ورفع اعلامها فوق أسوار مبانيها الحكومية وذلك قبل دخول القوات البريطانية بقيادة اللنبي إليها ثم زحفها شمالا

---

(١) انطونيوس : المرجع السابق ، ص ٢٣٢ ، ٢٥١.

والاشتباك مع الاتراك ونجاحها في دخول حمص وحلب وحماه وتخليص كل البلاد السورية في الحكم العثماني .

اتفاقية سايكس بيكو :

وفي الوقت الذي كانت فيه بريطانيا تفاوض العرب طالبة معونتهم لها في مقابل مساعدتها لهم في الحصول علي استقلالهم كانت تتبع في ذلك الوقت سياسة ذات وجه أخر حيث كانت تخطط مع فرنسا وروسيا لاقتسام أملاك الدولة العثمانية واستعمارها حيث أعد المفاوض البريطاني (مارك سايكس) عضو مجلس العموم والذي اشتهر بتضلعه في شئون الشرق ورحلاته في معظم أنحاء الدولة العثمانية ، والمفاوض الفرنسي (جورج بيكو) الذي كان قنصلا عاما لدولته في بيروت خلال الاعوام التي سبقت الحرب مشروعا حددا فيه مصير الممتلكات العثمانية في آسيا والمناطق التي تعتبرها كل من الدولتين منطقة نفوذ لها ، ولما كانت لهذه التسوية أهمية مباشرة لروسيا فقد انتقل سايكس وبيكو إلي بتروجراد في مارس ١٩١٦ للحصول علي موافقة الحكومة الروسية [١] .

وقد انتهت هذه المباحثات بتلك الاتفاقية المعروفة باسم اتفاقية سايكس بيكو أو الاتفاقية السرية الانجليزية الفرنسية الروسية ، والتي تنص علي تحديد المناطق العثمانية التي تعتبرها كل من هذه الدول الثلاث منطقة نفوذ خاصة بها وتضمنت ما يلي :

١ ـ استعداد بريطانيا وفرنسا للاعتراف بدولة عربية مستقلة تشمل بعض مناطق العراق وشرق الاردن وقطاع دمشق أو اتحاد من الدول العربية يؤلف من الاراضي الداخلية بين العراق والشام بحيث يكون الافضلية للدولة صاحبة العلاقة بها في النواحي الاقتصادية .

٢ ـ تحصل روسيا علي القسطنطينية والاراضي الواقعة حول البسفور وجزء من شرق الاناضول بجوار الحدود الروسية .

---

(١) مصطفي ماهر وكمال رضوان : ألمانيا والعالم العربي ببيروت ١٩٧٤.

٣ ـ تحصل فرنسا علي سورية ولبنان مع جزء كبير من جنوب الاناضول بما في ذلك ولاية (أطنه) ومرسين والاسكندرونة هذا بالاضافة إلي منطقة الموصل في شمال العراق.

٤ ـ تحصل بريطانيا علي المنطقة الممتدة من شرق الاردن حتى العراق حيث تدخل بغداد والبصرة وجميع البلاد الواقعة بين منطقة الخليج ضمن مناطق نفوذها كما تحصل علي ميناءي حيفا و عكا في فلسطين .

٥ ـ تنشأ ادارة دولية في فلسطين يحدد شكلها بالاتفاق مع ممثلي الخلفاء وممثلو شرق مكة [١].

وبمراجعة نصوص هذه الاتفاقية يتضح ما يلي :

١ ـ أن اتفاق سايكس بيكو جاء مناقضا تماما لاتفاق الحسين مكماهون مما يؤكد ازدواجية السياسة البريطانية والتوائها .

٢ ـ أن هذا الاتفاق كان بمثابة وثيقة وليدة للاطماع الاستعمارية في أبشع صورها ، كما أنه كان مثالا بارزا للمخاتلة ونكث العهود .

٣ ـ أن هذا الاتفاق قسم منطقة الشرق العربي الاسيوي بطريقة تهدف إلي اقامة العقبات في طريق وحدته كما أنه وضع المناطق الأكثر رخاء وتقدما في سورية والعراق تحت السيطرة الاجنبية ، بينما سمح للمناطق الداخلية فقط بأن يقام فيها دولة عربية تتمتع بقدر من الحكم الذاتي .

والغريب في الأمر أن العرب لم يعلموا بأمر هذه الاتفاقية عند توقيعها بل ظلت سرية حتى قامت الثورة البلشفية في روسيا ، ونشر ت جريدتا الاوزفستيا والبرافدا نصوص هذه الاتفاقية في ٢٣ نوفمبر ١٩١٧ وقد بادرت تركيا إلي استغلال الفرصة فأرسلت نص الاتفاق إلي الشريف حسين بن علي، وطالبته بالعودة إلي جانب

(١) منسي : حركة اليقظة العربية في الشرق الاسيوي ، ص ٣٥٠.

العثمانيين بعد أن انكشف غدر الانجليز والفرنسين للعرب، كما ناشدته بعقد صلح بين العرب والترك .

وبعد أن وصل نبأ الاتفاق إلي الشريف حسين ظهر عليه الاضطراب والانفعال ، وطلب تفسيرا له من المندوب السامي البريطاني الذي عمد إلي التضليل فلم يؤكد صحة ما أذيع حول الاتفاق أو ينكره بل أقنع الشريف حسين بأن هذا الاجراء من جانب تركيا مثالا جديدا للدسائس بينهما غايته اثارة النفور بين العرب والحلفاء(١)، وأن كل ما في الأمر أن الوثائق التي وجدها البلاشفة في وزارة الخارجية في بتروجراد لا تؤلف اتفاقية عقدت بالفعل ، ولكنها تسجيل لرسائل ومحادثات مؤقتة تبودلت بين بريطانيا العظمي وفرنسا وروسيا وانها أجريت في الأيام الأولي للحرب وقبل الثورة العربية (٢)

ونتيجة لذلك استمر الحسين في تأييده لبريطانيا وحلفائها ضد الدولة العثمانية معتمدا على بريطانيا ستقف بجانبه إلا أن الأمور قد اتضحت له بعد ذلك خاصة وأن بوادر النصر بدأت تلوح في جانب الحلفاء وهكذا كانت اتفاقية سايكس بيكو طعنة أليمة وجهتها بريطانيا إلي العرب الذين وقفوا بجانبها خلال محنتها .

تصريح بلفور :

لم تكن اتفاقية سايكس بيكو هي الطعنة الوحيدة التي وجهتها بريطانيا للعرب ، بل وجهت إليهم طعنة أخري تمثلت في تصريح بلفور عام ١٩١٧ والذي وعد فيه اليهود بمساعدتهم علي إقامة وطن قومي لهم في فلسطين العربية ونص هذا التصريح عبارة عن خطاب موجه من وزير الخارجية البريطاني (أرثر جيمس بلفور) إلي اللورد روتشيلد يقول فيه إن حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف إلي تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين وستبذل جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية ، علي أنه يفهم بوضوح أنه لن يؤتي بعمل من شأنه أن يغير الحقوق المدنية والدينية التي يتمتع

---

(١) أنطونيوس : المرجع السابق ، ص ٢٨٤ . ٢٨٥.

(٢) G. Antonius . the arab awakining

بها الطوائف غير اليهودية المقيمة الآن في فلسطين ولا الحقوق أو الوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلدان الأخري [1]

ويرجع اصدار هذا التصريح إلي الآتي :

١ ـ زيادة حدة التنافس بين بريطانيا وفرنسا من أجل السيطرة علي فلسطين ، وتحول اتجاه الحكومة البريطانية من مجرد الاهتمام الودي بالصهيونية والتشجيع شبه الرسمي إلي ما يقرب من التعهد والالتزام ، ومن أجل ذلك ظهر وعد بلفور الذي مكن الطريق أمام بريطانيا بعد انتصارها في الحرب للمطالبة بأن تكون فلسطين من حصتها في الغنائم حتى تتمكن من تنفيذ ذلك الوعد وأدي إلي ترحيب الصهاينة باقامة حكم بريطاني في فلسطين وتأييدهم الفعلي للانجليز حتى يتمكنوا من تحقيقه .

٢ ـ جهود حاييم وايزمان زعيم الصهاينة في بريطانيا واستاذ الكيمياء في جامعة مانشستر في الحصول علي وعد من بريطانيا بتحقيق وطن قومي لليهود في فلسطين اعترافا من القادة الانجليز له بخدماته العلمية في تحضير مادة الأستون التي تدخل في صناعة الذخائر والمتفجرات .

٣ ـ رغبة الحلفاء في كسب ود اليهود الألمان إلي جانبهم حتى يحصلوا منهم علي الأسرار الحربية لألمانيا ، ويقومون بدور المخرب والمناوئ لاعداء بريطانيا.

٤ ـ رغبة الانجليز في توسيع حدة المشاكل بين العرب حتى لا يتمكنوا من النهوض في اعقاب الحرب ، مما أثار الحيرة والفزع في نفوس العرب الذين فسروا الوعد علي أنه بمثابة إنكار لحرية العرب السياسية في فلسطين ونقضا للعهود التي قطعها الانجليز لهم ، كما رأوا في هذا التصريح اعتداء علي جزء من أراضيهم وسلب حقوق أهلها وتسليمه للصهاينة .كل ذلك أدي إلي صدمة عنيفة وتزايد الشعور بالعداء للانجليز .

أحوال العالم العربي السياسية أثناء الحرب وفي أعقابها :

---

(١) منسي : تصريح بلفور ، ص ٩٨ . ٩٩.

حدثت الحرب العالمية الأولي في الوقت الذي كانت فيه معظم البلدان العربية واقعة تحت الحكم الاستعماري فقد كانت بريطانيا تحتل عدن منذ عام ١٨٣٩ وتسيطر علي مشيخات وامارات الخليج العربي هذا بالاضافة إلي قيامها باحتلال مصر في عام ١٨٨٢ وكانت فرنسا تحتل الجزائر منذ ١٨٣٠ وتونس منذ عام ١٨٨١ ومراكش منذ عام ١٩١٢ وكانت إيطاليا تحتل ليبيا منذ عام ١٩١١ ، أما عن بلاد الشام والعراق وشبه الجزيرة العربية فقد ظلت بعيدة حتى هذه الفترة عن الاستعمار الاوربي وأن كان أهلها يئنون من نير الحكم التركي ويعملون علي التخلص منه ، ونيل استقلالهم وبعد انتهاء الحرب وانتصار الحلفاء علي المانيا وحلفائها خرج الاتراك من بلاد الشام والعراق والجزيرة العربية، وتأهبت قوات الثورة العربية للإمساك بزمام الأمور ، فدخلت القوات العربية دمشق في ٣٠ سبتمبر ١٩١٨ وأعلنت فيها الحكومة العربية [1] ولكن انجلترا وفرنسا كانتا تبيتان للعالم العربي غير ما كان يتمناه ، ولما كان مصير البلاد العربية ، بعد الحرب لا يمكن تقريره إلا في مؤتمر الصلح المنعقد في فرساي فقد وصل زعماء العرب ومنهم الأمير فيصل بن الحسين إلي هناك وظل يعلق الامال علي تحقيق المطالب العربية في مؤتمر الصلح ، والدفاع عن مصالح الأمة العربية .

العرب ومؤتمر الصلح :

وصل الأمير فيصل بن الحسين إلي باريس في يناير ١٩١٩ علي رأس الوفد الحجازي في مؤتمر الصلح فوجد أن هناك ثلاث عقبات تعترض الاماني العربية وهي:

١ ـ اطماع بريطانيا في فلسطين والعراق

٢ ـ اطماع فرنسا في سورية

٣ ـ الاطماع الصهيونية في فلسطين

---

(١) للتفاصيل انظر خيرية قاسمية : الحكومة العربية في دمشق ، ببيروت ١٩٨٢، ص٤٦.

أما بالنسبة للجزيرة العربية فقد كانت تقريبا بمنأي عن هذه الاطماع اللهم حرص بريطانيا علي الاحتفاظ بمحمياتها في الخليج وإلي جانب هذه العقبات فقد كان الفرنسيون لا يريدون الاعتراف بالأمير فيصل بحجة أنهم لم يعترفوا بالحجاز كدولة مستقلة ، كما أنهم يعترضون علي تدخله في أمور البلاد السورية، ونظرا لتعقد الأمور سافر الأمير فيصل إلي لندن للبحث عن مخرج فاستقبل هناك بترحيب كبير ، ولكنه فوجئ بأن اتفاق سايكس بيكو كان حقيقة وبأنه ليس في خيال الروس كما ردد الانجليز من قبل ، وبعد مشاورات ومداولات سمح للأمير فيصل بدخول مؤتمر الصلح ، وحجز مقعدين للحجاز فشارك بمذكرة وجهها إلي أعضاء المؤتمر طالب فيها الاعتراف باستقلال وسيادة الشعوب العربية القاطنة في آسيا واستند في ذلك إلي مبادئ الرئيس الامريكي ولسون في حق الشعوب في تقرير مصيرها بنفسها كما اعترض علي مشروع تقسيم البلاد العربية ووصف الانتداب عليها بأنه مخل بالأمن العام في الشرق كله وطالب بتعيين لجنة أمريكية بريطانية فرنسية وعربية للنظر في المسائل المتعلقة بالجلاء، واستطلاع رأي الاهالي ورغباتهم حول تقرير مصيرهم(١)

وقد وافق المؤتمر علي اقتراح فيصل بارسال لجنة دولية إلي بلاد الشام، ونظرا لرفض فرنسا وبريطانيا الاشتراك في هذه اللجنة وتحمس الرئيس الامريكي ولسن لها أرسلت الحكومة الأمريكية لجنة (كنج كراين)(٢) للتعرف علي رغبات العرب ومطالبهم ، وقد بدأت اللجنة أعمالها فدخلت دمشق واجتمعت بذوي الشأن فيها ، كما أخذت في استقصاء الأمر ، فوجدت أن هناك شبه اجماع علي طلب الاستقلال وخلال ذلك وتأكيدا للرغبة في استقلال بلاد الشام عن النفوذين الفرنسي والبريطاني تقدم بعض زعماء الشام باقتراح إلي الأمير فيصل مؤداه تشكيل مجلس وطني واجراء

---

(١) ذوقان قرقوط : المشرق العربي في مواجهة الاستعمار قراءة في تاريخ سوريا المعاصر ، ص ٨٥.

(٢) نسبه إلي هنري كنج ، وشارلس كراين.

انتخابات عامة حتى يثبت السوريون أمام اللجنة الأمريكية أمانيهم وآمالهم لتقدمها اللجنة إلي مؤتمر السلام (١)

ونتيجة لذلك اجتمع في دمشق في مارس ١٩٢٠ المجلس الوطني الذي أصبح يعرف بالمؤتمر السوري العام والذي اصدر عدة قرارات تتركز في :

١ ــ اعلان استقلال سوريا ولبنان والأردن كدولة واحدة علي أن يكون نظام الحكم فيها ملكيا دستوريا ، وتنصيب الأمير فيصل بن الحسين ملكا عليها .

٢ــ إعلان استقلال العراق والمناداة بالامير عبد الله بن الحسين ملكا عليها.

٣ - رفض اتفاقية سايكس بيكو ، ووعد بلفور وكل مشروع يهدف إلي تقسيم بلاد الشام وانشاء دولة يهودية في فلسطين .

٤ ــ رفض نظام الانتداب الذي يعطي لبريطانيا وفرنسا حق الوصاية السياسية علي البلاد العربية .

٥ ــ مناشدة الرئيس الامريكي ولسن بالوقوف في وجه الممارسات الاستعمارية ضد البلاد العربية .

وعلي الرغم من ذلك فإن هذه القرارات لم تأت بالنتائج المرجوة خاصة وأن الجيوش الانجليزية كانت تحتل العراق وفلسطين ، كما كانت تسيطر الجيوش الفرنسية علي شواطئ الشام ، وإلي جانب ذلك فإن قرارات لجنة كنج كراين بعدالة الأماني القومية للعرب ، و توصيتها بوحدة سورية تحت رئاسة الأمير فيصل قد ذهبت ادراج الرياح وأخذت كل من انجلترا وفرنسا في تدبير المؤامرات لسلب العرب حقوقهم والمساومة علي اقتسام سورية والعراق فيما بينهما فأبلغت الحكومة الانجليزية الأمير فيصل باتفاقها مع فرنسا وطالبته بالسفر إلي باريس لمشاورة الحكومة الفرنسية في المطالب العربية ، وقد قابل الأمير فيصل الرئيس الفرنسي (كليمنصو) وعقد معه اتفاقا عارضه أهالي الشام وواجهوه بثورة عارمة ، ولما لم يجد الحلفاء بدا من كشف

---

(١) كامل الغزي : نهر الذهب في تاريخ حلب ، ج ٣ ، دمشق ، ص ٧٣٥.

النقاب عن مؤامرتهم ومصارحة العرب بما يدور فيما بينهم اجتمع المجلس الأعلي للحلفاء في سان ريمو في ٢٥ ابريل ١٩٢٠ وقرر وضع العراق تحت الانتداب البريطاني بالاضافة إلي فلسطين مع تنفيذ وعد بلفور وكذلك وضع سورية ولبنان تحت النفوذ الفرنسي مما أدي إلي استياء الشعور العربي ، وازدياد الكراهية للدول الاوربية .

وهكذا أنشب الانجليز والفرنسيين مخالبهم في العراق والشام هذا بالاضافة إلي نكث بريطانيا بوعودها للمصريين فانكرت عليهم حقهم في الحرية والاستقلال بعد أن اعترف مؤتمر الصلح بالحماية البريطانية علي مصر ، وبذلك دخل العرب مرحلة جديدة من تاريخهم تتسم بالكفاح ضد الاستعمار الأوربي واطماعه .

الفصل الخامس

من قضايا المشرق العربي ومراحل كفاحه حتى الاستقلال

- العراق في التاريخ الحديث والمعاصر
- سورية من الاحتلال إلي ما بعد مرحلة الاستقلال
- لبنان في التاريخ الحديث والمعاصر
- المملكة الاردنية الهاشمية
- الكويت
- القضية الفلسطينية وواقعها المعاصر

اعتبرت الدول الاوروبية قضايا البلاد العربية فرعا من المسألة الشرقية التي كانت تعني في حقيقة الأمر مسألة تقسيم الاراضي التابعة للدولة العثمانية ففي أثناء الحرب العالمية الأولي احتلت القوات الانجليزية معظم بلاد العراق ثم احتلت بالاشتراك مع قوات الثورة العربية التي كانت تحت قيادة فيصل بن الحسين القسم الداخلي والشمالي من بلاد الشام واحتلت بمفردها فلسطين وقامت تحت رئاسة الأمير فيصل في دمشق حكومة عربية واحتلت القوات الفرنسية جبل لبنان والسواحل الشامية ، ولقد كان من المأمول أن تقوم مملكة عربية تشمل بلاد الشام والعراق والحجاز استنادا إلي وعود الانجليز والمراسلات التي تمت بين الحسين مكماهون غير أنه اتضح اتفاق الانجليز مع الفرنسيين علي تجزئة البلاد العربية إلي مناطق نفوذ بينها كما وعدوا اليهود بإقامة وطن قومي لهم في فلسطين ، ونتيجة لذلك فمنذ أن وضعت الحرب العالمية الأولي أوزارها[1] دار صراع عنيف من أجل تحرير العرب لبلادهم ، وقد امتد هذا النضال عشرات السنين حتى تتمكن العرب من استرداد ارضهم وفيما يلي نتتبع ذلك في البلدان الآتية :

١ ـ العراق في التاريخ الحديث والمعاصر :

كان العراق في أثناء الحكم العثماني يتألف من ثلاث ولايات منفصلة عن بعضها وهي بغداد والبصرة والموصل ، ولما وقعت هذه الولايات تحت الاحتلال الانجليزي في أثناء الحرب العالمية الأولي غدت اقليماً موحداً تحت الإدارة العسكرية الانجليزية ، وقد بدأ نضال أهلها في سبيل الاستقلال فور انتهاء الحرب حيث ظهرت نيات الانجليز في حكم البلاد حكماً عسكريا واستغلال ثرواته وتناسوا وعودهم للعرب وأنشأوا في بغداد ادارة انجليزية

---

(١) محمد عزة دروزه : العرب والعروبة من القرن الثالث حتى القرن الرابع عشر الهجري ، ج ٢ ، دمشق ، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر ١٩٦٠ ، ص ٦٢٢ . ٦٦٣.

مرتبطة بحكومة الهند أي أن العراق كان يدار علي شكل مستعمرة تابعة للهند فكانت الحكومة الهندية تتولي شئون إدارته وسرعان ما قام العراقيون في سنة ١٩١٩ م بثورة ازعجت الانجليز وسببت لهم أفدح الخسائر واضطرتهم إلي التراجع عن حكمهم الاستعماري وقد رفع حزب العهد العراقي باسم جميع الأحزاب والجمعيات العراقية الاحتجاج التالي إلى الأمير فيصل بقوله : نحتج بشدة لدي جميع الدول علي الاحتلال الانجليزي في العراق وعلي ما أعلنه اللورد كيرزون وزير خارجية انجلترا من وجوب بقاء جيش الاحتلال الانجليزي في العراق وفقا لرغائب الشعب علي زعمه ونعلن للعالم المتمدن كله أن العراقين قاطبة ... يفرحون ويهللون يوم يرون الانجليز ينسحبون من البلاد ونتيجة لهذا تم تنصيب الأمير فيصل ابن الملك حسين ملكاً علي العراق في عام ١٩٢١م وقد اتخذ الانجليز هذا القرار كمحاولة منهم لتهدئة الموقف في العراق من ناحية ، وكمحاولة لرد الجميل للهاشميين الذين وقفوا بجانبهم خلال الحرب خاصة ، وأن الأمير فيصل كان يتمتع بسمعة جيدة بين الزعماء العرب ، وقد تولي فيصل عرش العراق طبقا لاستفتاء أجرته السلطات الانجليزية في العراق حصل خلاله علي ٩٦ في المائة من الأصوات ، ونتيجة لذلك تألفت الوزارة العراقية وشارك العراقيون في ادارة بلادهم ، وأن ظل الانجليز يحتفظون بالمناصب الرئيسية كمستشارين للوزارات المختلفة ، هذا إلي جانب محاولاتهم المستمرة لتوطيد سيطرتهم استنادا إلي قواتهم العسكرية وممارسة سلطتهم ونفوذهم أيضا عن طريق رؤساء القبائل والعشائر الذين كانوا يستميلونهم بالأموال مما جعل من الصعب علي أي حكومة مركزية في بغداد أن تحقق تقدما كبيرا في توحيد الأمة العراقية كوحدة قومية.

وترجع أهمية العراق بالنسبة لبريطانيا إلي موقعه الاستراتيجي كقاعدة للطريق البري إلي الهند وإلي امكانية استخدام ارضه كقاعدة جوية للطيران

التجاري والحربي هذا بجانب أهميته الاقتصادية خاصة البترول واستندوا في ذلك إلي أن عصبة الأمم قد عهدت إليهم بالانتداب علي العراق فحاولوا التدخل في كل أمر من أموره ولكن نتيجة لتصميم العراقيين علي الاستقلال ، ورغبة بريطانيا في معالجة المسألة العراقية بالحذر التام ابدي الانجليز استعدادهم للمساومة ، فوقعوا معاهدة مباشرة مع العراق في العاشر من اكتوبر ١٩٢٢ اعترفوا فيها باستقلال منقوص للعراقيين خاصة وأن بريطانيا فرضت بعض الشروط منها :

١ – حق تعيين مستشارين للحكومة العراقية .

٢ – مساعدة الجيش العراقي والاشراف علي شئونه .

٣ – حماية الاجانب .

٤ – تقديم المشورة للعراق في المسائل المالية .

٥ – تقديم المشورة للعراق حول المسائل السياسية الخارجية .

والواقع أن هذه المعاهدة لم تكن لتختلف كثيرا عن وثيقة الانتداب مما جعلها تلقي معارضة شديدة من الوطنيين الذين رأوا في نصوصها غبنا لبلادهم، وفيما بين عامي ١٩٢٤ ـ ١٩٣٠ ازدادت مطالب العراقيين لمزيد من الاستقلال فعقدت معاهدة في يناير ١٩٢٦ واخري في ديسمبر ١٩٢٧ وكلاهما خففت بعض الشيء من وطأة السيطرة البريطانية ، واشتد الأخذ والرد بين العراقيين والانجليز وكاد الموقف يتدهور مما جعل الانجليز يوافقون علي تعديل المعاهدة في عام ١٩٣٠ والتي نصت علي اقامة تحالف مدته ٢٥ عاما بين بريطانيا والعراق ، وأكدت عزم بريطانيا علي مساعدة العراق في الدخول في عصبة الأمم عام ١٩٣٢ ، وأعلنت استقلال العراق الكامل وانهاء الانتداب وقت دخول العراق عصبة الأمم كذلك نصت المعاهدة علي مساعدة بريطانيا في الدفاع عن

العراق في حالة الحرب علي أن يقدم العراق كل التسهيلات لبريطانيا خلال الحرب ، كما نصت المعاهدة علي أن تؤجر العراق للانجليز بعض القواعد الجوية .

والجدير بالذكر أن هذه المعاهدات مثلت نموذجا للمعاهدات التي عقدتها انجلترا وفرنسا مع الدول العربية بعد ذلك ومن أمثلة ذلك معاهدة ١٩٣٦م والمعاهدة التي عقدتها فرنسا مع سورية ولبنان في العام وكنتيجة لهذه المعاهدة دخل العراق عصبة الأمم كدولة مستقلة ذات سيادة .

وبعد وفاة الملك فيصل في عام ١٩٣٣ خلفه ابنه غازي الذي كان يبلغ من العمر ٢١ عاما وكانت تنقصه الخبرة ولا يقدر المسئولية فشغف بهواية سباق السيارات أكثر من انشغاله بالأمور العامة في بلاده ، وقد عرف الملك غازي بعدائه للانجليز وفي ابريل ١٩٣٩ توفي الملك غازي في حادث سيارة قرب بغداد ، واتهم الانجليز بمقتله .

وقد خلف غازي ابنه الصغير فيصل الثاني وبسبب صغر سنه تم انشاء نظام الوصاية برئاسة خاله عبد الاله الذي كان من أعوان الانجليز واستمر الأمر علي ذلك حتى عام ١٩٥٣ حيث بلغ فيصل سن الرشد فاستلم مهام الملك، وخلال الفترة التي أعقبت معاهدة ١٩٣٠ ظل العراقيون يسعون لإزالة القيود والشروط التي تضمنتها هذه المعاهدة ، وفي تلك الفترة ازداد الدور الذي يلعبه الجيش العراقي في السياسة وظهر ذلك في اكتوبر عام ١٩٣٦ م ، عندما قام الجيش بقيادة بكر صدقي بانقلاب وأرغم وزارة الجنرال ياسين الهاشمي علي الاستقالة وبقيام الحرب العالمية الثانية وجنوح الانجليز إلي تشديد قبضتهم علي العراق قامت ثورة ١٩٤٠ بزعامة رشيد عالي الكيلاني وأطاحت بحكومة الوصي وأقامت حكومة الدفاع الوطني من ضباط حربيين ثم خلع الوصي واستبدل به أحد نقباء الاشراف ، ولكن الإنجليز استطاعوا السيطرة علي الموقف

خشية التدخل الألماني وهزموا ا لكيلاني واضطروه إلي الفرار ، وفي يونيه ١٩٤١ م ارسلت الحكومة البريطانية رسالة توضح فيها احترامها لاستقلال العراق ، ومع ذلك فإن العراق لم تعتبر نفسها في حالة حرب مع ألمانيا وإيطاليا واليابان إلا في عام ١٩٤٣ م ، ولما انتهت الحرب طالبت الصحف العراقية بتخفيف القيود المفروضة علي العراق والرجوع إلي نظام الحكومة الحزبية وفي ينـاير ١٩٤٨ م وقعت معاهدة إنجليزية عراقية تركت لبريطانيا تسهيلات عسكرية مما أثار الشعب العراقي وفي سنة ١٩٥٥ م عقد بين العراق وانجلترا اتفاقية انهيت بها أحكام المعاهدة وتعهدت انجلترا بالجلاء عن العراق وتسليم المطارات الانجليزية للحكومة العراقية مقابل موافقة العراق علي الاشتراك في حلف مع تركيا وبعض دول الشرق الأوسط وعلي قبول المساعدات البريطانية والدفاع عن العراق في حالة تعرضه لأي هجوم علي أن يستمر الاتفاق لمدة خمس سنوات قابلة للتجديد ولقد أثار هذا الاتفاق ضجة في العالم العربي الذي كان يأمل في أن يخرج العراق من الدائرة الانجليزية كما أخذ الصراع يشتد بين الجماعات الوطنية في العراق وحكامه الذين جعلوا من العراق حصنا للاستعمار وقد بلغ ذلك ذروته في ١٤ يوليو ١٩٥٨ وانفجر في شكل حركة عسكرية اطاحت بالحكم الملكي واعلنت النظام الجمهوري وأخرجت العراق من حلف بغداد [١]، وبدأ العراق يختط له طريقا أخر غير الطريق الذي رسمته له القوي الاستعمارية من قبل ولكن الرياح غالبا لا تأتي بما تشتهي السفن فبعد تولي عبد الكريم قاسم رئاسة الحكومة وقيادة الجيش عمل علي الانفراد بالسلطة فازاح زميله عبد الرحمن عارف لأنه كان يمثل نقطة قيادية في العراق وبدأت امارات الانحراف تظهر في سياسته خاصة بعد بطشه بالوطنيين، ونجاح الشيوعيين في السيطرة عليه عن طريق الادعاء بأنهم يريدون أن يكون الزعيم الأوحد في

(١) دروزة : مرجع سابق ، ص ٦٦٦.

العراق [1] ، يضاف إلي ذلك أنه قام بشن عملية أبادة حقيقية ضد معارضيه اسفرت عن سقوط ألاف الضحايا كما تميزت سياسته الخارجية بالعديد من الأزمات مع الدول العربية ، وانتهي أمره بانقلاب عسكري أطاح به في الثامن من فبراير ١٩٦٣ وتسلم الحكم من بعده عبد السلام محمد عارف الذي استمر في الرئاسة حتي سقطت به الطائرة في البصرة عام ١٩٦٦ ، وقد تسلم رئاسة الجمهورية بعد الرئيس عارف أخوه عبد الرحمن عارف الذي استمر في الحكم حتي استطاع حزب البعث العربي الاشتراكي أن يقوم بانقلاب عسكري عليه في ١٧ من يوليو ١٩٦٨ ويتسلم السلطة .

وبعد أن تسلم حزب البعث ادارة دفة امور العراق ، تولي الفريق أحمد حسن البكر رئاسة الجمهورية ، وفي عام ١٩٧٩ تنازل عنها للرئيس صدام حسين الذى تعرض العراق فى عهده لهزات شديدة انتهت بالإحتلال الأمريكى والإنجليزى له.

الحرب العراقية الايرانية :

وبعد قيام الثورة في إيران ، بدأت النوايا الاستفزازية ضد العراق تتضح في تصريحات القادة الايرانيين ، فتعرضت المصالح العراقية في ايران لاعمال عنف واعتداء ، كما أخذت ايران في انتهاك روابط حسن الجوار مع العراق فبدأت تتدخل في شئونه عن طريق تشكيل امتدادات تنظيمة لما يسمي بحزب الدعوة الذي يقوم بمساندة الحركات المناهضة ضد العراق ، وإلي جانب ذلك تعرضت حدود العراق الشرقية ومجاله الجوي إلي العديد من التجاوزات التي

(١) أحمد فوزي : ثورة ١٤ رمضان ، القاهرة ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، ١٩٦٣ ، ص ٢٧ . ٢٨.

شملت قيام الطيران العسكري الايراني باختراق حرمة الاجواء العراقية وقصف المخافر ، والاراضي والقري الحدودية ، ومهاجمة دوريات الشرطة وحرس الحدود داخل الاراضي العراقية ، وكذلك انتهاك حرمة المياه الاقليمية العراقية والاعتداء عليها .

ونتيجة لذلك اندلعت نيران الحرب بين العراق وايران ثم دخلت هذه الحرب مرحلة خطيرة من التصعيد الشامل لحرب الناقلات وضرب الاهداف الاقتصادية والصناعية للعراق فقد واصلت ايران ضرب الناقلات في المياه الدولية بالخليج ، وقصف المدن والمراكز السكانية العراقية خاصة مدينة البصرة.

وفي نفس الوقت قامت الطائرات العراقية بغارتها علي العمق الايراني والاهداف البحرية الايرانية واستمرت الحرب بين الدولتين المسلمتين تحصد الأرواح وتأكل الثمار وخطط التنمية والثروات وكادت تتسع دائرتها لتشمل دولا أخري في المنطقة .

ونظرا لخطورة الحرب علي الأمن والسلام الدوليين والخسائر المادية والبشرية التي تعرض لها البلدان في أطول حرب وقعت وأكثرها شراسة وفداحة وبشاعة من حيث خسائرها البشرية والمادية بدأ المجتمع الدولي يحاول وضع حد فوري للنزاع فاصدر مجلس الأمن الدولي قراره رقم (٥٩٨) والذي يقضي بوقف اطلاق النار بين البلدين المتحاربين وانسحاب كافة القوات إلي الحدود المعترف بها دوليا وارسال فريق من مراقبي الأمم المتحدة لتنفيذ وقف اطلاق النار ، وتأكيده والاشراف عليه ، وأن يتم اطلاق سراح اسري الحرب، واعادتهم إلي بلادهم وفقا لاتفاقية جنيف الثالثة لسنة ١٩٤٩ م.

وبعد صدور القرار بات من الواضح أن هناك ارادة دولية تحبذ وقف اطلاق النار بين البلدين المتحاربين وقد تمسك العراق بتنفيذ القرار ، ورحب

بتنفيذه في حين طالبت طهران بتحميل العراق مسئولية تفجير النزاع ، وأصرت علي تحديد الطرف البادي بالحرب ، وفرض العقوبات الصارمة عليه قبل وقف اطلاق النار ، واستمرت الحرب بين البلدين ولكن اصرار المجتمع الدولي علي ايقاف الحرب ونتيجة للمقاطعة التجارية والعسكرية التي فرضتها الولايات المتحدة والدول الأوروبية علي ايران أجبرت ايران في نهاية الأمر علي وقف اطلاق النار ، والدخول في المفاوضات تحت اشراف الأمم المتحدة بجنيف .

وقد استحوذت مسألة السلام بين العراق وايران ، وسبل الانتقال من حالة وقف اطلاق النار إلي حالة السلام اهتمام المسئولين في العديد من الدول وعلي كل حال فإن هذه الحرب قد أدت إلي تمزيق الصف الاسلامي في وقت كان في اشد الحاجة فيه إلي الوحدة والترابط مما أتاح للقوي الخارجية العمل علي استغلال هذا الصراع للاخلال بموازين العلاقات في العالم الاسلامي ، ومما جعل اسرائيل تنتهز فرصة اشتعال هذه الحرب ، وتقوم بضرب المفاعل النووي العراقي علي أطراف بغداد في يونيو من عام ١٩٨١ هذا إلي جانب قيامها بتزويد ايران بالأسلحة والمعدات الحربية لضرب العراق ، وفي الوقت الذي كان ينتظر فيه العالم العربي الدعم والمساندة من العراق بعد الإنتهاء من حربه مع ايران قام الرئيس العراقي بغزو الكويت في الثاني من أغسطس مما أدي إلي تفتيت شمل العالم العربي واهتزازه أمنيا وأقتصاديا واجتماعيا وانتهي الأمر باصدار مجلس الأمن لقراراته بشأن انسحاب العراق من الكويت ورفض العراق لهذه القرارات وقيام الحرب بين قوات التحالف وقوات صدام حسين التي انتهت بهزيمة الجيش العراقي واعادة السيادة إلي الكويت ويا ليت الأمر توقف عند ذلك فقد قامت القوات الامريكية تساندها بريطانيا والدول المتحالفة بغزو العراق مما وضع المنطقة العربية بأكملها في منعطف خطير .

٢- سورية من الإحتلال الى ما بعد الاستقلال

اتفق الحلفاء قبيل الحرب العالمية الأولي وخلالها علي فرض سيطرتهم علي أملاك الدولة العثمانية ومنذ أن، قامت حكومة الأمير فيصل في دمشق عام ١٩١٨ والسوريون يناضلون من أجل توحيد سورية (لبنان وشرق الاردن وفلسطين) وقد بعث فيصل بشكري الأيوبي حاكما علي لبنان والسواحل ، قبل مجيئ القوات الفرنسية فرفع الاعلام العربية على مقر الحكومة هناك ولكن بمجيء القوات الفرنسية بقيادة الجنرال (غورو) تغيرت الأمور فأرغم الايوبي علي والعودة إلي دمشق حيث تمكن الفرنسيون من احتلال هذا القسم من بلاد الشام ومن ثم نشب صراع بين رجال الحركة الوطنية العربية وفرنسا التي كانت تري أن جميع بلاد الشام في نطاق نفوذها الإستعمارى طبقا لاتفاقية سايكس بيكو كان من نتائجه تمرد سوريا علي الاستعمار الفر نسي واعلان استقلال سوريا التام بحدودها الطبيعية في عام ١٩٢٠ تحت رئاسة الأمير فيصل وتقاربت الاحزاب السورية من بعض وألفت اللجنة الوطنية العليا وعن تفاصيل تنصيب الأمير فيصل ملكا تذكر جريدة الاهرام انه أثناء حفل المبايعة قدم بطريرك الروم الأرثوذكس باسمه وباسم الرؤساء الدينيين صكاً للامير نصه باسم الله لما كان قد وقع اختيار الأمة السورية علي تمليك سمو الأمير فيصل بن جلالة الملك حسين علي سوريا بحدودها الطبيعية حضرنا اليوم في دائرة بكوية دمشق العاصمة لتأدية فروض المبايعة فبالاصالة والنيابة تقرر مراعاة الشرائط السبعة التي ارتبطنا بها مع سمو الأمير وهي : إطاعة الله - احترام الأديان - الحكم شوري علي مقتضي القوانين والنظامات التي تسن لذلك ، المساواة في الحقوق ، توطيد الأمن ، تعميم المعارف، اسناد الوظائف إلي الأكفاء (١)، وعلي الرغم من ذلك فقد وجه القائد الفرنسي غورو انذارا الى الملك فيصل كان أهم شروطه :

---

(١) الاهرام عدد ١٣٠٧٧ في ١٧ مارس ١٩٢٠.

أ- قبول الانتداب الفرنسي

ب- الغاء التجنيد الاجباري وتسريح المجندين

جـ- معاقبة اعداء فرنسا [1]

ولما أثار خبر هذا الانذار الكثير من التساؤلات والمخاوف في جميع المحافل الرسمية والشعبية أرسل الجنرال غورو منشورا إلي أهالي سورية يذكرهم فيه أن فرنسا لم ترغب في استعمار سوريا بل قبلت الانتداب الذي عهد به إليها مؤتمر الصلح ، وأنها ستحترم الحريات علي اختلاف أنواعها ، فقد رأت الحكومة السورية ضرورة الاستنجاد بضمير العالم المتمدن ، وطلبت احالة القضية إلي التحكيم وبعد أن انتهت المدة المحددة للانذار زحف القائد الفرنسي غورو علي دمشق ، فواجهه السوريون في جهة (ميسلون) ودارات بين الفريقين معركة غير متكافئة استشهد فيها كثيرون من أحرار السوريين ومنهم يوسف العظمة وزير الحربية حيث وقف في الصف الأول من المحاربين يقاتل بمسدسه حتى قتل وانتهي الأمر بدخول الفرنسيين دمشق ، واسقاط الحكومة القائمة ، هناك ثم احتلال حلب وحمص وحماة والاستيلاء علي سورية كلها بقوة السلاح ، واتبع الفرنسيون مع السوريين سياسة الارهاب من ناحية والخداع من ناحية أخري ، فألغت فرنسا الحكم الوطني وقامت بتجزئة سورية إلي خمس دول هي دولة دمشق ، ودولة لبنان ، ودولة حلب وتشمل الاسكندرونة ودولة العلويين ، ودولة جبل الدورز.

ومع أن فرنسا قد توهمت بأن ضربة ميسلون قد قضت علي المقاومة العربية قضاء مبرما ولم يخطر ببالها أن هذه المقاومة ستزداد بعد ميسلون إلي أن تجبر فرنسا علي الرحيل من سورية فقد قام الشعب السوري بثورته الكبري في عام ١٩٢٥ تحت شعار وحدة سورية تحت السيادة العربية الخالصة .

---

(١) خلدون ساطع الحصري : يوم ميسلون ، صفحة من تاريخ العرب الحديث ، بيروت ، مكتبة الكشاف ، ١٩٤٥ ، ص ١٠٤.

ولما وجدت فرنسا أن سياسة البطش والارهاب لم تؤد غرضها ، وأن سياستها الاستعمارية التي لا تؤمن بفكرة اشتراك الشعوب الصغيرة في حكم نفسها لم تحقق جدواها أصدرت دساتير لأقاليم سورية ، وأقامت الجمهورية السورية الأولي برئاسة محمد علي العابد في عام ١٩٣٣ وأملت عليها معاهدة قيدت فيها سورية بقيود التبعية لها (١) ولكن الشعب السوري ثابر في نضاله إلي أن تفجرت ثورة دمشق في عام ١٩٣٥ مما دفع فرنسا إلي مفاوضة قادة هذه الحركة وأسفر ذلك عن معاهدة اعترفت فيها فرنسا باستقلال سورية وسيادتها ووحدتها مع بعض التحفظات(٢) وأجريت الانتخابات وانتخب المجلس النيابي الجديد في أوائل عام ١٩٣٦ هاشم الاتاسي رئيس الكتلة الوطنية رئيسا للجمهورية وتألفت حكومة من زعماء الكتلة ، غير أن الفرنسيين أخذوا يعرقلون نشاط هذه الحكومة ، والجدير بالذكر أن فرنسا اتبعت طوال مدة اقامتها في بلاد الشام سياسة التفرقة والتقسيم لكي تسود سياستها فقسمت البلاد اقساما مصطنعة وعملت جهدها علي تنمية الشعور المحلي وأيدت الانقسامات الدينية والطائفية والمذهبية فقسمت البلاد إلي أربعة أقسام هي لبنان الكبير ، ودمشق وحلب وأرض العلويين ثم ضمت حلب إلي دمشق وكونت منهما سوريا وإلي جانب ذلك فقد أكدت فرنسا لتركيا تعاطفها في ضم الاسكندرونة إليها وأنها ستمنح لواء الاسكندرونة الحكم الذاتي .

وقد قوبلت هذه التصرفات باستياء شديد من الرأي العام السوري والحكومة السورية ومع ذلك عقدت فرنسا اتفاقية مع تركيا في الخامس من يوليو ١٩٣٨ نصت علي وجود قوات تركية وفرنسية في لواء الاسكندرونة وفي أعقاب ذلك اجري الفرنسيون والاتراك الانتخابات للمجلس التمثيلي في اللواء ،

---

(١) ابو خلدون ساطع الحصري : المرجع السابق ، ص ١٠٥.

(٢) دروزة : مرجع سابق ، ص ٦٦٨.

واستطاعت العناصر التركية أن تسيطر علي برلمان الاسكندرونة وانتهي الأمر بتنازل فرنسا عن لواء الاسكندرونة لتركيا .

وكانت فرصة السوريين قيام الحرب الثانية وانهيار قوة فرنسا أمام قوة الألمان وتبع انهيار فرنسا الحربي والسياسي تضعضع نفوذها في حوض البحر المتوسط وقامت حكومة فيشي وتبعت سوريا ولبنان هذه الحكومة في بادئ الأمر ففتحت أبواب سوريا ولبنان أمام دول المحور من الإيطاليين والألمان بل وللطائرات والدعاية الألمانية وتم التفريج بعض الشيء عن سوريا ولكن القوات الانجليزية بقيادة الجنرال ويلسون وقوات فرنسا الحرة بقيادة كاترو قد تمكنت من طرد نفوذ المحور من سوريا ولبنان وأعلن كاترو ممثل فرنسا الحرة أن بلاده تنوي انهاء الانتداب واستقلال سوريا ولبنان [1] وطالب السوريون بالاستقلال وحاولت فرنسا حمل رجال الحركة الوطنية علي عقد معاهدة يكون لفرنسا بمقتضاها مركز ممتاز فى هذه البلاد ولكنهم رفضوا أن يقيدوا بلادهم بقيود جديدة ، فأقام الفرنسيون جمهورية بقرار منهم برئاسة الشيخ تاج الدين الحسيني الذى أبدي استعداده للتعاون معهم فخولوا حكومته سلطات واسعة لمقاومة الوطنيين ومناوأتهم ومع ذلك فقد وقف رجال الحركة الوطنية يناوئون فرنسا ويطالبون انجلترا بالتداخل .

وبوفاة الشيخ تاج أجريت انتخابات حرة فاز فيها الوطنيون وانتخب شكري القوتلي رئيسا للجمهورية ، وقد حاول الفرنسيون عقد معاهدة مع الحكومة السورية تضمن بها مركزا عسكريا واقتصاديا وثقافيا ممتازا لكنها رفضت مما ضايق فرنسا فأقدمت علي قصف دمشق بالمدافع وإعمال يد الهدم والتدمير فيها ولكن بريطانيا أجبرت فرنسا علي التوقف ثم تقدمت سورية بشكوي ضد فرنسا إلي مجلس الأمن مطالبة بجلاء الجيوش الأجنبية عن بلادها

---

(١) دروزة : السابق ، ص ٦٦٩.

استنادا إلي ميثاق هيئة الأمم المتحدة وانتهي الامر بجلاء القوات الأجنبية عن سورية في عام ١٩٤٦ م بعد أن أعلن مجلس الأمن في ٤ مارس ١٩٤٦ أن الوفدين العسكريين البريطاني والفرنسي المجتمعين في باريس قد وافقا علي خطة تقتضي بسحب القوات البريطانية والفرنسية من سوريا في وقت واحد علي أن يبدأ الجلاء في ١١ مارس وينتهي في ٣٠ أبريل (١).

وفي عام ١٩٤٧ جدد المجلس النيابي في سوريا مدة رئاسة شكري القوتلي ولكن حسني زعيم رئيس أركان حرب الجيش السوري قام بحركة انقلابية في عام ١٩٤٩م أطاح فيها بشكري القوتلي وفرض نفسه رئيسا للجمهورية وبعد ثلاثة أشهر من هذا الانقلاب قام سامي الحناوي أحد كبار الضباط بالجيش السوري بانقلاب ثان واعتقل حسني الزعيم وأعدمه وقامت أثر ذلك حكومة جديدة برئاسة هاشم الاتاسي التي استجابت لحركة ترمي إلي الاتحاد بين سوريا والعراق فحركت الاصابع أديب الشيشكلى أحد ضباط الجيش السوري فقام بانقلاب ثالث في أخر السنة واعتقل سامي الحناوي وأحبط حركته وفي تلك الاثناء جري انتخاب مجلس تأسيسي وضع دستورا جديدا ثم انقلب إلي مجلس نيابي وانتخب هاشم الاتاسي لرئاسة الجمهورية في أوائل عام ١٩٥٠ وحاول أديب الشيشكلي أن يظل الموجه الأول للحكومة فاختلف مع أعضائها وأقدم علي اعتقال أعضاء الوزارة وبعض أعضاء المجلس النيابي فى عام ١٩٥١ مما اضطر هاشم الاتاسي إلي ترك منصبه وحينئذ قامت حكومة عسكرية برئاسة فوزي سلو ثم خطا الشيشكلي خطوة أخري في عام ١٩٥٣ م حيث وضع دستورا جديدا وعرضه علي الشعب للاستفتاء كما طلب من الشعب انتخاب رئيس للجمهورية ولم يترشح غيره حيث أرهب الناس بسيطرته

---

(١) سيتون وليمز المرجع السابق ، ص ١٢٣.

العسكرية واجراءاته البوليسية وهكذا فرض نفسه رئيسا للجمهورية ثم أجري انتخابات نيابية فاز فيها انصاره بالأغلبية (١) .

وفي عام ١٩٥٤ م قام ضباط الجيش السوري الذين استاءوا من سيطرة الشيشكلي بحركة مناوئة اشترك فيها السياسيون والمدنيون مما أضطر الشيشكلي إلي الاستقالة ومغادرة سوريا فعاد الحكم النيابي في نطاق الدستور وعاد هاشم الاتاسي لرئاسة الجمهورية ولما انتهت مدته أجريت انتخابات نيابية جديدة انتخب علي أثرها شكري القوتلي رئاسة الجمهورية في عام ١٩٥٥ ، ولما حاولت أمريكا وبريطانيا التأثير علي سوريا لدخول حلف بغداد وقفت سوريا بقيادة شكري القوتلي ضد هذا المخطط ووقفت مصر بجانبها .

وفي اعقاب ذلك جري العديد من الاتصالات والمباحثات مع مصر انتهت بتوقيع اتفاقية الوحدة في أول فبراير ١٩٥٨ وأعلن عن قيام الجمهورية العربية المتحدة برئاسة جمال عبد الناصر وسميت سورية بالاقليم الشمالي ، ومصر بالأقليم الجنوبي ، ولكن هذه الوحدة لم تستمر طويلا وقد استطاعت المؤامرات الاستعمارية الاطاحة بهذه الوحدة علي أثر انقلاب عسكري في ٢٨ سبتمبر ١٩٦١ فأعلن عن انفصال سورية عن مصر ، وقامت حكومة دستورية برئاسة الدكتور معروف الدواليبي ، كما انتخب الدكتور ناظم القدسي رئيسا للجمهورية فى مارس ١٩٦٢م اطاح انقلاب عسكري بالحكومة وتولي الجيش مقاليد السلطة واستمرت الحركات الانفصالية بسورية من قيام حزب البعث باستلام السلطة .

وفي يونيو ١٩٦٧م واجهت القيادة السورية الهزيمة في معركتها مع اسرائيل، وضاعت الجولان وفي ١٣ يونيو ١٩٧٠ قامت حركة في سورية بقيادة الفريق حافظ الأسد وزير الدفاع وقائد السلاح الجوي ونجح في الاستيلاء علي السلطة

---

(١) دروزة ص ٦٧١ . ٦٧٢.

واختير في ٢٢ فبراير ١٩٧١ رئيسا للجمهورية ومن أبرز مظاهر السياسية السورية في عهده توثيق العلاقات مع بعض الدول العربية ، كما انضمت سورية إلي ميثاق طرابلس الذى يضم اتحادا رباعيا من سورية ومصر وليبيا والسودان .

وقد شاركت سورية في حرب رمضان ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م هذا إلي جانب مواقفها من القضية اللبنانية وصمودها أمام الاطماع الصهيونية .

٣ ـ لبنان في التاريخ الحديث والمعاصر :

بعد أن ارسل الأمير فيصل بن الحسين شكري الايوبي لاعلان توطيد السيادة العربية علي لبنان سارعت فرنسا بارسال قواتها واحتلت لبنان وبعض المناطق المتاخمة له تنيفذا لاتفاقات سايكس بيكو ، وبذلك بسطت فرنسا سيادتها علي هذه المنطقة بدلا من السيادة العثمانية .

لقد كانت فرنسا ترنو بإصرها منذ فترة نحو نصارى لبنان وخاصة الموارنة منهم وتوجه اهتماماتها نحوهم وتعقد معهم أواصر الصداقة وتنشيء لهم المدارس والمعاهد لتعليمهم فيها تاريخها ولغتها في محاولة منها لابعادهم عن العروبة والاسلام فنشات مع الزمن روابط وعواطف متبادلة بينهما واعتبر الموارنة والكاثوليك اللبنانيون أن فرنسا هي الأم الحنون لهم ورغبوا أن يكونوا ضمن حمايتها الفعلية ، كما أن فرنسا رأت فيهم الأبناء الأبرار ونعتهم ساستها وكتابها بفرنسي الشرق ، وقد أكد هذه الروابط الحوادث الدموية الطائفية التي بلغت ذروتها عام ١٨٦٠ حيث تدخلت فرنسا وأرسلت حملة عسكرية إلي البلاد باسم حماية أرواح النصاري .

وقد حكمت فرنسا لبنان والسواحل حكما عسكريا في السنتين الأولتين من قدومها وعمدت إلي إثارة النعرات الطائفية الدينية في سكان لبنان والسواحل وأوجدت تيارا من التنافس والتناظر بينهما وبعد انهيار الحكم الفيصلي ووقوع

سورية بين مخالب الاستعمار الفرنسي وسع الفرنسيون حدود لبنان فصار يسمى لبنان الكبير ثم عينوا أحد زعماء الموارنة وهو حبيب السعد حاكما عاما فاصبحت رئاسة أحد الموارنة للبنان تقليدا مستمرا كما أعطوا المناصب الحكومية لأنصارهم .

لقد كان حبيب السعد أول حاكم عام تحت السيطرة الفرنسية للبنان وممن قاموا علي رأس الجمهوريات اللبنانية بين السنوات من ١٩٣٠ إلي ١٩٤٣ "شارل دياس" و"أميل اده" و"الفرد نقاش" .

وفي عام ١٩٤٣ سمحت فرنسا بإجراء انتخابات نيابية حرة في سورية تنفيذا للوعد الذي قطعته بريطانيا أثناء زحف قواتهم علي سوريا ولبنان بالاعتراف باستقلال الاقليمين وقد فاز في هذه الانتخابات بعض النواب المسلمين والنصاري الذين كانوا ناقمين علي فرنسا وفي مقدمة هؤلاء رياض الصلح والشيخ بشارة الخوري وقد انتخب المجلس النيابي الشيخ بشارة الخوري رئيسا للجمهورية واختار رياض الصلح لرئاسة الوزارة فقام بذلك عهد جديد كان فاتحة خير للحركة العربية في لبنان .

وقد كان من أهم أعمال هذه الحكومة الجديدة ازالة ما يتناقض مع استقلال لبنان وسيادته وتعديل الدستور وتوطيد بنيان الأمة والقضاء علي فكرة الطائفية البغيضة ، وقررت أن لبنان عربي يمت إلي العروبة بأوثق المظاهر والصفات وأوجبت استعمال اللغة العربية وحدها في مصالح الحكومة مما أذهل الفرنسيين فأذاع مندوبهم تحذيرا بعدم تعديل الدستور ولكن الوزارة لم تعبأ بذلك وقدمت التعديل إلي المجلس فأقره بمل يشبه الإجماع فما كان من المندوب الفرنسي إلا أن أرسل قوات عسكرية ليلا إلي منازل رئيس الوزارء وعدد من الوزراء والنواب واعتقلهم وأصدر أمرا بإقالتهم وبحل مجلس النواب وتعيين

أميل أده رئيسا للدولة [1] ، ولم يكد يعرف اهالي لبنان بما حدث حتى انفجر الهياج فقامت المظاهرات واعلن الإضراب في بيروت وسائر لبنان ووقعت الاشتباكات بين الاهالي والقوات الفرنسية واجتمع فريق من النواب مع الوزراء الذين لم يعتقلوا وقرروا تأليف حكومة طوارئ وقتية كما أعلن رجال الدين من المسلمين والنصاري تضامنهم لموقف الشعب ، وهكذا ظهر لبنان بوجهه العربي الصحيح مما كان لذلك أثره في البلاد العربية فأعلن الإضراب فيها احتجاجا علي فرنسا وتضامنا مع شعب لبنان كما استنكر الانجليز موقف فرنسا فاحتجت الحكومة الانجليزية عليه مما دفع فرنسا إلي اطلاق سراح المعتقلين دعوة رئيس الجمهوريو والمجلس النيابي وهكذا خرج لبنان من محنته منتصرا تتهيأ له أسباب توطيد الاستقلال والسيادة حيث اعترفت به الدول كما غدا عضوا في الجامعة العربية وعضوا في هيئة الأمم وانتهي الأمر باستقلاله عام ١٩٤٦.

وفي عام ١٩٥١م انتهت مدة رئيس الجمهورية الشيخ بشارة الخوري ، فجددها المجلس النيابي ولكن ذلك لم يرض المستعمرين فحركوا صنائعهم ضده حتى اضطروا إلي الانسحاب في سنة ١٩٥٢م فإنتخب المجلس كميل شمعون مكان بشارة الخوري وقد سار علي خطة معاكسة واندمج في ركب المستعمرين وقبل مبدأ ايزنهاور واصبح لبنان وكرا للمؤامرات والدعاية المسمومة ضد مصر وسورية ولما قربت نهاية مدته أراد أن يجددها واستعمل في سبيل ذلك مختلف الوسائل الأغرائية والارهابية ، فثارت العناصر القومية ضده ووقفت تناوئه وفي عام ١٩٥٨ م حدثت ثورة دموية عمت انحاء لبنان وامتدت نحو أربعة أشهر بهدف الإطاحة بشمعون وانتهاء سياسة التحالف مع المعسكر الاستعماري ولكن شمعون حاول قلب هذه الثورة إلي فتنة طائفية بين المسلمين والنصاري بدعوي أنه حامي النصاري والموارنة وكيان لبنان من المسلمين

---

[1] دروزة : المرجع السابق ، ص ٦٧٩.

والعروبة ولكن بفضل تضامن عدد من زعماء النصاري مع المسلمين اخفق شمعون في محاولته .

ونتيجة لقيام الثورة في العراق عام ١٩٥٨ م وخشية من انتقال عدواها إلي لبنان طلب كميل شمعون معونة أمريكا العسكرية استنادا إلي نصوص مبدأ ايزنهاور الذي خول الكونجرس بمقتضاه لرئيس الجمهورية حق ارسال القوات المسلحة الامريكية للدفاع عن أي من الحكومات الصديقة في الشرق الأوسط التي تواجه تهديدا مسلحا من قبل أي دولة أخري تدور في فلك الشيوعية العالمية (١) ، كما طالب مجلس الأمن بالتدخل ووصل الاسطول الامريكي إلي لبنان وتدفق الجنود منه أفواجا ومع أن الأحداث قد أثبتت استعداد الولايات المتحدة لأن تمد يد العون لاصدقائها ، فقد جاءت نتائجها معاكسة لكل التوقعات ، فقد تسلم دفة القيادة في لبنان بعد انتهاء الأحداث فؤاد شهاب المؤيد لعبد الناصر وبدأ اللبنانيون يتطلعون إلي مصر ، مما أدي إلي جلاء الأمريكيين وخروج لبنان من هذا المنعطف الخطر .

وسارت الأحوال في لبنان نحو الاستقرار الذي تشوبه بعض التقلبات أحيانا ، ثم تبدلت أحواله بعد الهزيمة العربية في عام ١٩٦٧ وقيام الفدائيين الفلسطينيين بأعمالهم ضد أسرائيل من الاراضي اللبنانية ، وقيام اسرائيل بغارتها علي مطار بيروت في ٣١ ديسمبر ١٩٦٨ وباعمال انتقامية علي مناطق الحدود ، مما أدي إلي تزايد الانقسام بين اللبنانيين واحتكاك الجيش اللبناني بالفدائيين وعلي الرغم من أن التواجد الفلسطيني علي أرض لبنان كان طبيعيا وشرعيا خصوصا وأن مجلس النواب اللبناني كان قد وافق عليه بأغلبية ساحقة ، فقد حدثت العديد من الخلافات حول الوضع القانوني للفلسطينيين وانتهي الأمر بعقد اتفاق القاهرة بين الحكومة اللبنانية ومنظمة التحرير الفلسطينية في ابريل

---

(١) مايلز كوبلاند : لعبة الأمم ، ترجمة فؤاد خير ، بيروت ، ١٩٧٠ ، ص ٢٤٤.

من عام ١٩٦٩ والذي تحدد فيه الوضع القانوني للمنظمات الفلسطينية في لبنان وحقوق وواجبات السلطة اللبنانية تجاهها وفيما يلي أهم ما تضمنته تلك الاتفاقية:

١ ـ تسهيل العمل الفدائي الفلسطيني وتنظيم الدخول والخروج والتجول للفدائيين وإيجاد انضباط وتنسيق وتعاون مشترك بين الثورة الفلسطينية والجيش اللبناني وقيام قيادة الكفاح المسلح بضبط تصرفات افرادها وعدم تدخلهم في شئون لبنان كما تمارس السلطات اللبنانية مدنية وعسكرية صلاحيتها في جميع المناطق اللبنانية في كل الظروف .

٢ ـ بالنسبة للوجود الفلسطيني : حق العمل والاقامة والتنقل للفلسطينيين في لبنان ووجود نقاط للكفاح الفلسطيني المسلح داخل المخيمات تكون مهمتها تنظيم وجود الأسلحة وتحديدها ، والسماح للفلسطينيين الموجودين في لبنان بالمشاركة في الثورة الفلسطينية .

تلك هي اتفاقية القاهرة التي تعتبر نقطة انعطاف هامة في تاريخ العلاقات اللبنانية الفلسطينية ومع ذلك فإن الموارنة لم يكن في تفكيرهم ومخاوفهم وأحاديثهم غير الفلسطينيين ووجودهم المسلح في لبنان والخطر اليساري المنتشر في القواعد الفلسطينية وهم مصممون علي عدم السماح للوجود الفلسطيني المسلح في مناطقهم .

واستمرت الأمور في التفاقم حتى قامت الحرب الأهلية في لبنان ١٩٧٥ ، وبدأت القوي اليسارية بقيادة كمال جنبلاط في تركيز مدافعها الثقيلة علي القري المسيحية في الجبل ، ونتيجة لذلك دخلت القوات السورية الاراضي اللبنانية في يونيو ١٩٧٦ بحجة أن الاتجاه اليساري المتطرف سوف يؤدي إلي تقسيم لبنان وتوريط المقاومة العسكرية في المخطط التقسيمي الذي كان اليمينيون المسيحيون هم المتهمون بتنفيذه ثم ازدادت الأمور استعارا نتيجة لاجتياح اسرائيل للاراضي اللبنانية في الخامس من يونيو ١٩٨٢ تحت شعار

السلام الجليل [1]، واعلانها أن جيش الدفاع الاسرائيلي سيبقي في لبنان إلي أن تنسحب القوات السورية منه وتتخذ التدابير التي تضمن الأمن لسكان الجليل والتي تشمل اخراج المقاتلين الفلسطينيين من لبنان .

وخلال ذلك حاولت اسرائيل القضاء علي قوات منظمة التحرير الفلسطينية وفرض الأمر الواقع علي لبنان وعقد معاهدة سلام معه ولكن اغتيال بشير الجميل قد أحبط مخططاتها كما أن تعاظم المقاومة اللبنانية والضغط الدولي قد أجبرها علي الانسحاب من لبنان ما عدا اجزاء من الجنوب وفي هذه الأوقات العصيبة لم تتخل الأمة العربية عن لبنان يوما واحدا فقد حاولت كلها مجتمعة أو منفردة أن تسهم في حل الأزمة وفي هذا الاطار اعلن مجلس التعاون الخليجي أن جهوده منصبة باتجاه هدف أساسي هو انسحاب اسرائيل من لبنان .

يضاف إلي ذلك طرحت قضية أن لبنان يحتاج قبل كل شيء إلي حوار بين اللبنانيين تذوب فيه جبال الجليد العالية ويتلاشي فيه هدير المدافع وتختفي منه خطوط التماس وأنه ينبغي أن يدفع هذا الحوار حول مائدة المفاوضات لا تظللها سوي راية لبنان الموحدة .

وعلي الرغم من اختلاف وجهات نظر الفرقاء حول قضية الرئاسة والمشروعية فأن الرغبة لدي كل منهم في الحل كانت تتجلي من خلال اتفاقهم علي أهمية الموقف العربي كسبيل لحل الأزمة اللبنانية كما يتفقون علي أهمية عقد مؤتمر قمة عربي تطرح فيه القضية اللبنانية .

وقبيل انتهاء ولاية الرئيس أمين الجميل في الثالث والعشرين من سبتمبر ١٩٨٨م أعلن عن تعيين العماد ميشيل عون رئيسا للحكومة العسكرية في لبنان ،

---

(١) هي المنطقة الشمالية العليا من فلسطين المحتلة ، والتي كانت مستهدفة من الفدائيين الفلسطينيين في الجنوب اللبناني .

كما لم يتمكن مجلس النواب اللبناني من الاجتماع لإختيار رئيس جديد للجمهورية يمكنه تحمل المسئولية ، أضافة إلي ذلك بدأت تواجه لبنان مشكلة جديدة وهى كون رئاسة مجلس النواب تنتهي في ١٥ اكتوبر من نفس العام ، وأنه في ظل الانقسام الحالي في الأوساط النيابية يصعب الاتفاق علي اعادة انتخاب الرئيس أو اكتمال نصاب الجلسة النيابية انتخاب رئيس جديد للمجلس ، وهذا بدوره ينطوي علي إحدث فراغ في رئاسة البرلمان .

وهكذا فلأول مرة منذ استقلال لبنان في عام ١٩٤٣ م تعيش لبنان بلا رئيس للجمهورية وللمرة الأولى يعيش في ظل حكومتين تنازعان السلطة والشرعية ولأول مرة يجتاح الشلل مجلس النواب فيعجز عن الاجتماع لانتخاب رئيسه .

ونتيجة لذلك تساقطت صمامات الأمان وظهرت محاذير الدخول في مرحلة السقوط ولعبة التقسيم خصوصا بعد أن انكسرت الوحدة ، وأصبح الجيش اللبناني يعيش في ظل قيادتين تتنازعان السلطة والشرعية ، وأصبحت الليرة اللبنانية رمزا للانكفاء نحو العوز والفقر بعد أن كانت رمزا للبحبوحة والرخاء كما أصبح لبنان يسير نحو المجهول ثم قيض الله الطريق نحو الخلاص من خلال مؤتمر القمة العربي الذي انعقد في الدار البيضاء في مارس ١٩٨٩ م والذي انبثقت عنه اللجنة العربية العليا المؤلفة من الملك فهد بن عبد العزيز والملك الحسن الثاني والرئيس الشاذلي بن جديد فبذلت اللجنة جهودا مضنية علي مختلف الأصعدة العربية والاقليمية والدولية وطرحت أبعاد القضية في أفق عربي شامل ساعية وراء جميع القنوات التي لها علاقة بالحرب ، رافضة مبدأ الفشل حتي تسني لها أن تضع عبر وزراء خارجيتها الثلاثة الأمير (سعود الفيصل السعودية) والسيد أحمد الغزالي (الجزائر) والسيد عبد العزيز الفلالي

(المغرب) الذين كرسوا جهودهم للقضية اللبنانية حتي تسني لهم بالتشاور مع الجهات المعنية وضع وثيقة الوفاق الوطني (١).

وقد واصل النواب اللبنانيون الاثنان والستون اجتماعاتهم في الطائف في محاولة للتوفيق بين وجهات نظرهم من أجل صياغة وثيقة مشتركة حول موضوع الاصلاحات الجديدة وايجاد صياغة جديدة للنظام السياسي المعمول به في لبنان منذ عام ١٩٤٣ م بهدف اعادة التوازن بين السلطات وتحديد العلاقات المستقبلية بين لبنان وسوريا وتنشيط المؤسسات الدستورية اللبنانية من جهة ووضع حد لمعاناة طويلة ومريرة ترهق الشعب اللبناني وتهدد مستقبله وانتهي الأمر بتوقيع اتفاق الطائف .

وقد نص الاتفاق علي اصلاحات دستورية وسياسية وتنظيمية تناولت شئون رئاسة الجمهورية وشئون رئاسة مجلس الوزراء ، والمجلس النيابي ، كما تناولت حل جميع الميلشيات وتسليم أسلحتها للدولة بحيث يجري التصديق دستوريا علي هذه الوثيقة في مجلس النواب اللبناني في مدة اقصاها الثلاثاء ١٩٨٩/١٠/٧ حيث يجري علي أثر ذلك انتخاب رئيس الجمهورية ويعقب ذلك العمل علي تأليف حكومة واحدة للبنان وهي حكومة الاتحاد الوطني التي ستعمل علي اعادة بناء جميع المؤسسات الدستورية والحكومية المعطلة منذ أكثر من أربعة عشر شهرا.

وقد ساد العواصم العربية والعالمية موجة من الارتياح بعد انتخاب "رينيه معوض" رئيسا للجمهورية اللبنانية وبداية عهد جديد للبنان وعدت ذلك خطوة ايجابية نحو اعادة بناء لبنان موحدا وبداية للطريق الذي سيقود لبنان إلي وضعه الطبيعي ليساهم في ممارسة سيادته علي جميع أراضيه بعد أن سئم اللبنانيون انباء العنف والقتال ولم يعترض علي ذلك سوي حكومة العسكريين

---

(١)اخبار العالم الاسلامي ، العدد ٤٤ ، ربيع الثاني ١٤١٠ هـ ، ١٣ نوفمبر ١٩٨٩ م .

برئاسة العماد ميشيل عون التي رفضت اتفاق الطائف كما رفضت أي اتصال مباشر مع الرئيس المنتخب وعلي الرغم من ذلك فقد بدأ الرئيس معوض اتصالاته لتشكيل حكومة الوفاق معلنا أن المصالحة تتسع للجميع ولا تستثني أحدا ومطالبا بمواكبة مسيرة الشرعية المصممة علي انهاء الدويلات وبسط سيادة القانون ، كما كلف الرئيس معوض الدكتور سليم الحص بتشكيل الحكومة الجديدة .

وفي يوم الاربعاء الموافق ١٤١٠/٤/٢٤ هـ نقلت أجهزة البرق نبأ اغتيال الرئيس رينيه معوض وبعد ثمان وأربعين ساعة من اغتيال الرئيس رينيه معوض انتخب البرلمانيون في جلسة عاجلة عقودها في فندق شتورا بارك في سهل البقاع النائب الياس الهراوي رئيسا للجمهورية بعد أن حصل على سبع وأربعين صوتا .

وقد دعا الهراوي الي انتهاج سياسة الانفتاح بين لبنان وسورية ونادي بمد يد الصداقة والصدق الى الجميع من أجل التعاون لانقاذ لبنان وكلف الدكتور سليم الحص بتشكيل حكومة وحدة وطنية وأكد أنه لا يسمح بوجود حكومتين في لبنان وطالب العماد عون باخلاء قصر الرئاسة في بعبدا .

وعلي الرغم من الاجماع العالمي علي مساندة الشرعية اللبنانية المتمثلة في الرئيس المنتخب الياس الهراوي فقد اعترض العماد عون علي ذلك الانتخاب ووصفه بأنه باطل وقام بتصعيد الموقف فقرر عدم اخلاء قصر بعبدا ، كما قام بتوسيع رقعة القوات الموالية له في بعض احياء بيروت الشرقية وذلك بنشر قوات جديدة في بعض هذه الاحياء ، في حين هدد الرئيس الهراوي باتخاذ خطوات عسكرية لدخول قصر بعبدا اذا فشلت السياسية في اخراج عون سلميا.

وانتهي الأمر بتمكن لبنان من اعادة هيبته والقضاء علي تمرد ميشيل عون وبسط سلطة الدولة في كامل الاراضي اللبنانية بعد قيام التحالف الدولي ضد صدام حسين وانضمام سورية إلي هذا التحالف .

وفي اعقاب ذلك نجحت القيادة اللبنانية في توجيه ضربة قاصمة للعماد عون عندما تحركت قواتها المدعومة بوحدات من الجيش السوري تجاه قصر الرئاسة في بعبدا في ١٣ من اكتوبر ١٩٩٠ وانتهي الأمر بالتجاء عون إلي السفارة الفرنسية واستسلام قواته وظهور المحاولات الجادة لازالة اثار الحرب التي امتدت ١٥ عاما من علي وجه لبنان وبداية مرحلة جديدة لاعادة السلام ووحدة لبنان وعودة بيروت عاصمة موحدة للبنان .

وقد كلل هذه المجهودات عقد المعاهدة السورية اللبنانية التي تنص علي التنسيق بين سورية ولبنان في مجال شئون السياسة الخارجية والأمن الداخلي، وظلت الأمور فى لبنان تتراوح بين الوفاق والخلاف خاصة بعد فشل الجهود الرامية لتخطى مشكلة المحكمة الدولية الخاصة بمحاكمة مرتكبى جريمة اغتيال رئيس الوزراء الأسبق رفيق الحريرى والتى أدت الى استقالة الحكومة واعلان رئيس الجمهورية ميشيال سليمان تشكيل حكومة لتصريف الأعمال.

٤- إمارة شرق الاردن (المملكة الاردنية الهاشمية) :

كانت منطقة شرق الأردن في العصر العثماني جزءا لا يتجزأ من بادية الشام ، وكانت تحكم عن طريق والي دمشق العثماني كصنجقية من الدرجة الثانية اطلق عليها صنجقية الكرك ، وكانت اجزاؤها الشرقية تمثل صحراء منبسطة تصل بين العراق وسوريا والحجاز .

ونظرا لأن الحكم العثماني للبلاد العربية عموما لم يهتم بإصلاح شئون البلاد وتأمين الأمن والاستقرار فيها فقد ظل هذا الاقليم بحكم توغله في

الصحراء بعيدا عن الحضارة ومتأخرا في شؤونه الاقتصادية والعمرانية والمالية ، وكان سكانه يخضعون لنظام قبلي يتولاه شيوخ القبائل ورؤساء العشائر ، ممن يتوارثون السيطرة جيلا بعد جيل ضمن مناطق نفوذهم ، وكانت القواعد العرفية تنظم العلاقات بين البدو وكان لهم قضاة يعرفون بقضاة العشائر واستمر سكان هذا الاقليم يعتمدون علي الزراعة في أمور معيشتهم ويعيشون حياة الكفاف وبحكم موقع هذه المنطقة الجغرافي كانت ممرا للقوافل بين سوريا والحجاز والعراق وفلسطين وغيرها من البلاد العربية ، وأهم ما شاهده هذا الاقليم من الاحداث في العصر العثماني إنشاء خط سكة حديد الحجاز من دمشق إلي المدينة المنورة مارا بعدد من القري الاردنية ، وبعد نشوب الحرب العالمية الأولي في عام ١٩١٤ ودخول الدولة العثمانية الحرب بجانب ألمانيا وحلفائها وما أعقب ذلك من قيام الثورة العربية الكبري التي تزعمها الشريف حسين بن علي ضد العثمانيين ، صارت الأردن ميدانا للعديد من المعارك التي دارت بين قوات الأمير فيصل والاتراك حيث دخلت القوات العربية هذه المنطقة وهي في طريقها إلي دمشق وخاضت بعض المعارك هناك، ونتيجة لانهزام العثمانيين في هذه الحرب انفصلت الاقاليم العربية عن الدول العثمانية واستمرت الاردن تدار من دمشق في ظل مملكة فيصل العربية ولكن ذلك لم يستمر طويلا خاصة وأن الدول المنتصرة في الحرب لم توافق علي اقامة دولة عربية واحدة تضم الاقاليم العربية التي كانت خاضعة للدولة العثمانية فدخلت الاردن ضمن منطقة النفوذ البريطاني بموجب معاهدة سايكس بيكو ، وعلي الرغم من أن أحدا لم يكن يتصور أن هذه المنطقة القاحلة التي تفتقر إلي الامكانات والموارد ستصبح دولة منفصلة في يوم من الأيام ، فقد رأت بريطانيا تكوين دولة في هذه المنطقة وإعطائها مكافأة للأسرة الهاشمية لوقوفها بجانب الحلفاء في الحرب فاعلنت في أغسطس ١٩٢٠ أنها ستجعل اقليم الاردن منطقة منفصلة عن نظام الحكم القائم في فلسطين بمساعدة بعض الاداريين الانجليز وادخاله رسميا تحت الاشراف

البريطاني وقد وافقت الدول المجتمعة في سان ريمو في ابريل ١٩٢٠م على جعل هذه المنطقة تحت النفوذ البريطانى[1] خلال ذلك قدم الأمير عبد الله بن الحسين من الحجاز إلي الاردن بحجة تكوين جيش لمحاربة الفرنسيين الذين أخرجوا أخاه (فيصل) من سورية ، وفي أثناء وجود الأمير عبد الله في عمان تلقي دعوة السير هربرت صموئيل المندوب السامي في فلسطين لزيارة القدس ومقابلة المستر تشرشل وزير المستعمرات وتم الاجتماع بين الأمير والوزير في ١٩٢١/٣/٢٩ وأسفر عن اتفاق تضمن ما يلي :

١ - تؤسس في شرق الاردن حكومة وطنية برئاسة الأمير عبد الله تقوم بريطانيا بمساعدتها ماديا علي أن تسترشد هذه الحكومة برأي مندوب سامي بريطاني يقيم في عمان ، ويحكم من وراء الستار [2] وأن تشكل مجالس محلية علي رأسها مستشارين انجليز .

٢ – يتعهد الأمير بالمحافظة علي حدود فلسطين وسوريا من كل اعتداء .

٣ – تنشيء بريطانيا قاعدتين جويتين في الاردن .

٤ – تتعهد بريطانيا بمنع اليهود من دخول إمارة الأردن، ونتيجة لذلك تشكلت أول حكومة فى الأردن فى الحادي عشر من ابريل ١٩٢١ واطلق عليها إمارة شرق الاردن .

وفي سبتمبر من عام ١٩٢٢م تمكنت بريطانيا من الحصول علي موافقة مجلس عصبة الأمم بإقرار صك الانتداب البريطاني علي إمارة شرق الأردن ، واعتبارها خارجة عن نظام الحكم في فلسطين وما يتصل به من إنشاء وطن

---

(١) جورج كيرك : موجز تاريخ الشرق الأوسط ، ترجمة عمر الاسكندري القاهرة ، دار الطباعة الحديثة ١٩٥٧ ص ٢٤٧.

(٢) نجلاء عز الدين : العالم العربي ، ترجمة محمد عوض ابراهيم وأخرون ، القاهرة ، دار احياء الكتب العربية ١٩٦٢ ص ٤٥٠.

قومي لليهود بموجب وعد بلفور وقد تعينت حدود شرق الاردن ببلاغ اصدره المندوب السامي عين فيه الحدود السياسية بين شرقي الاردن وفلسطين عام ١٩٢٢.

وفي ٢٥ مايو من عام ١٩٢٣ أعلن عن قيام حكومة مستقلة في شرق الاردن برئاسة الامير عبد الله وقد ربطت بريطانيا أمير الاردن بمعاهدة في فبراير ١٩٢٨ حتمت عليه ضرورة استشارة المقيم البريطاني في عمان في جميع الاعمال والقرارات المختصة بصلات الاردن الخارجية واطلاق يده في شئون الادارة المالية ، وقد وافق المجلس التشريعي الاردني علي معاهدة التحالف البريطانية الاردنية التي اصبحت بموجبها حكومة شرقي الاردن مقيدة بالمراقبة البريطانية (١) ومكبلة بالقواعد والمنشأت العسكرية .

ونتيجة لاستياء العناصر المستنيرة في الاردن من هذه المعاهدة تكونت أحزاب معارضة ، عقدت فى عمان مؤتمرا في يوليو عام ١٩٢٨ ووضعت ميثاقا ، وقررت عدم الاعتراف بالمعاهدة وأعلنت عن ضرورة اجراء انتخابات علي أساس برلماني وعن ضرورة جعل الاردن دولة مستقلة دستورية (٢) وإلغاء الانتداب البريطاني واستمر الحال علي ذلك حتى قيام الحرب العالمية الثانية وقد وقفت الاردن في هذه الحرب إلي جانب الحلفاء .

وفي مارس من عام ١٩٤٦ عدلت معاهدة ١٩٢٨ بمعاهدة تحالف مع بريطانيا ، فاعلن عن انتهاء الانتداب البريطاني علي شرق الاردن والاعتراف باستقلال الاردن التام وتمتعه بشخصيته الدولية وبالأمير عبد الله عاهلا له علي أن يلتزم بالتشاور مع انجلترا في الشئون الخارجية وأن تلتزم بريطانيا بالدفاع

---

(١) الدجاني : محاضرات في اقتصاديات الاردن ، القاهرة ، معهد الدراسات العربية ، ١٩٥٤ ، ص ٥.

(٢) Survey of International affairs . ١٩٢٨ p ٣٢٦ – ٣٧٧.

عن الأردن، ودفع مساعدات مالية له، وهكذا إنتقل شرق الأردن من صفة بلد تحت الانتداب الى صفة دولة مستقلة ، وفي ٢٥ ابريل ١٩٤٦ اتخذ الامير عبد الله لقب الملك ، وقد قوبلت هذه المعاهدة بالسخط من الأردنيين مما أحرج مركز الملك عبد الله وجعله يطالب بريطانيا تخفيف بعض بنود المعاهدة لذلك عقد في عمان في ١٥ مارس ١٩٤٨ معاهدة تحالف أخري بين الدولتين تضمنت استمرار واقامة العلاقات الطيبة بينهما وأن تلتزم بريطانيا بالدفاع عن الأردن وأن تنشأ هيئة استشارية بين البلدين لتنسيق شئون الدفاع وللمقارنة بين هذه المعاهدة ومعاهدة ١٩٤٦ نجد أنهما لا يختلفان كثيرا عن جوهر السيطرة البريطانية علي الأردن ونتيجة لتطورات الاحداث في فلسطين وقرار الحكومة البريطانية في فبراير ١٩٤٧ برفع القضية برمتها إلي هيئة الأمم المتحدة والتطورات الجارية هناك والتي انتهت باقرار مشروع التقسيم في نوفمبر ١٩٤٧ ، كانت كل من الاردن ومصر تخشي أن تسبق أحداهما الأخري إلي ملأ الفراغ في القسم المخصص للعرب من أرض فلسطين (١) فالأردن يري أنه أوثق الأقطار ارتباطا بفلسطين فهي شرق النهر وفلسطين غربه ، ومصر كانت تعارض أطماع الملك عبد الله ويتنافس ملكها مع الهاشميين في أطماعهم(٢) وقبل دخول الجيوش العربية إلى فلسطين تم اسناد منصب القيادة العامة إلي الملك عبد الله علي أن يتولي ادارة العمليات بالنيابة عنه أمير اللواء الركن نور الدين محمود وقد دخلت الجيوش العربية إلي فلسطين في ١٥ مايو ١٩٤٨ بهدف انقاذها من الضياع وبعد أن برز شبح الهزيمة باديا للعيان في حرب ١٩٤٨ وتجسدت النكبة بقيام اسرائيل وتشتيت الشعب الفلسطينى فأن التمزق العربي والصراعات بين الزعامات العربية في تلك الفترة ، وزيادة عوامل الشك وعدم

---

(١) للتفاصيل انظر: George Kirk: The Middle East ١٩٤٥ p.١٤٤-١٤٥

(٢) حسن ريان : دور امارة شرقي الاردن في السياسية العربية ١٩٣٩ . ١٩٥١ ، رسالة دكتوراة غير منشورة ، ص ١٤٥.

الثقة بينها كل تلك الأمور كانت ظلالا لهذه النكبة ، ونتيجة لذلك اختلفت وجهتا نظر مصر والأردن في احتواء الموقف أو الاتفاق علي طريق لتطويق المأساة ، وانقاذ ما تبقي من أرض فلسطين فقد رأت الحكومة المصرية تكوين حكومة فلسطينية تمثل الشعب الفلسطيني وتنطق باسمه وتشمل قطاع غزة والضفة الغربية التي يقصد بها محافظة القدس ولواء السامرة والخليل علي أن يكون مقرها غزة وتسمي حكومة عموم فلسطين .

وقد بادرت الجامعة العربية بما فيها ممثلو الاردن إلي الاعتراف بهذه الحكومة لتمثيل عرب فلسطين في محاولة منها لإيجاد تشكيل سياسي يقف أمام اسرائيل ، ولتكون رمزاً لكفاح بقايا هذا الشعب ولانقاذ ما تبقي من فلسطين من اطماع اليهود ، وأعلنت أمانة الجامعة أسماء الوزراء الفلسطينيين الذين سيتولون مصالح ما اسمته بالادارة المدنية (١).

ولما وصلت أبناء إنشاء هذه الحكومة إلي الملك عبد الله استشاط غضبا ، واستنكر ما حدث من مندوبيه الذين أوضحوا له أن هذه الحكومة ولدت ميتة، لذلك كان لا بأس من الظهور بمظهر الاجماع (٢) .

ولكن الملك عبد الله لم يقتنع بذلك بل رأي في اعلان هذه الحكومة تحديا ظاهرا له خصوصا وأنها انشأت في قطاع غزة الواقع تحت تأثير الحكم

---

(١) شكلت حكومة غزة من احمد حلمي عبد الباقي رئيسا وجمال الحسيني ورجائي الحسيني وعونى عبد الهادي وأكرم زعيتر والدكتور حسين الخالدي وعلي حسنه وميشيل ابكاريوس ويوسف صهيون وأمين عقل أعضاء

أنظر محمد عزة دروزة : حول الحركة العربية الحديثة ج٥،صيدا،المطبعة المصرية من ٩١.

(٢) محمد نصر مهنا : مشكلة فلسطين أمام الرأي العام العالمي ١٩٤٥ . ١٩٦٧ ، رسالة دكتوراة غير منشورة ص ٢١٨ ، والجدير بالذكر أنه بينما كانت اسرائيل تثبت اقدامها في قلب فلسطين كان العرب يتنافسون فيما بينهم علي التوسع الاقليمي وملء الفراغ في القسم المتبقي من ارض فلسطين .

للتفاصيل : أنظر George kirk . the middle east ١٩٤٥ – ١٩٥٠ p ١٤٤ – ١٤٥.

المصري، ونتيجة لذلك فقد رفض الاعتراف بامداد سلطة هذه الحكومة من غزة إلـي المنـاطق العربيـة الاخـري فـي فلسطين فعين حاكمـا مـن قبلـه علـي الضـفة الغربيـة ، كمـا رفض الاعتـراف بهذه الحكومـة أو التعامل معهـا بحجـة أنهـا لـن تكون أكثر من اعـلان رمزي ليس لـه القدرة علـي صيانة الاجـزاء العربيـة مـن فلسطين [1] ، ومن هذا المنطلق ارسل الملك عبد الله إلي محمود فهمي النقراشـي رئيس الوزراء المصري خطابا أوضح فيه رفض بلاده لحكومـة عموم فلسطين فذكر (أننا نخشي علي سلامة بلادنا ومركزها من أي دولة ضعيفة قد تكون فـي فلسطين تنتسب إلي العرب فتضعف عن البقاء أو يستحوذ عليها اليهود أو بمجرد تكيفها تعترف بها منظمة الأمم التي اعترفت باليهود فيكون التقسيم أمراً واقعاً) [2].

وقد حاولـت اللجنـة السياسية فـي الجامعـة العربيـة تهدئـة الملـك واقنـاعـه بالاعتراف بحكومة عموم فلسطين ، ولكنه أصر علي موقفه ، وأخذ جو التـوتر والمشاورات يتسع مداه داخل أروقة الجامعة [3] ، ولم يكتف الملك عبد الله بذلك بل شجع علي عقد مؤتمر فلسطيني في عمـان فـي اكتـوبر ١٩٤٨ برئاسـة الشيخ سليمان التـاجي هـاجم فيـه المجتمعـون حكومـة غـزة ، وطـالبوا الملـك عبد الله أن يشمل عرب فلسطين بحمايته ، واعلنوا عن رغبتهم في ضم ما تبقي من فلسطين إلـي شـرق الاردن ، كمـا فوضـوه أن يتحـدث باسـمهم ، وأن يتفـاوض عـنهم[4]

---

(١) منيب الماضي وسليمان موسي : تاريخ الاردن في القرن العشرين عمان ، الطبعة الأولي ، ١٩٥٩ ، ص ٥٣٤.

(٢) نفسه .

(٣) محمد عزة دروزة : حول الحركة العربية الحديثة ج ٥ ، ص ٨٩.

(٤) أدلى الملك عبد الله بتصريح في عمان للمجتمعين أنه لا يطمع في فلسطين ، ولا يريد ضم أي أجزاء منها إلي بلاده ولكنه يرحب كل الترحيب برغبة المجتمعين في الانضمام إلي بلاده ، المصري : في ١٩٥٠/٦/٧.

ونتيجة لذلك فقد استمر الملك عبد الله في تحديه لحكومة غزة ، فطالب بحلها وأعتبر ذلك مسألة رئيسية في سياسته حتى ولو أدت إلي خلافات مع الحكومات العربية (١) كما شجع الملك عبد الله علي عقد اجتماع بمدينة اريحا في أول ديسمبر ١٩٤٨ برئاسة الشيخ علي الجعبري رئيس بلدية الخليل حضره العديد من زعماء فلسطين ووجهائها وفيه أعلن عن وحدة الاراضي الفلسطينية والاردنية ، واعتبارها وحدة لا تتجزأ ، كما قرر المؤتمرون مبايعة الملك عبد الله ملكا علي فلسطين كلها ، ولما رفعت قرارات هذا المؤتمر إلي الملك تقبلها راضيا (٢) كما أصدر مجلس الوزراء الأردني بلاغا اعرب فيه عن تقديره لرغبة الفلسطينين الممثلين في مؤتمر اريحا يضاف إلي ذلك أن البرلمان الاردني وقف مؤيدا لقرارات هذا المؤتمر (٣).

ونتيجة لذلك تعرض الاردن لانتقادات عنيفة (٤) ولحملات دعائية ضده خصوصا من مصر فقد هوجم الاردن وهوجم الملك عبد الله واتهم بالتفريط في فلسطين وعروبتها وازداد العداء بين حكومتي مصر والاردن ، فقد اعتبرت مصر أن ضم شرق الاردن للضفة الغربية خطة توسعية مخالفة للاتفاقات التي تمت بين زعماء العرب قبل دخول الحرب ، كما أرسل الملك فاروق رسائل شفوية إلي ملوك الدول العربية ورؤسائها بشأن ما حدث في أريحا اوضح فيها أن قرارات هذا المؤتمر لا تعبر تعبيرا صادقا عن رغبة الفلسطينيين خصوصا وأن الذين حضروه قلة إذا قيسوا بمجموع عرب فلسطين (٥) ، كما وصف هذه

---

(١) حسن ريان : دور امارة شرق الاردن في السياسة العربية ج ٢ ، ص ٣٧٦.

(٢) محمد عزة دروزة : المرجع السابق ، ص ٩٢.

(٣) الاهرام في ١٤ ديسمبر ١٩٤٨.

(٤) أرسل الملك عبد العزيز والرئيس شكري القوتلي إلي ملك شرقي الاردن يطلبان عدم تنفيذ قرارات اريحا .

(٥) الاهرام في ١٢ ديسمبر ١٩٤٨.

القرارات بأنها ليست صحيحة لأن أهل فلسطين اصحاب القرار ليسوا في الوضع أو الظروف التي تسمح لهم بإبداء رأي صادر عن حرية اختيار [١] ، كما استنكر مبايعة الملك عبد الله ملكا علي فلسطين موضحا أن مصر لم تضح بدماء ابنائها ليلقي بمستقبل فلسطين في ايدي المجتمعين في اريحا ، وقد تبع ذلك سيل من البيانات والبرقيات شديدة اللهجة من هيئات مصر وشخصياتها وصحافتها ضد مؤتمر أريحا ، وتشجيع الأردن لعقده فوصف محمود فهمي النقراشي رئيس وزراء مصر ما حدث في أريحا وتصديق مجلس الأمة الأردني عليه بأنه مخالف للمنطق ، وأن الحكومة المصرية ستظل عند قراراها الخاص بالاعتراف بحكومة فلسطين وأن المصريين سيبقون دائما إلي جانب هذه الحكومة ، وأن للشعب الفلسطيني أن يقرر مصيره بنفسه [٢].

واصدر مجلس العلماء في الجامع الأزهر بيانا وجهه إلي ملوك المسلمين وشعوبهم ندد فيه بما أقدم عليه الملك عبد الله وحذر من عواقب تفتيت الوحدة العربية ، والتمهيد للقضاء علي عرب فلسطين [٣].

أما عن موقف الصحف المصرية فقد نددت الاهرام بما حدث في أريحا فذكرت (أنه ليس من الملائم أن تنفرد أية دولة عربية بعمل سياسي يتعلق بمصير فلسطين .. وطبيعي ان كل حل لهذه القضية يجب أن يكون وليد إرادة أهل فلسطين علي أن تكون هذه الإرادة صادرة عن حرية وفي ظروف عادية ،

---

(١) الاهرام في ١٢ ديسمبر ١٩٤٨ تحت عنوان (مصر وقرارات اريحا)

(٢) الاهرام في ١٤ ديسمبر ١٩٤٨ تحت عنوان حديث محمود فهمي النقراشي عن مؤتمر أريحا.

(٣) The times . ١٢ december ١٩٤٨.

وفي مناسبات لا تثير أي شك من أية دولة من الدول العربية وأن مصر ستقف إلي جانب مبدأ فلسطين لأهلها (١).

وهاجمت جريدة المصري ما أقدمت عليه حكومة شرق الاردن ، واتهمتها بالخروج علي الاجماع العربي وطالبتها بالتريث في الاقدام علي هذه الخطوة ، والتعاون مع الحكومات العربية في استخلاص الاجزاء التي تجاوزت حدود التقسيم الذي فرضته هيئة الأمم وأنكره العرب (٢).

هذا عن موقف مصر أما عن موقف الجامعة العربية وموقف حكومة عموم فلسطين فقد عقد عبد الرحمن عزام أمين عام الجامعة مؤتمراً صحفيا أعلن فيه ضرورة احترام قرارات الجامعة بشأن فلسطين ، وشكك في قانونية قرارات أريحا وندد بها موضحا ضرورة استفتاء أهل فلسطين في تقرير مصيرهم ووجودهم(٣) ، ونددت حكومة عموم فلسطين بمؤتمر أريحا وبالذين شاركوا فيه وأعلنت أنه ليس لهم الحق في التحدث بلسان عرب فلسطين (٤) ، كما نددت بقرار مجلس الأمة الاردني بوحدة الضفتين واعتبرته مخالفا لقرارات الجامعة العربية. (٥)

وإلي جانب ذلك فقد دعا اللاجئون الفلسطينيون في القاهرة إلي اجتماع استنكروا فيه قرارات اريحا وطالبوا بحق سكان فلسطين في تقرير مصيرهم، كما انهالت برقيات اللاجئين الفلسطينيين علي الامانة العامة للجامعة العربية

---

(١) الاهرام في ١٢ ديسمبر ١٩٤٨.
(٢) المصري في ١١ يونيو ١٩٥٠ مقال محمد علي علوبة تحت عنوان (سياسة الملك عبد الله نحو فلسطين)
(٣) الاهرام في ١٤ ديسمبر ١٩٤٨ تحت عنوان (الجامعة صاحبة الرأي الأعلي).
(٤) The Times , ١١ december ١٩٤٨.
(٥) الاهرام في ١٤ ديسمبر ١٩٤٨ .

يسجلون فيها احتجاجهم علي قرارات مؤتمر أريحا ، وموقف حكومة عمان المنافي لحقوقهم [1].

هذا عن الموقف المصري وموقف الجامعة العربية تجاه قرارات أريحا أما عن موقف الاردن من موقف مصر تجاه عملية توحيد الضفتين ، فقد كانت الاردن تعتبر أن الضم مصدر قوة للفلسطينيين وحقوقهم وأنه خير وسيلة لحفظ ذلك الجزء من فلسطين من أن يسقط في يد اليهود حيث لا قوة تحميه إذا أقدمت الاردن علي سحب قواتها منها ، ونددت الاردن بالدعاية التي شنتها مصر ضدها ووصفتها بأنها مؤذية ومغرضة ومفرقة لكل العرب وتساءلت عما سيكون موقف مصر واصرارها فيما لو جري استفتاء عام بين الفلسطينيين اينما كانت نتيجة هذا الاستفتاء علي غير مما تشتهي مصر أو تتوقعه[2] ، كما نددت بحكومة غزة ووصفتها بأنها اقيمت بقرار عشوائي من مجلس الجامعة وبتأييد من مصر ، وأوضحت أن عملية الضم أملاها الاقليمي ، ورغبة أهالي فلسطين الصادرة عن مطالب حياتهم وأمنهم ، وأن الاردن يشعر بعمق الروابط بين الضفتين كما حمل الملك عبد الله علي الجامعة العربية ووصفها بالخور والغباء وعدم الواقعية ووصفها بأنها اسم (كبير) ودعاية عريضة طويلة ومع ذلك فليس لها أي اتصال بالرغبات القومية وأوضح أن ارتباط دول الجامعة بالدول الكبري جعلها لا تتمكن من التصرف خارج الالتزامات المرتبطة بها[3].

ونتيجة لاصرار الملك عبد الله علي عدم الامتثال لقرارات الجامعة تزعمت مصر حركة معادية لسياسته بلغت ذروتها في السادس من مايو ١٩٥٠ عندما تقدمت مصر باقتراح إلي مجلس الجامعة يقضي بفصل الاردن من

---

(١) حسن ريان : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٣٨٣ ، ٣٨٦.

(٢) حسن الريان : المرجع السابق ج ٢ ص ٣٥٩ ، ص ٤٢١.

(٣) مذكرات الملك عبد الله عمان ، الطبعة الثانية، منشورات مجلة الرائد ، ص٣٣٤-٣٣٥.

الجامعة علي اعتبار أن ضمها للضفة الغربية يعتبر عملاً توسعيا [١] كما رآت تمثيل فلسطين الصورية برئاسة المفتي خصم الملك عبد الله في الجامعة العربية[٢].

ونتيجة لذلك قررت الاردن الامتناع عن ارسال وفد يمثلها في دورة مجلس الجامعة ، وأصدرت بيانا رسميا في ٢٨ مارس ١٩٥٠ اوضحت فيه موقفها من الجامعة ، واستنكرت موقف الصحافة المصرية المناهضة لها فذكرت أن اتخاذ أية قرارات تتعلق بالقسم الغربي في فلسطين ستعتبرها الحكومة الاردنية ضارة بمصالحها وأوضحت أن سكان هذا القسم أعربوا أكثر من مرة عن رغبتهم الجماعية في ربط مصيرهم الاردن ، ومن هنا فإن الشروع في مناقشة أمور تمت تسويتها سيترتب عليه ازدياد سوء التفاهم ايجاد موقف غير مرغوب فيه[٣]، لاسيما بعد أن تقررت دعوة رئيس وزارة حكومة عموم فلسطين إلى حضور اجتماعات مجلس الجامعة وقد اختلف موقف دول الجامعة في مساندة رغبة مصر في اخراج من الجامعة فقد ساندتها في ذلك كل من سوريا ولبنان والسعودية في حين احجمت كل من العراق واليمن عن تأييد الموقف المصري ، فقد أيدت العراق وجهة نظر الاردن ولامت مصر علي موقفها من الملك عبد الله ، وطالبتها بالاهتمام بشئونها الخاصة وبتحرير نفسها من القوات البريطانية بدلا من تدخلها فيما لا يعنيها ، واعتبرت أن قرار الحكومة الاردنية بضم شرق فلسطين إليها هو الحل العملي لانقاذ ما تبقي من فلسطين حتى تتم تسوية المشكلة بصفة نهائية [٤] ، ورأت أن شرق الاردن لم يخطئ بضمه للجزء الشرقى من فلسطين لأنه من غير المعقول أن يترك هذا

---

(١) الاهرام في مايو ١٩٥٠.

(٢) George kirk the middle east ١٩٤٥ – ١٩٥٠ p ٣١١.

(٣) حسن ريان : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٤٥١.

(٤) المصرى في ٢١ مايو ١٩٥٠.

الجزء دون سلطة تنفيذية حقيقية كاملة ، ورأي أنه إذا كانت هناك أي طعون في صحة ارادة أهل هذا الجزء حول رغبتهم في الانضمام إلي شرق الاردن من عدمه فلتشكل لجنة للتحقيق (١).

كما رأت اليمن ضرورة القيام بالوساطة بين وجهات النظر المتعارضة حتي لا تتأزم الامور ولما كان قانون الجامعة يقضي بعدم فصل أحد الأعضاء إلا باجماع الاصوات فقد تعثر موقف خروج الاردن من الجامعة ، كما ظهرت نذر انسحاب مصر من الجامعة وحصر اهتمامها في شئونها الداخلية ما لم يتم طرد الاردن من الجامعة وبعد مشاورات واتصالات ووساطات جرت بين حكومات الدول العربية اتفق علي عدم فصل شرق الاردن من الجامعة ابقاء علي وحدة الصف علي أن تؤخذ العهود والمواثيق علي الملك عبد الله بأن ضمه شرق فلسطين إلي الاردن لن يؤثر ولن يمس التسوية النهائية لفلسطين وألا يعقد صلحا منفردا مع إسرائيل.

وكان رد الاردن علي ذلك أن ضمها للضفة الغربية يرضخ للتسوية النهائية للقضية ، كما أنه لم يدخل مطلقا في مفاوضات مع اسرائيل اللهم إلا مجرد مباحثات عادية بخصوص شروط اتفاقية الهدنة (٢)

ولما كان المجتمعون يقدرون جيدا مركز الاردن الحرج والظروف المحيطة به فقد ساندوا موقفه وانفرجت الازمة وأغمض الساسة العرب أعينهم عما حدث ، وأقدمت العديد من الحكومات العربية علي اقامة علاقات دبلوماسية مع الاردن ومن هنا لم يجد الوفد الاردني حرجا في حضور اجتماعات الجامعة العربية بجانب أحمد حلمي باشا ورجائي الحسيني الذين كانا يمثلان فلسطين تمثيلا رمزيا .

---

(١) المصرى فى ١٢ يونيو ١٩٥٠.

(٢) المصري في ٣ مايو ١٩٥٠.

وبذلك تحقق للملك عبد الله ضم الضفة الغربية بالرغم من احتجاج العديد من الفلسطينيين والدول العربية وتقوضت حكومة عموم فلسطين التي أنشئت تحت كنف جامعة الدول العربية وبتشجيع من مصر .

وهكذا كانت المشكلة الفلسطينية سببا في أحداث التوتر بين مصر والاردن ، وبالرغم من قسوة المحنة ومرارة المأساة فان شعب فلسطين لم يسلم من المهاترات بين الحكام في البلدين ومع أن الموقف كان يقتضي التكاتف والاتحاد بين الزعماء العرب لا التنافر والبغضاء والبحث عن مطامح خاصة فقد جذب كل من ملكي مصر والاردن إلي جانبه بضعة نفر من أهل فلسطين ممن كانوا تحت إمرته وسلطانه ولا يملكون شيئا من حريتهم فيما يقولون أو يفعلون مما عمق الهوة ، وأدخل القضية الفلسطينية في غمار الصراعات بين الدول العربية بعضها البعض ، واصبح عرب فلسطين هم ضحايا الكارثة بكل مراراتها وآلامها .

والسؤال الذي يطرح نفسه هو إذ كانت مصر قد عارضت في ضم الضفة الغربية إلي الاردن ، فهل كانت هناك بدائل أخري ايجابية ؟ وماذا تكون الحال لو أن الملك عبد الله كان قد تخلي عن ادارة شرق فلسطين ؟ وهل كان من الأفضل أن تظل الضفة الغربية وحدة قائمة بذاتها تقام عليها دولة لا تملك مقومات القوة أمام اسرائيل المتربصة لابتلاع كل فلسطين أم تنضم إلي دولة مثل شرق الاردن .

لقد رأي البعض أن أفضل طريقة لمعالجة الوضع القائم في الضفة الغربية آنذاك هو الاتحاد مع الأردن [1] ، لأن تخلي الملك عبد الله عنها سيؤدي إلي وقوعها فريسة في قبضة اسرائيل ، وأنه من الخير للقضية أن يقع هذا الجزء من فلسطين في يد عربية من أن يقع في يد يهودية خصوصا وأن المتطرفين من

---

(١) حسن ريان : المرجع السابق ، ج ٢.

اليهود اعضاء منظمة أرجون التي كان يتزعمها مناحين بيجين كانوا يطالبون بضم القدس القديمة إلي اسرائيل [1].

ورأي البعض الآخر أن الملك عبد الله خان العهد الذي أخذه العرب علي أنفسهم بعدم ضم أي جزء من فلسطين إلي بلد أحدهم وتسليمها إلي أهلها ليحكموها كما يريدون كما رأوا أن ما حدث في أريحا لم يكن تعبيرا حقيقياً عن مشاعر الفلسطينيين ، لأن الممثلين الذين حضروا عنهم هذا المؤتمر لم يمثلوا إلا قلة من عرب فلسطين وجهت إليهم الدعوة من الحكومة الاردنية ، كما أن رئيس المؤتمر كان معينا من قبلها [2] ولا توجد سلطة محايدة تشرف علي استفتاء حر لعرب فلسطين بل كان هناك الحاكم الاردني في القسم العربي من فلسطين ، وأن فكرة ضم هذا الجزء من فلسطين إلي الاردن كانت تختمر في ذهن الملك عبد الله منذ أمد بعيد وأنه و جد فيما حدث في عام ١٩٤٨ فرصة سانحة لتحقيق اطماعه .

والواقع أن كلا من مؤتمر غزة ومؤتمر أريحا كان مؤتمرا فلسطينيا عقد من أجل بحث مصير ما تبقي من فلسطين من أجزاء وإذا كان مؤتمر غزة قد أوجد في فلسطين حكومة عربية مستقلة مؤيدة من الجمعية التأسيسية التي انعقدت في مدينة غزة ، فانه لم يكن يمثل الفلسطينيين جميعهم كما حدث في مؤتمر اريحا الذي بايع المؤتمرون فيه الملك عبد الله ملكا علي ما تحت يده من فلسطين لذلك فإن ما صار عليه أمر فلسطين بعد ١٩٤٨ ، وما لحق بشرف الأمة العربية من أهانة كان يقتضي التكاتف والاتحاد بين الزعماء العرب لتقليل الخسائر ، ومع أن ضم الملك عبد الله للضفة الغربية فقد أفقد الفلسطينيين حكومتهم الخاصة التي كان يمكن أن تكون لها هويتها المستقلة في المطالبة

---

(١) المصري : العدد ٤٤٦٨ في ٣ مايو ١٩٥٠ ، ص ٧.

(٢) حسن ريان: المرجع السابق، جـ٢ ، ص ٣٤٣.

بحقوق الفلسطينيين والتفاوض باسمهم مع الهيئات الدولية وغيرها بدلا من أن تدخل القضية الفلسطينية في غمار الصراعات بين الدول العربية بعضها مع البعض ، فإنه نظرا لضعف هذه الحكومة التي ولدت في غزة وهي تحتضر ، وشكلت كيانا هزيلا يصعب الاعتماد عليه ، ونظرا لعجز الحكومات العربية عن القيام بعمل فعال في فلسطين ، وبسبب أن الفلسطينيين كانوا لا يملكون مثل اليهود جهازا منظما يمكن أن يتولي شئون الادارة بينهم ويكفل حمايتهم فان اتحاد الضفة الغربية مع الضفة الشرقية بصفة مؤقتة حتى يعيد العرب حساباتهم وتتم تسوية المشكلة كان الحل الأمثل لضمان عروبة الأجزاء الباقية من فلسطين، خصوصا وأن انجلترا كانت لا تستطيع أن تقف مكتوفة الأيدي إذا تعرض تواجد الاردن للخطر في ذلك الوقت .

وقبل أن نختم حديثنا يطرح سؤال أخر نفسه وهو : هل كان الملك عبد الله أكثر وعيا ومعرفة بقدرة اليهود العسكرية من غيره من زعماء العرب فحاول أن يجنب بلاده الهزيمة بدعوته إلي حل المشكلة سلميا وميله إلي قرارات التقسيم أم أن تطلعاته التوسعية علي حساب فلسطين كان تحقيقها الهدف الأول له؟

يري البعض أن الحكومة الاردنية كانت تعرف القوة الحقيقية لليهود ، وتعرف أن العرب ، لا يملكون مثل ما يملكه اليهود من تنظيم وتخطيط ، ومن هنا حاولت مصارحة الزعماء العرب بهذه الحقيقية ، وعملت علي الوصول إلي حل سلمي بالطرق السياسية كما رأت في التقسيم أمرأ واقعا يجب أن ينظر إليه في ضوء عجز الحكومات العربية عن القيام بعمل فعال في فلسطين وهذا ما أثبتته التجارب المريرة فيما بعد ، وإذا كانت الحكومة الاردنية قد اتهمت

بالترويج لفكرة التقسيم ، فينبغي أن نذكر أن هذه الفكرة هي المطلب الذي تطالب به الدول العربية الآن ، ولا تستطيع الوصول إليه (١) .

ويري البعض الأخر أن حكومة شرق الأردن اقترفت مخالفات خطيرة في شأن القضية ، كما أن الملك عبد الله كان له دور في تثبيط الهمم بعد أن حل جيش التحرير العربي وجيش الجهاد المقدس الفلسطيني ووقف مناوئا للهيئة العربية العليا كما أنه رأي في امكانية قرار التقسيم بارقة أمل وفرصة نحو تحقيق تطلعاته التوسعية التي طالما راودته والواقع أن قبول الحكومة الاردنية بالأمر الواقع وهو التقسيم يجب أن ينظر إليه علي ضوء عجز الحكومات العربية عن القيام بعمل فعال لانقاذ فلسطين .

حقيقة لقد دخل العرب جميعا المعركة وهم يؤمنون أن الحق كله في جانبهم ، وأن حكامهم لم يعدوا أنفسهم الاعداد الكافي لدخول المعركة ، بل كانت معالجتهم للقضية غاية في الاهمال والهزال وكانت اجتماعاتهم تعقد لمجرد الكلام والخطب الضخمة الجوفاء إلا من التهديد والوعيد بالقاء اليهود في البحر وشرب القهوة العربية علي شاطئ تل أبيب بعد النصر المبين ، كما أن بعض الحكام العرب استغل القضية في تقوية مركزه أو تدعيما لمنصبه يضاف إلي ذلك اختلاف سياسات بعض الدول العربية اثناء المعركة ، فلم يقاتلوا صفا واحدا بل لعبت الأهواء السياسية والشخصية بهم فأضاعوا القضية(٢) ، يضاف إلي ذلك أنه من سوء حظ الفلسطينيين أن المهرجين والغوغاء والمتطرفين لعبوا دورا كبيرا في عدم النظر إلي الأمور بما يستحقه من أهمية وتعقل بل بلغ الأمر بهم أن أخذوا يلصقون تهمة الخيانة بكل من يحاول وقف النزيف ، وهذا ليس بعجيب

---

(١) منيب الماضي وسليمان موسي : تاريخ الاردن في القرن العشرين ص ٤٧١.

(٢) محمد نصر مهنا : مشكلة فلسطين أمام الرأي العام العالمي ١٩٤٥. ١٩٦٧، ص٢٦٢.

في أمة اختلطت عليها المفاهيم[1] وعلي أي حال فبعد ما حدث لفلسطين توالت في شرق الاردن أعمال العنف التي إنتهت باغتيال الملك عبد الله في ٢٠ يوليو ١٩٥١ في مدخل المسجد الاقصي بالقدس بدافع النقمة من تصرفاته ، يضاف إلي ذلك أن عبد الله التل رحل إلي القاهرة وانضم إلي المناوئين للحكم الهاشمي في الاردن وأصبح بالتالي اللسان المعادي لهم وحاول تغيير الاوضاع في الاردن عن طريق الاتصال ببعض الضباط العرب وتحريضهم عن التخلص من القيادة الانجليزية ، ولكنه لم يفلح وفي اعقاب مقتل الملك عبد الله خلفه ابنه طلال الذي لم يستمر في الحكم سوي ثلاثة عشر شهراً بسبب اضطراب اعصابه واصابته بلوثة عقلية فاجتمع البرلمان الاردني في ١١ اغسطس ١٩٥١ وقرر خلعه وتولية ابنه حسين ملكا علي الاردن تحت الوصاية إلي أن بلغ سن الرشد في عام ١٩٥٣ ، فباشر مهام الملك بنفسه ولما قرر الملك حسين الغاء المعاهدة الإنجليزية لتحرير مملكته نهائيا من سيطرة الانجليز كان هناك عقبة وهي تدبير نفقات الجيش التي كان الانجليز يدفعونها لذلك تعهدت حكومات مصر وسورية والسعودية بدفعها وعقدت مع الاردن ميثاقا بذلك في عام ١٩٥٧م ، مقابل إنهاء المعاهدة، وجرت اتصالات بين الحكومة الاردنية وانجلترا انتهت إلي إلغاء المعاهدة وجلاء القوات الانجليزية عن الاردن، ولكن الموقف لم يستمر علي هذا المنوال إذ نجحت انجلترا والولايات المتحدة في تغيير موقف الملك حسين بحجة تدخل مصر وسورية في شئون الاردن فنقض الملك حسين ميثاق عام ١٩٥٧م، واستعاض عن ذلك بمساعدات امريكية انجليزية وفي خلال تلك الفترة قامت الوحدة بين مصر وسورية ولم يسع عاهلي العراق والاردن إلا مجاراة الموقف فكونا اتحادا بين مملكيتهما علي أن الأمر لم يطل فقد اشتد الغليان في العراق علي حكامه وانفجرت ثورة ١٤ يوليو ١٩٥٨م

---

(١) دروزة : السابق ، ص ٦٨٩.

فألغت هذا الاتحاد ، وفي اثناء ذلك تعرض الاردن لتدخل انجليزي بحجة حماية استقلاله من التدخل العربي وقد أدي نزول القوات الانجليزية إلي الاردن لاستنكار عام فلم يسع الانجليز إلا الانسحاب فعادت السيادة العربية علي الاردن مرة ثانية .

ومما سبق يتضح ان الاردن لم يكن دولة معروفة بهذا الاسم قبل عام ١٩٢٠ ، وأنه منذ نشاته تعرض للعديد من الاخطار والمتاعب ، فالخطر يحدق به من جهات عديدة ، والمساعدة علي عدم انهياره يؤدي بلا محالة إلي الحفاظ علي جزء عزيز من اجزاء الوطن العربي الكبير .

والجدير بالذكر أنه في يوليو ١٩٦٧ احتلت اسرائيل الضفة الغربية لنهر الاردن ، وقامت ضمن خطة مرسومة بعمليات استيطان واسعة لأجزاء منها فنقلت إليها اعداد من السكان اليهود ، وطبقا لاتفاقات أوسلو اتفق علي نقل السلطة في الضفة وقطاع غزة من الحكومة العسكرية الاسرائيلية والادارة المدنية الاسرائيلية إلي الفلسطينين، ولكن تطور الأحداث واطماع اسرائيل التى لا تنتهى كثيرا ما تعرقل مثل هذه الأمور وبعد وفاه الملك حسين تولى حكم الأردن من بعده ابنه عبد الله الثانى فى ٧ فبراير ١٩٩٩، وفى عهده لم تتغير الأمور السياسية فى بلاده عما كانت فى عهد والده.

٥- الكويت

إن دولة الكويت [١] ، جزء من الوطن العربي الكبير ، وركن من أركان الجزيرة العربية الشمالي الشرقي يحدها من الشمال وشيء من الغرب الجمهورية العراقية ، أما من الجنوب والجنوب الغربي فتحدها المملكة العربية السعودية ، ومن الشرق الخليج العربي الذي يتفرع منه خليج الكويت .

وتبلغ مساحة الكويت حوالي ٢٠٤٠٠ من الكيلو متر المربع [٢].

وينحدر سكان الكويت من أصل عربي حيث هاجر إليها الآلاف من جزيرة العرب [٣] منذ فترة طويلة ، واستقروا بها ومنذ أن أنشئت الكويت في

---

(١) الكويت تصغير الكوت ، بمعني القلعة ، للتفاصيل انظر لوريمر : الكويت في دليل الخليج الجزء الأول ، السفر التاريخي ، الكويت شركة الربيعان للنشر ، الطبعة الأولي، ١٩٨١ ، ص ٢٢.وكانت الكويت قبل أكثر من ثلثمائة عام صحراء لا ينتجعها سوي البدو الراحل انتجاعا للماء والكلأ وقد برزت أهمية الكويت في عهد عبد الله بن صباح كمشيخة لها أهميتها أنظر بدر الدين الخصوصي : دراسات في تاريخ الخليج العربي ص ١ ، الكويت ، منشورات ذات السلاسل الطبعة الأولي ١٩٧٨ ، ص ١٠٤.

(٢) تذكر احدي المراجع ان مساحة الكويت نحو خمسة عشر ألفا من الكيلو مترات المربعة انظر : راشد الفرحان : ماضي الكويت وحاضرها مختصر تاريخ الكويت وعلاقتها بالحكومة البريطانية والبلاد العربية ، القاهرة ، ١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠ م .

(٣) ينتمي معظم أهالي الكويت إلي العشائر العربية البدوية في شمال وسط الجزيرة العربية وقيل أن أصلهم من قبيلة عنيزة في نجد .

للتفاصيل أنظر : راشد الفرحان : المرجع السابق ص ٣٥ بينما يذكر خالد الزيد في تعليقه علي كتاب لوريمر ج ١ ص ٢١ أن الصواب هو عنزه القبيلة المعروفة وليست عنيزة في القصيم من اقاليم نجد .

حوالي ١١٣٠ هـ / ١٧١١ م تقريبا ، والحكم فيها محصور في آل الصباح[1] ، الذين رضي بهم شعب الكويت ، وقبل بحكمهم .

وعلاقة الشعب الكويتي بجيرانه علاقة اخوية متينة ، وثقها رابطة الجوار، وأواصر القربي والمصاهرة ، وبقيت الكويت تحت حكم أل الصباح مكانا أمينا يلجأ إليه كل من دارت عليه الدوائر ومن ذوي النفوذ ، وظلت ملجأ للأحرار الذين يهربون من جور العثمانيين وبطشهم كما ابتعدت عن مشكلات العراق وقبائله ، وبقيت محتفظة باستقلالها بعيدة عن أي تدخل مباشر أو غير مباشر من جيرانها ثم أكد استقلال الكويت عن الدولة العثمانية ما يحدثنا عنه التاريخ من مفاوضات جرت في لندن بين الدولة العثمانية وبريطانيا في هذا الشأن، وقد مثل الدولة العثمانية حقي باشا علي حين مثل بريطانيا السير (دوار جراي) وانتهت المفاوضات بينهما باتفاقية في ٢٩ من يوليو ١٩١٣ م اعترفت فيها الدولة العثمانية باستقلال الكويت الاداري وممارسة شيخها لاستقلاله الذاتي[2] ووعدت بالكف عن أية محاولات للتدخل في شئونها أو الضغط عليها وعندما قامت الحرب العالمية الأولي في عام ١٣٣٢ هـ / ١٩١٤ م اعلن الانجليز حمايتهم رسميا علي الكويت بالاتفاق مع الشيخ مبارك ، واستمرت الاحوال علي هذا المنوال حتى أعلن استقلال الكويت رسميا ١٩ من يونيو ١٩٦١ م[3] في عهد الأمير عبد الله السالم الصباح الذي أعلن الغاء معاهدة ١٨٩٩ الموقعة بين بلاده وبريطانيا .

---

(١) الفرحان : المرجع السابق ، ص ٦١ بينما تحدد احدي الروايات هذه البداية بعام ١٧١٦ م انظر : لوريمر : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٢.

(٢) الفرحان : المرجع السابق ، ص ٢٣١.

(٣) عن تفاصيل هذه الاتفاقية انظر أمين سعيد : الخليج العربي في تاريخه السياسي ونهضته الحديثة ، بيروت ، دار الكاتب العربي ، ص ١٨٨ . ١٨٩ .

وقد سارعت دول العالم للاعتراف بهذا الاستقلال ولم يتخلف عن الركب سوي حكومة اللواء عبد الكريم قاسم في العراق في ذلك الوقت ـ التي ادعت ان الكويت قضاء عراقي سليب يجب استرداده ، وأنه قد يوافق علي تعيين اميرها قائم مقام عليها بعد الدمج ، ونتيجة لذلك طلب أمير الكويت الشيخ عبد الله السالم الصباح تدخل القوات البريطانية لحماية بلاده وايقاف اية تصرفات عدوانية من قاسم العراق ونتيجة لجهود الرئيس جمال عبد الناصر تم احلال قوات عربية من السعودية ومصر والاردن والسودان ارسلتها دول الجامعة العربية لتحل محل القوات البريطانية التي خرجت من الكويت في العاشر من اكتوبر عام ١٩٦١ وكانت الحكومة المصرية أول من بادر إلي تأييد الكويت شقيقتها وجارتها ، فوضعت قواتها تحت تصرف القيادة الكويتية لصد كل طارئ، وحذت الحكومات العربية الأخري حذوها .

وبعدها اعترف عبد الكريم قاسم باستقلال الكويت مما أوقف كل الازعاجات ، واصبحت الكويت عضوا في الأمم المتحدة ابتداء من ١٤ من مايو ١٩٦٣ (١٣٨٤هـ) وعضوا في جامعة الدول العربية ، كما ساهمت في جميع الأعمال الدولية العامة المشتركة بدبلوماسية واعية وهادئة ، كما ارتبطت بعد ذلك بعلاقات دبلوماسية مع العراق .

وبعد أن انهار حكم عبد الكريم قاسم في فبراير ١٩٦٣ تحت ضربات الجيش العراقي ولقي قاسم العراق حتفه قامت في بغداد حكومة أكثر اعتدالا وإدراكا للواقع وميلا للتعاون مع جاراتها العربيات وبذلت الوساطات للتوفيق بين العراق والكويت وإصلاح ما أفسده عبد الكريم قاسم وكان من نتيجتها زيارة وفد كويتي لبغداد برئاسة الشيخ صباح السالم الصباح ولي العهد ورئيس الوزراء بدعوة رسمية من الحكومة العراقية ، وبترحيب من المشير عبد السلام

عارف رئيس الجمهورية العراقية [1] ، وبعدها بدأت العلاقات بين البلدين تسودها روح الوفاق والأخوة واستمرت الامور علي هذا المنوال حتى حدث الغزو العراقي للكويت في الثاني من اغسطس ١٩٩٠ ، والذي يعد من أعظم المحن التي نزلت بالأمة العربية ضاربا بذلك كل العهود والمواثيق مما قلب دفة الأمور وأدي إلي شق الصف العربي ووضع العديد من قضاياه الرئيسية في زاوية النسيان ، هذا إلي جانب أنه فجر زلزالا رهيبا في النظام العربي وأوجد شرخا أضعف من قواه وهدد أمنه .

وخلال فترة الاحتلال العراقي للكويت التي قاربت ستة أشهر رفض النظام العراقي كافة الجهود والمبادرات السلمية التي وجهت إليه ، واستمر في تحديه للارادة الدولية كما فشلت العقوبات الاقتصادية في اجباره علي الامتثال لقرار مجلس الأمن رقم ٦٦٠ وماتبعه من قرارات إذ استمر في تقوية وجوده العسكري داخل الكويت ونهب ثرواتها ، وتدمير مؤسساتها الثقافية والعلمية والتربوية .

وانتهي الأمر باصدار مجلس الأمن لقراراته بشأن انسحاب العراق الفوري وغير المشروط من الكويت ، ورفض العراق لهذه القرارات ، وقيام الحرب بين قوات التحالف وقوات صدام حسين في ١٧ يناير ١٩٩١ والتي انتهت بتحرير الكويت واعادة الشرعية والسيادة إليها وقبول العراق غير المشروط لجميع قرارات مجلس الأمن المتصلة بالأزمة ، بما فيها دفعه للتعوضيات لما ألحقه بالكويت من خسائر .

والجدير بالذكر أنه خلال حرب تحرير الكويت التي استغرقت ستة أسابيع قام النظام العراقي بالقبض علي ألوف الكويتين بطريقة عشوائية ، وايداعهم في السجون العراقية كما أقدم علي ضخ كميات كبيرة من البترول من

---

(١) أمين سعيد : المرجع السابق ، ص ٢٠٦.

ميناء الاحمدي في مياه الخليج مما أحدث تلوثا كبيرا في البيئة واتبع ذلك بتدمير آبار النفط الكويتية واتباع سياسة الارض المحروقة .

وعلي الرغم من الاثار الفادحة التي لحقت بالكويت من جراء الغزو العراقي ، فقد تم تجاوز المحنة والمعاناة وعادت الكويت كما كانت واحة وارفة الظلال تضمد جراحها بارادة وصمود ، وتعمل من أجل الخير والبناء وأن بقيت معاناة أكثر من ٦٠٠ أسرة وعائلة كويتية تعاني من فراق الأب أو الزوج أو الابن.

ومما سبق يتضح أن العدوان العراقي علي الكويت كان انتهاكا للمبادئ والمواثيق الدولية وروابط حسن الجوار ، وأن عواقبه كان تأثيرها شديدا ليست فقط علي الكويت وأنما علي الأمة العربية بصفة عامة والشعب العراقي بصفة خاصة .

القضية الفلسطينية وواقعها المعاصر :

لفلسطين في التاريخ القديم والوسيط والحديث ماض طويل وعلاقات مع الفراعنة والفرس والبابليين والاشوريين والمقدونيين والعرب واليهود والدولة العثمانية وأوروبا ونظرا لأنها قبلة للاديان وتعد أرضا مقدسة للديانات الثلاثة فان التطلع للسيطرة عليها والتنازع علي امتلاكها ظل قائما منذ فجر التاريخ وكفاح العرب في فلسطين كفاح اقتضته المروءة وحتمية المصلحة القومية .

والجدير بالذكر أن كافة الاسانيد التاريخية تؤكد أن فلسطين بلد عربي، وأن إدعاء الصهاينة أن أرض فلسطين لهم من أقدم العصور ادعاء باطل ، فقد كانت فلسطين منذ عام ٣٥٠٠ قبل الميلاد تعرف بأرض كنعان نسبة إلي قبيلة كنعان العربية التي نزحت إليها من جزيرة العرب ، ومعني ذلك أن العرب أقدم من اليهود في سكني فلسطين إذ لم يأت اليهود إليها إلا في عام ٢٠٠٠ قبل

الميلاد ثم تعرضوا فيها للإبادة والقتل علي يد بختنصر البابلي بحيث لم يبق منهم في فلسطين سوي أعداد قليلة .

وقد استمرت الهجرات العربية إلى فلسطين حتى جاءت الفتوحات الاسلامية فأصبحت فلسطين عربية اسلامية ، ودان أهلها للحكم الاسلامي(١) ، ومعني ذلك أن اطماع اليهود في فلسطين تقوم علي ادعاء مزيف باطل مؤداه أن هذه البلاد بلادهم منذ أقدم العصور ، وأنهم خرجوا منها كرها .

وعلي كل حال فقد وزع اليهود في شتي أنحاء العالم ، وكانوا جزءا لا يتجزأ من المجتمع الذي يعيشون فيه ، ولم تشهد فلسطين قبل القرن التاسع عشر الميلادي هجرات يهودية للاستيطان إلا في عام ١٤٣٢ م عندما اضطر بعض يهود أسبانيا والبرتغال إلي الهجرة إلى فلسطين فرارا من محاكم التفتيش ولم يزد عدد هؤلاء وعدد أحفادهم عن ثلاثة ألاف كانوا يعيشون علي الهبات والتبرعات(٢) ، فيما عدا ذلك لم يكن يقصد فلسطين من اليهود سوي كبار السن الذين كانت تهفو نفوسهم إلي زيارة هذه البلاد (٣).

ولم تلبث أن نشأت الحركة الصهيونية (٤) ، في القرن الماضي في أعقاب الاضطهادات التي تعرض لها اليهود في روسيا عقب مقتل القيصر نيقولا الثاني عام ١٨٨١م واتهام اليهود بتدبير مقتله ، والاضطهادات التي تعرضوا لها في بولونيا ورومانيا وغيرهما بسبب عدم ولائهم للدول التي يعيشون فيها كمواطنين وبسبب سيطرتهم علي مقدرات هذه الدول وارتكابهم العديد من الجرائم ضد

---

(١) احمد عزت عبد الكريم : دراسات في تاريخ العرب ، بيروت ، دار النهضة العربية، ١٩٧٠ ، ص ٤٢٩ وما بعدها.

(٢)حول تفاصيل ذلك أنظر : روجيه جارودي : اسرائيل والصهيونية السياسية ص ٤١.

(٣) محمود منسي : تصريح بلفور ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، ص ١٩.

(٤) تنتسب الصهيونية Zionism إلي جبل صهيون الذي تقوم عليه مدينة القدس .

شعوبها فتأسست الجمعيات في روسيا ورومانيا لانشاء مستعمرات في فلسطين يستوطنها اليهود المهاجرون إليها من شرق أوربا مثل جمعية أحباء صهيون والتي تأسست في روسيا لتنظيم وتمويل عمليات الاستيطان في فلسطين ، وصار لهذه الجمعية العديد من الفروع في ألمانيا والنمسا وانجلترا وغيرها .

والحركة الصهيونية حركة سياسية ترمي إلي جمع شتات اليهود وتوطينهم في فلسطين بحجة أنها أرض الميعاد .

ولفظة صهيونية مشتقة من صهيون ، وهو أحد الجبال المحيطة بالقدس والمعروف أن هذه الحركة توسعية عدوانية ليس فقط بالنسبة لفلسطين بل ، للبلاد العربية المجاورة لها ويؤكد ذلك أن الوطن الصهيوني المزعوم في نظر المتطرفين من الصهاينة يمتد من نهر الفرات في العراق إلي نهر النيل في مصر.

ومع ذلك فإن الصهيونية لم تعرف كحركة سياسية إلا في القرن التاسع عشر الميلادي خاصة بعد عقد المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة بال بسويسرا في عام ١٣١٥ هـ / ١٨٩٧ م بدعوة من الصحفي النمساوي تيودور هرتزل المنشئ الأول للصهيونية السياسية العالمية(١) ، وصاحب كتاب الدولة اليهودية الذي صدر في فبراير ١٨٩٦ م والذي حاول فيه أن يقيم الدليل علي أن اليهود يمثلون أمة متميزة ، وأن المشكلة اليهودية مشكلة قومية مضطهدة يجب أن تأخذ طريقها إلي الحل .

---

(١) محمد خليفة التونسي : بروتوكولات حكماء صهيون . ترجمة عباس محمود ، بيروت ، دار الكتاب ، ١٤٠٤ هـ ، ص ٣٣.

وقد سبق عقد هذا المؤتمر دعاية مكثفة له من أجل كسب التأييد العالمي لليهود وبحضور ٢٠٤ من اقطاب اليهود وقادتهم انعقد المؤتمر بغرض تدارس المشكلة اليهودية وموضوع انشاء وطن قومي لليهود .

ولقد كان من أهم نتائج هذا المؤتمر تأسيس المنظمة الصهيونية والعلم الصهيوني ، والنشيد القومي ، هذا إلي جانب العمل علي بذل المساعي لدي حكومات الدول للعمل علي تحقيق أهداف الصهيونية ومن أهمها تهجير اليهود المشتتين في انحاء العالم إلي فلسطين لانقاذهم من الاضطهاد الذي يتعرضون له في أوربا وانشاء دولة لهم هناك .

وهكذا تبلورت الفكرة الصهيونية في هذا المؤتمر ، ودخلت في معترك السياسة الدولية لكسب تعاطف العالم نحوها [١] ، ثم توالت بعد ذلك عقد المؤتمرات الصهيونية من أجل تحقيق أهداف اليهود في فلسطين وأمانيهم باقامة وطن لهم في فلسطين وقد تركزت خططهم علي النحو التالي :

١ ـ تشجيع استعمار فلسطين بواسطة المهاجرين اليهود خاصة من الزراع والعمال .

٢ ـ توجيه أنظار يهود العالم نحو فلسطين .

٣ ـ بذل المساعي اللازمة للحصول علي التصريحات المؤيدة لهم من الدول الكبري [٢] .

---

(١) من المفارقات أن أول مصري قابله هيرتزل كان مصطفي كامل الذي سعي إلي لقاء هيرتزل لكي يقنعه بمنح تأييده للقضية المصرية ، أنظر محمد حسنين هيكل : المفاوضات السرية بين العرب واسرائيل ، الكتاب الأول ، القاهرة ، دار الشروق ، ١٩٩٦ ، ص ٧٢.

(٢) قاسم حسن: العرب والمشكلة اليهودية ، بغداد ، المؤسسة التجارية١٩٦٤،ص٩٣-٩٤.

وقد انتهز هرتزل فرصة ظروف الأزمة المالية التي كانت تمر بها الدولة العثمانية ، وفرصة تكالب الدول الاستعمارية عليها ، وحروبها المريرة مع روسيا فعرض علي السلطان عبد الحميد حل أزمته المالية في نظير السماح لليهود بالهجرة إلي فلسطين إلا أن السلطان رفض طلبه ، وكرر هرتزل محاولته مرتين ، ولكن عبد الحميد حسم الموقف بقوله (إني لا استطيع أن أتخلي عن شبر واحد من الأرض ، فهي ليست ملك يميني بل ملك شعبي ، لقد ناضل في سبيل هذه الأرض ورواها بدمه ، فليحتفظ اليهود بملايينهم ،وإذا مزقت امبراطوريتي يوما فأنهم يستطيعون آنذاك أن يأخذوا فلسطين بلا ثمن) (١).

ونتيجة لاطماع اليهود بدأ السلطان عبد الحميد يهتم بالاوضاع في فلسطين فأدخل تعديلا على الوضع الاداري لبيت المقدس ليصبح متصرفية تابعة للباب العالي مباشرة بعد أن كان سنجقية تابعة لباشا دمشق .

وهكذا صمد عبد الحميد الثاني أمام كل الاغراءات التي حاول بها اليهود زعزعته عن مواقفه ولكن ونتيجة لضغوط الدول الكبري وافقت الدولة العثمانية علي السماح لليهود بدخول فلسطين من أجل الزيارة فقط بشرط ألا تطول مدة أقامتهم عن ثلاثين يوما ثم سمحت لهم بعد ذلك باطالة مدة إقامتهم إلي ثلاثة شهور ، ونظرا لمماطلة اليهود ، ومحاولتهم البقاء داخل فلسطين أكثر من المدة المقررة لهم ، عين السلطان عبد الحميد "محمد شريف رءوف باشا" المشهور بشدته متصرفا علي القدس وأمره بتطبيق قانون الثلاثة الشهور بصرامة .

ولم تلبث الأمور أن تطورت لصالح اليهود نتيجة لضعف الدولة العثمانية، وانشغالها بالمؤامرات الخارجية والداخلية التي تسلطت عليها فضعفت الرقابة علي اليهود في فلسطين واستغلوا ذلك في انشاء مستعمرات خاصة بهم ،

---

(١) عبد الحميد الثاني : مذكراتي السياسية ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ١٤٠٢ هـ ص ٢٤ وما بعدها .

وانشاء أول مدرسة عبرية للبنات في يافا وعلي كل حال فإنه نتيجة لفشل هرتزل في اقناع الدولة العثمانية بالهجرة اليهودية إلي فلسطين بدأ يتجه نحو بريطانيا ويعقد أماله عليها ، فشجع اليهود علي السعي لاتخاذ بريطانيا مركزا رئيسيا لنشاطهم ومقرا للكثير من مراكزهم المهمة (١).

ونتيجة لذلك تحولت بريطانيا إلي مركز للزعامة الصهيونية وتولي حاييم وايزمان زعامة الحركة الصهيونية هناك وكون جماعة سياسية كان منها "هريرت صموئيل" وبدأت في الاتصال برجال الدولة البريطانية .

والسؤال المطروح هو لماذا كثف زعماء الحركة الصهيونية نشاطهم في بريطانيا بالذات .

الواقع أن الحركة الصهيونية العالمية ركزت نشاطها خصوصا قبيل الحرب العالمية الأولي تجاه بريطانيا من أجل اقامة دولة لليهود في فلسطين لأن زعماء هذه الحركة كانوا علي بينة من تطلع الاستراتيجية البريطانية نحو فلسطين المتاخمة لقناة السويس وقد أكد ذلك الزعيم الصهيوني حاييم وايزمان بقوله (إنه إذا ما وقعت فلسطين في منطقة النفوذ البريطاني ، ثم شجعت بريطانيا استيطان اليهود في فلسطين وإقامة مجتمع يهودي يعتمد علي بريطانيا وأمكن ادخال مليون يهودي هناك في فترة تمتد من عشرين إلى ثلاثين عاما فإن هؤلاء اليهود سيطورون هذا القطر ويكونون حرسا فعالا يحمي قناة السويس، يضاف إلي ذلك أن اليهود وجدوا بين الوزارء الانجليز من يتحمس لقضيتهم امثال جورج لويد رئيس الوزراء ، وآرثر بلفور وزير الخارجية وفيما يلي نعرض لتصريح بلفور وأسبابه :

---

(١) محمود حسن صالح: تصريح بلفور ، بيروت ، دار الفكر العربي، د . ت ص ٢٧-٢٨

مقدمات صدور تصريح بلفور :

لما أطلت الحرب العالمية الأولي برأسها وكشرت عن أنيابها في عام ١٣٣٣ هـ / ١٩١٤ م انضمت تركيا إلي جانب ألمانيا وحلفائها ضد انجلترا وفرنسا وحلفائهما مما أزعج بريطانيا وجعلها تحاول كسب ود العرب لضمهم إليها من أجل تحقيق أهدافها ونجحت في ذلك إلي حد كبير .

أما عن اليهود فقد اتخذوا موقفا وسطا بين المعسكرين المتنازعين ، فبعضهم أعلن تأييده للمعسكر الألماني التركي واتصلوا بالسلطان العثماني ، وعرضوا عليه القيام بتسديد ديون الدولة العثمانية وتجنيد جيش من يهود بولونيا للمحاربة بجانب الاتراك مقابل التنازل عن فلسطين يضاف إلي ذلك قيام هؤلاء بالاتصال بالامبراطور الالماني وليم الثاني ووعودهم له بالمساندة في نظير توسطه للحصول من السلطان العثماني علي تصريح باقامة شركة يهودية تحت حماية المانيا في فلسطين ، ولكنهم لم يجدوا استجابة واضحة منه[١] .

أما الجانب الثاني فقد اتجه نحو بريطانيا وحاول أن يؤكد لها بأن موافقتها علي انشاء وطن قومي لليهود في فلسطين يساعد علي ترسيخ النفوذ البريطاني في بلاد الشرق الأوسط والهند .

وعلي كل حال فبعد أن استطاع القائد الانجليزي اللنبي دخول فلسطين في عام ١٣٣٥هـ / ١٩١٧م وضعت بريطانيا السير هربرت صمويل أحد أقطاب الصهيونية والانجليزي الجنسية مندوبا لها في فلسطين ، وقد عمل هذا المندوب علي تقريب وجهات النظر بين الانجليز واليهود بشأن فلسطين ، يضاف إلي ذلك تمكن الزعيم الصهيوني حاييم وايزمان من الاتصال باللورد آرثر جيمس بلفور ولفت اهتمامه بشئون اليهود وضرورة توطينهم في أرض

(١) منسي : المرجع السابق ، ص ٢٥.

فلسطين ونتيجة لذلك طلب بلفور من زعماء الحركة الصهيونية تقديم مشروع يوضح مطالبهم في فلسطين .

أسباب صدور تصريح بلفور :

تعددت الأقوال حول أسباب صدور هذا التصريح وأن كانت في مجملها تدور حول ما يلي :

١ ـ محاولة بريطانيا كسب عطف يهود العالم وخاصة يهود أمريكا في حربها مع المانيا حتى يضغطوا علي الحكومة الامريكية لدخول الحرب بجانب الانجليز وحتى تضمن بريطانيا فتح أسواق المال العالمية لها أثناء الحرب [١].

٢ ـ تطلع بريطانيا إلي الحصول علي اختراع عالم الكيمياء اليهودي حاييم وايزمان رئيس المنظمة الصهيونية في بريطانيا والخاص باخراج وسيلة قليلة التكاليف لانتاج مادة الاسيتون التي كانت تستعمل كمذيب للبارود ، والتي كانت بريطانيا في حاجة لها أثناء الحرب .

٣ ـ تطلع بريطانيا إلي مساندة العناصر الصهيونية في ألمانيا والنمسا لها لكي يقوم هؤلاء بدورهم المخرب من داخل هذه الدول المعادية لبريطانيا بالاضافة إلي سحب أموالهم من بنوك هذه الدول حتى يهتز اقتصادها [٢]

٤ ـ خشية بريطانيا من أن يسبقها الالمان في كسب ود اليهود واصدار وعد لهم بالاستيطان في فلسطين .

---

(١) فيشر : تاريخ أوربا في العصر الحديث ، ترجمة أحمد نجيب هاشم ووديع الضبع . القاهرة ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ، ص ٥٣٠.

(٢) عن تفاصيل أثر تصريح بلفور علي اليهود الألمان أنظر
Stein Leonard : the balfour declaration London ١٩٦١ p ٥٦٩ – ٥٧٠.

٥ – رغبة بريطانيا في جذب اليهود في صفها حتى يصبحوا اعوانا لها في منافسة فرنسا لها في بلاد الشام .

٦ – زرع دولة غربية في قلب الوطن العربي حتى تكون مصدر قلق واستنزاف دائم لأبناء الامة العربية .

٧ – محاولة ابقاء روسيا في الحرب بعد قيام الحركة الشيوعية فيها - خصوصا - وان اليهود كانوا يسيطرون علي الصناعات الروسية ولهم دور قيادي في الأحداث هناك .

٨ – رغبة بريطانيا في حماية مركزها في مصر وتأمين طرق مواصلاتها هناك، وذلك عن طريق مساندة اليهود لهم في فلسطين .

التصريح من الناحية القانونية :

وتصريح بلفور من الناحية القانونية لم يكن سوي رسالة صادرة من وزير خارجية بريطانيا إلي اللورد روتشيلد أحد أثرياء اليهود وأبرز زعماء الانجليز من الصهاينة نصها :

عزيزي اللورد روتشلد :

يسرني جدا أن أنقل لكم باسم حكومة جلالة الملك هذا التصريح المشوب بالعطف علي الأماني اليهودية الصهيونية الذي دفع إلي الحكومة ووافقت عليه .

إن حكومة صاحبة الجلالة تنظر بعين العطف إلي إقامة وطن قومي في فلسطين للشعب اليهودي وسوف تبذل أقصي جهدها لتحقيق هذه الغاية ، هذا مع العلم أن حكومة جلالة الملك لن تفعل شيئا ينطوي علي أي مساس بالحقوق

المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية في فلسطين ، ولا بحقوقهم أو مركزهم السياسي الذي يتمتعون به في البلدان الأخري [١].

وعند تحليلنا للتصريح يتضح أنه يحتوي علي شقين :

يتضمن الشق الأول عطف الحكومة البريطانية علي فكرة تأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين وبذل جهودها من أجل تحقيق هذه الغاية ، حقيقة أن التفسيرات تعددت حول مضمون التصريح علي ألسنة الزعماء البريطانيين باسلوب يرضي العرب أحيانا ويتحاشي سخط اليهود أحيانا أخري فقال بعضهم أن هذا التصريح لا يعني البدء في إنشاء وطن قومي لليهود مباشرة وأنه لم يعد اليهود بشيء محدود ملموس وقال البعض الأخر أنه منح اليهود كل شيء [٢].

وإلي جانب ذلك فإن الكنيسة الانجليزية أعربت عن معارضتها لهذا التصريح ورأت بأن ايجاد مركز لليهود في فلسطين سيكون معاديا للمسيحية[٣].

أما عن الشق الثاني من التصريح فيتضمن مساندة بريطانيا للحقوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية المقيمة في فلسطين وتجنب ذكر كلمة عرب وهذا يعني وضع عرب فلسطين في عداد الأقليات علي حين كانت نسبتهم في ذلك الوقت تزيد علي ٩٠% في حين وصف الاقلية اليهودية التي كانت تعيش في فلسطين بأنها الشعب اليهودي ، ومن هنا فالتصريح يتناقض في عباراته خصوصا وأن اليهود لم يكونوا سوي أفراد مشتتين في جميع أنحاء

---

(١) حسن صبري الخولي : سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين في النصف الأول من القرن العشرين ، المجلد الأول ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٧٣ ، ص ٢٠٩.

(٢)عن تفاصيل هذا الوعد وما سبقه من مراسلات بين بلفور واليهود انظر محمد عبد الرءوف سليم تاريخ الحركة الصهيونية الحديثة١٨٩٧- ١٩١٨ القسم الثاني ، القاهرة ، معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٧٤، ص ٢٥ . ٣٤.

(٣) محمود منسي : الشرق العربي اثناء الحرب العالمية الأولي ، ص ٢٦٦.

العالم علي حين كان العرب هم أصحاب فلسطين يضاف إلي ذلك أن هذا التصريح لم يكن له سند في القانون أو العرف الدولي وليس له في التاريخ ما يؤيده من سوابق خاصة وأن فلسطين كانت عند صدور هذا الوعد جزءا من ممتلكات الدولة العثمانية ولم يبت في وضعها بصفة دولية ومن هنا فإن الحكومة البريطانية قد أعطت لليهود ما لا تملكه ، وخولت لنفسها حق التصرف في بلد ليست لها عليه أية ولاية .

ومع ذلك فقد مضت السياسة المرحلية في تنفيذ تصريح بلفور في طريقها في غير هوادة لاقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين ، كخطوة لانشاء الدولة اليهودية وتعاونت الحركة الصهيونية مع الحركة الاستعمارية وغدت بريطانيا أداة طيعة في يد الصهاينة .

موقف العرب من تصريح بلفور :

في الوقت الذي قوبل فيه تصريح بلفور من اليهود بفرح بالغ وحماسة شديدة ، فإن العرب استاءوا عند سماعهم بهذا التصريح استياءا شديدا ، إذ رأوا فيه اعتداءا علي قطر عربي وسلبا لحقوق أهله ، وتسليمه لليهود ومن هنا سارعوا في الاتصال بالحكومة البريطانية تجاه عرب فلسطين .

وعلي الرغم من أن بريطانيا قد أكدت أنها لن تسمح باسكان اليهود في فلسطين إلا بالقدر الذي يتفق مع حقوق العرب وحريتهم السياسية والاقتصادية، فإن العرب وقد تزايدت ريبتهم نحو نوايا بريطانيا في فلسطين خاصة وأن هذا التصريح تجاهل ما سيلحق بالعرب من جراء فتح أبواب الهجرة اليهودية إلي فلسطين وتسهيل انتقال أراضيهم لليهود ، يضاف إلي ذلك أن هذا التصريح قد عمد إلي تجاهل عرب فلسطين الذين كانوا يمثلون ٩٣% من اجمالي السكان فلم يذكروا حتى بالاسم بل أشار إليهم بالجماعة غير اليهودية .

ونتيجة لذلك انعقدت العديد من المؤتمرات العربية التي أعلنت رفضها لتصريح بلفور ، وهجرة اليهود إلي فلسطين وطالبت بالغاء الانتداب البريطاني علي فلسطين واعطاء أهل فلسطين حق تقرير المصير (١).

موقف اليهود من تصريح بلفور :

عد معظم اليهود تصريح بلفور خطوة نحو تحقيق تنبئوات كتبهم المقدسة ونهاية آلالامهم وأن عودتهم إلي فلسطين أصبحت مسألة واقعية وكان من نتائج ذلك ما يلي :

١ – جمع هذا التصريح اليهود حول هدف واحد هو اقامة وطن قومي لهم في فلسطين .

٢ – اتخاذ الصهاينة من التصريح سندا قانونيا لهم في معظم تحركاتهم ، وقد أسفر عن ذلك القبول الرسمي البريطاني بتشكيل لجنة صهيونية تجسد التشكيل المدني الذي يعمل جنبا إلي جنب مع الادارة العسكرية في حكم فلسطين (٢).

وبعد أن تم للانجليز الانتداب علي فلسطين وضعوا لها صك انتداب ينص علي جعل فلسطين في حالة سياسية واقتصادية وادارية تساعد علي إنشاء وطن قومي لليهود فيها وتسهيل هجرتهم إليها ، وقد أخذ اليهود بفضل ذلك وبتسهيل وحماية الادارة الحكومية الانجليزية يهاجرون إلي فلسطين ، ويمتلكون فيها الاراضي ، ويقيمون المستعمرات وينشئون المصانع ، ويضعون يدهم علي مرافق البلاد ويحتكرون مشاريعها وكان الانجليز كلما تحرك العرب للدفاع عن كيانهم والشكوي من محاباتهم لليهود يعمدون إلي استعمال القوة ضدهم احيانا

---

(١) الجدير بالذكر أن الزعيم الصهيوني وايزمان تمكن من انتزاع اتفاق خطير من الامير فيصل بين الحسين ممثل المملكة الحجازية في ذلك الوقت تضمن اتخاذ جميع الاجراءات التي من شأنها تقديم الضمانات لتنفيذ تصريح بلفور وتشجيع الهجرة اليهودية

(٢) د . محمد عبد الرءوف سليم : المرجع السابق .

والخداع في أحيان أخري ، وفي عام ١٩٣٢ اخذ تيار الهجرة اليهودية يشتد مما جعل العرب يشعرون بخطورة الموقف فقاموا بإضراب عام طويل امتد ستة أشهر من عام ١٩٣٦ وانبثق منه ثورة قوية ازعجت الانجليز واليهود معا[1] ، فارسلت الحكومة الانجليزية لجنة عرفت باللجنة الملكية فاقترحت تقسيم فلسطين بين العرب واليهود وضم القسم المخصص للعرب إلي شرق الاردن وخصت اليهود بقسم كبير من غرب فلسطين بضم أجود الاراضي ، فثار العرب ثورة كبيرة ضد قرارات هذه اللجنة ولما كانت حالة أوروبا في أواخر عام ١٩٣٩ تنذر بنشوب الحرب فقد عمد الانجليز إلى تخدير الموقف ، فأعلنوا إلغاء التقسيم ، واعتزامهم إنشاء دولة فلسطينية واحدة يحتفظ فيها العرب بالأكثرية ، وخلال ذلك استطاع اليهود أعداد العدة لمعركة فاصلة ، فأخذوا يهربون السلاح ، ويسارعون في الهجرة إلي فلسطين حتي وصل عددهم إلي ستمائة ألف كما أخذوا يطالبون بإنشاء دولة يهودية كبري تضم جميع أنحاء فلسطين ، ولما أحس اليهود بتردد الانجليز في إجابة مطالبهم تجنبا لإغضاب العرب خلال الحرب ، أثاروا حولهم المشكلات ، وبعد أن وضعت الحرب أوزارها دعا الإنجليز إلي مؤتمر لبحث القضية من جديد فاقترحوا تقسيم فلسطين بين العرب واليهود وقد رفض العرب ذلك ورفعوا الأمر إلي هيئة الأمم المتحدة في عام ١٩٤٧ ، ولكن اليهود وأنصارهم نجحوا في بذل جهودهم داخل كواليس الهيئة حتى يتم التمكن من الأغلبية خلال التصويت علي قرار التقسيم ، ونتيجة لذلك نال قرار التقسيم أغلبية ٣٣ صوتا ضد ١٣ وامتناع عشر دول عن التصويت وكان ذلك في ٢١ نوفمبر ١٩٤٧ .

وقد رفض العرب قرار التقسيم رفضا قاطعا وأعلنوا ضرورة الجهاد ، مما جعل حبل الأمن في فلسطين يزداد اضطرابا ، ومع أن المجاهدين العرب

---

(١) دروزه : مرجع سابق ص ٦٩١ . ٦٩٢.

طلبوا السلاح من الحكومات العربية للدفاع عن فلسطين فإن هذه الحكومات لم تسعفهم بالإمدادات المطلوبة علي حين أمد الانجليز اليهود بكل مساعدة ، كما تمكنت السلطات اليهودية من استيراد السلاح ، وفتح الاعتمادات لإنشاء جيش كبير للدفاع وانتهي الأمر بتفوق عسكري لليهود نجم عنه احتلال العديد من اجزاء فلسطين واعلانهم لدولتهم في عام ١٩٤٨ وخلال ذلك اقترف اليهود العديد من الجرائم الوحشية ضد العرب العزل مما جعل العديد منهم يفرون مذعورين ، ونتيجة لذلك قررت دول الجامعة العربية ارسال كتائب من جيوشها لإنقاذ فلسطين وبعد أن بدأت هذه الكتائب في الزحف علي فلسطين تمكنت من احتلال الاقسام الشرقية والجنوبية التي لم يكن اليهود قد تمكنوا من احتلالها وعندئذ تدخلت بريطانيا والولايات المتحدة لوقف زحف القوات العربية فأرغما الدول العربية علي عقد هدنة استغلها اليهود في تقوية أنفسهم استعدادا للجولة النهائية ، ولما استأنف العرب القتال تمكن اليهود بمساعدة الضباط الانجليز الذين كانوا يعملون في الجيش الاردني من كسر الجبهة العربية المصرية والاستيلاء علي مواقع جديدة ، وعلي الرغم من عقد هدنة جديدة فقد كسرها اليهود بحركات حربية ضد الجبهة المصرية تمكنوا خلالها من الاستيلاء علي النقب ، وفي أعقاب ذلك تمكنت الدول الكبري في مجلس الأمن من إجبار مصر ثم الاردن ثم لبنان ثم سورية علي عقد هدنة دائمة مع اليهود الذين استولوا علي جميع ما خصص لهم بجانب قسم كبير مما خصص للعرب في قرار التقسيم [١] ، وهكذا فرضت السيادة اليهودية علي معظم الاراضي الفلسطينية فيما عدا اقسام متصرفية نابلس والقدس فضمت إلي الاردن ، كما عهد بقسم أخر وهو قطاع غزة إلي مصر .

---

(١) دروزه : مرجع سابق ، ص ١٩٤.

ومنذ انعاقد هذه الهدنة والعرب واليهود في صراع شديد ، نجم عنه حروب ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ ، ١٩٧٣.

الانتفاضة الفلسطينية واشراقة الأمل :

نتيجة لاذلال الصهاينة لأبناء الشعب الفلسطيني ، واستعمالهم شتي أنواع القهر والبطش والارهاب واحساس الفلسطينيين بضياع وطنهم وقهر ارادتهم وامتهان كرامتهم وتجاهل المجتمع الدولي لقضيتهم العادلة كان لابد من التضحية بالنفس والنفيس ، وإبراز حقيقة الوجود الصهيوني في فلسطين ومقدرة أبناء الشعب الفلسطيني علي مواجهة الملف الصهيوني المدجج بالسلاح .

ونتيجة لذلك حازت الانتفاضة علي عطف الرأي العام العالمي وكشفت حقيقة الكيان الصهيوني القائم علي الارهاب والجريمة وعدم التورع عن قتل الاطفال والنساء مما أبرز القضية الفلسطينية ، وشد انتباه الرأي العام العالمي، وشكل رعبا وفزعا كبيرين للسلطات الاسرائيلية التي تبين لها استحالة اعادة الامور في الاراضي المحتلة إلي ما قبل الانتفاضة فحتى داخل المؤسسة الاسرائيلية احدثت ثورة الحجارة هزة عنيفة وأربكت خطط المحافظة علي الأمر ، الواقع التي يبدو أنها كانت الاستراتيجية الاسرائيلية المفضلة خاصة لدي تكتل الليكود ، وتبدو قوة الهزة التي أحدثتها ثورة الحجارة واضحة داخل الكيان الصهيوني في الجدل الحاد الذي ثار داخل حكومة ائتلاف العمل / الليكود ، وفي المؤسسات الشعبية ، ولولا مسحة التمسك بالوحدة الوطنية التي يحاول الزعماء الاسرائيليون جاهدين الظهور بها أمام العالم لانكشفت خفايا مثيرة ونتيجة لانعكاسات الثورة الفلسطينية علي تركيبة المؤسسة الاسرائيلية الحاكمة قدم شامير ما أسماه (مبادرة جديدة) تتضمن منح الفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة حكما ذاتيا كاملا لتولي ادارة شئونهم من خلال أجهزة منتخبة علي أن تبقي المسائل المتعلقة بالأمن والسياسة الخارجية في أيدي اسرائيل وأن يكون

هذا الترتيب لفترة انتقالية مدتها ثلاث سنوات ، تبدأ بعدها مفاوضات لتحديد مستقبل هذه المناطق، وما إذا كانت سترتبط بالاردن أو باسرائيل.

وخلال الانتفاضة البطولية للشعب الفلسطيني في الاراضي المحتلة ، وردود الفعل التي اعقبتها فتحت منظمة التحرير الفلسطينية الطريق أمام امكانية تحقيق السلام في منطقة الشرق الأوسط عندما تبنت في عام ١٩٨٨ وفي دورة المجلس الوطني التاسعة عشرة قراري مجلس الأمن ٢٤٣ و ٣٣٨ اللذين يعتبرهما العالم أساسا لتسوية النزاع مما فتح الطريق أمام التسوية السلمية ، وادي إلي اعتراف العديد من الدول بالدولة الفلسطينية المعلنة .

وخلال ذلك راحت الجالية اليهودية الامريكية تتحرك باتجاه المنظمة لبدء الحوار معها مستعينة بحكومة السويد التي ابدت حماسا كبيرا لاستضافة مثل هذا الحوار (١)

وفي اعقاب ذلك أعلنت المنظمة أنها علي استعداد للتفاوض مع اسرائيل من أجل الوصول إلي تسوية سلمية ، وأنها تتعهد بالعيش في سلام معها ضمن حدود آمنة ومعترف بها دوليا ، وأنها تدين الارهاب ، ونتيجة لذلك بدأت الولايات المتحدة حوار جوهري مع ممثلي منظمة التحرير وكلف السفير الامركي في تونس بهذه المهمة ، إلا أن هذا الحوار قد انقطع بعد أن استغلت أمريكا قيام مجموعة عسكرية تابعة لأبي العباس بعملية علي شاطئ تل أبيب في مايو ١٩٨٩ ، واعتبرت هذه العملية خرقا لشروط الحوار الفلسطيني الامريكي .

---

(١) محمود عباس (أبو مازن) طريق أوسلو . موقع الاتفاق يروي الاسرار الحقيقية للمفاوضات ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٩٤ ، ص ٤٢.

وفي أعقاب حرب الخليج رأي الرئيس بوش العمل علي تنفيذ القرارات المتعلقة بالشرق الأوسط وفي السادس من مارس ١٩٩١ أعلن الرئيس الامريكي جورج بوش عن مبادرته ذات النقاط الأربعة لحل مشكلة الشرق الأوسط وهي :

١ – تطبيق القرارين ٢ ٤٢ ، ٣٣٨.

٢ – مبدأ الأرض مقابل السلام .

٣ – الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني.

٤ – الأمن والسلام لدولة اسرائيل .

وقد رحبت القيادة الفلسطينية بهذه المبادرة وقبلتها حكومة اسحق شامير بتحفظات منها رفضها مشاركة أوربا في عملية السلام ، ورفضها أن تمنح الأمم المتحدة أي دور في هذه العملية ، ورفضها فكرة المؤتمر الدولي ، ومطالبتها بمؤتمر اقليمي .

وفي مدريد ١٩٩١ كانت بداية البداية ، حيث بدأت موجة التفاؤل للوصول الي اتفاق حول الخطوط الرئيسية للحل ، وفي اعقاب ذلك بدأت المفاوضات الشاقة في واشنطن وخلالها تغيرت الأمور في اسرائيل حيث تولي حزب العمل بقيادة رابين السلطة مع ذلك فقد ظلت المفاوضات متعثرة ، ومن هنا جاءت أوسلو كقناة خلفية للتفاوض بين الفلسطينيين والاسرائيليين وفي اوسلو استطاع المسئولون النرويجيون أن يهيئوا الأجواء المناسبة للمتفاوضين حتى تم التوصل إلي الاتفاق ووضعت وثيقة لاعلان مبادئ علي ضوء ما تم من مناقشات وفيما يلي نعرض لأبرز موادها :

١ – أن الهدف من المفاوضات هو التوصل إلي اتفاق حول ترتيبات لاقامة سلطة حكم ذاتى انتقالية فلسطينية للمجلس الانتقالي الفلسطيني المنتخب لفترة مرحلية تؤدي إلي تسوية دائمة علي أساس قراري ٢٤٢ ، ٣٣٨.

٢ – لكي يتمكن الشعب الفلسطيني في الضفة وقطاع غزة من حكم نفسه وفق مبادئ ديمقراطية تجري انتخابات عامة تحت اشراف دولي .

٣ – بعد التوقيع علي اعلان المبادئ تبدأ فترة مرحلية مدتها خمس سنوات تجري خلالها مفاوضات الوضع النهائي لتغطي جميع القضايا المتبقية بما فيها القدس ، اللاجئون ، المستوطنات ، الترتيبات الأمية ، السيادة ، الحدود ، وأية قضايا أخري ذات الاهتمام المشترك .

٤ – بعد التوقيع علي اعلان المبادئ يبدأ نقل السلطة من الحكومة العسكرية الاسرائيلية والادارة المدنية الاسرائيلية إلي الفلسطينيين .

وبعد أخذ ورد من الحكومة الاسرائيلية والقيادة الفلسطينية وافق الاسرائيليون علي الانسحاب من غزة ، وكان رأي ياسر عرفات أن القطاع لا يكفي ، ولا بد من أن ينسحبوا من مكان أخر في الضفة الغربية ، ومن هنا برز تعبير (غزة - أريحا) كمشروع متكامل مما فتح الباب علي مصراعيه لبحث العلاقة بين المنظمة واسرائيل وكان نقله مميزة في بنود اعلان المبادئ واختبارا دقيقا لنوايا اسرائيل ومصداقيتها ، وخلال ذلك طرح الوفد الاسرائيلي النقاط التالية :

١ – الاعتراف بحق اسرائيل بالوجود بأمن وسلام .

٢ – القبول بالقرارين ٢٤٢ ، ٣٣٨ .

٣ – القبول بالتفاوض حول المرحلة الانتقالية والمرحلة النهائية والتفاوض هو الطريق الوحيد للوصول إلي تسوية سياسية .

٤ – نبذ الارهاب .

٥ – وقف كافة أعمال العنف والارهاب .

٦ ـ الغاء مواد الميثاق التي تتناقض مع حق اسرائيل في الوجود أو تتعارض مع هذه البنود .

٧ ـ استعداد ياسر عرفات بصفته رئيس منظمة التحرير لقاء أي مسئول اسرائيلي .

وبعد مناقشة الجانب الفلسطيني للنقاط الاسرائيلية وافق علي بعضها وتحفظ علي البعض الأخر مثل الغاء مواد ميثاق المنظمة التي تنفي حق اسرائيل في الوجود بحجة أن ذلك من حق المجلس الوطني الفلسطيني ، كذلك فإن الاشارة إلي وقف الانتفاضة والاحتلال لا يزال قائما يصعب تبريره ومن هنا جري الاتفاق بأن عرفات يطالب في أحد خطاباته الجماهير الفلسطينية بالالتفاف إلي البناء والعمران والهدوء كتعبير عن المطالبة بوقف الانتفاضة .

وفي ١٩٩٣/٩/١٣ م تم التوقيع علي اعلان المبادئ في واشنطن ، فوقع عن الجانب الاسرائيلي شمون بيريز وزير الخارجية ، ووقع محمود عباس أبو مازن عن الجانب الفلسطيني بحضور عرفات ورابين [١] ، والجدير بالذكر أن اتفاق المبادئ لا يوجد في أي بند من بنوده اقامة دولة فلسطينية مستقلة بل اتفق علي حكم ذاتي انتقالي يشمل الضفة الغربية وغزة ، وأن المرحلة الانتقالية لا تتوقف علي ما يسمي بخيار غزة اريحا وإنما يشمل كل الضفة الغربية وقطاع غزة .

وقد نصت المادة السابعة من الاتفاق علي اقامة عدد من السلطات الخاصة بالكهرباء والميناء والبيئة والصادرات والاراضي والمياه ، وكلها سلطات فيها الكثير من سمات السيادة بالنسبة للشعب الفلسطيني وسارت الأمور إلي الحل بشكل طبيعي حتى تغيرت حكومة حزب العمل ، وحل محلها حكومة

---

(١) للتفاصيل أنظر أبو مازن : طريق أوسلو.

اليكود بزعامة بنيامين نتنياهو وتعثرت مسيرة السلام نتيجة لاصرار حكومة نتيناهو علي بناء المستوطنات ورفضها لاتفاقيات السلام الموقعة مع السلطة الفلسطينية واعرابها عن رغبتها في عدم تنفيذ إتفاقيات اوسلو وعدم الانسحاب من الاراضي الفلسطينية المحتلة ونتيجة لهذه المماطلات وتدخل الدول الكبرى خاصة الولايات المتحدة لحل الأزمة عقدت عدة إتفاقيات لبناء الثقة بين الطرفين منها اتفاق غزة أريحا عام ١٩٩٤، واتفاق طابا أوسلو ٢ عام ١٩٩٥ واتفاق وادى ريفر عامى ١٩٩٨،١٩٩٩ وقمة كامب ديفيد بين عرفات وايهود باراك والرئيس كلينتون عام ٢٠٠٠، ومؤتمر طابا فى يناير ٢٠٠١، ومبادرة السلام العربية ٢٠٠٢، وخارطة التاريخ فى ابريل ٢٠٠٣، وقمة أنابوليس فى نوفمبر ٢٠٠٧ التى وقعت بين محمود عباس وايهود أولمرت فى الولايات المتحدة ولكن كل هذه المحاولات تعثرت أمام التصلب الاسرائيلى وتمسك الفلسطينيين بحقوقهم.

وتواصل مصر جهودها من أجل تقريب وجهات النظر بين الطرفين ، واقناع اسرائيل باهمية السلام القائم علي العدل وحتى الآن تراوغ اسرائيل وتناور من أجل ابتلاع الحق الفلسطيني والسير علي الأشواك والتلويح بآلة الحرب وفي النهاية يمكن القول أنه إذا كان الباعث الديني يلقي التقدير لدي جميع المؤمنين فلماذا لا تكون فلسطين قبله للمؤمنين جميعا.

الفصل السادس
من قضايا المغرب العربي ومراحل كفاحه
من اجل الاستقلال

- الجزائر في التاريخ الحديث والمعاصر
- ليبيا في التاريخ الحديث والمعاصر
- تونس من السيطرة الاستعمارية إلي الاستقلال
- المغرب في التاريخ الحديث والمعاصر

١ ـ الجزائر تحت الحكم العثماني :

تعد الفترة العثمانية من تاريخ الجزائر الحديث فترة مهمة وحاسمة فمنذ عام ١٥١٨م اصبحت الجزائر جزءا من أملاك الدولة العثمانية وذلك بعد أن استنجد خير الدين بربروسا [١] بالسلطان سليم الأول العثماني [٢] بعد أن تعرضت بلاده للغزو الأسباني وأرسل إليه القاضي أبو العباس أحمد بن قاضي [٣] لتصوير أوضاع المسلمين المتردية في الجزائر ، وعرض ابعاد القضية عليه ، ومطالبته بربط مصير الجزائر السياسي بالدولة العثمانية ، وتقديم المساعدات العسكرية لها حتى لا تتكرر كارثة الاندلس وحتى تتمكن من قيادة عمليات الجهاد الديني ضد الاسبان خصوصا وأن النزاع بين بني مرين وحكام تلمسان قد أدي إلي توغل الاسبان في السواحل الجزائرية وقد نجحت البعثة الجزائرية في تحقيق أهدافها حيث سارع السلطان سليم الأول بارسال قوة من سلاح المدفعية العثمانية مع ألفين من الجنود الانكشارية إلي الجزائر ، كما سمح بالتطوع لمن يشاء من رعاياه من المسلمين ، والانخراط في صفوف المجاهدين يضاف إلي ذلك أنه أعطي خير الدين بربروسا رتبة بيكلربيك افريقية أي بك بكوات المغرب [٤] ، والتي تخول لصاحبها العديد من الاختصاصات كما أعطاه لقب قبودان باشا الذي أتاح له قيادة الاساطيل العثمانية ، وقيادة القوات المسلحة ونتيجة لذلك دخلت الجزائر رسميا تحت السيادة العثمانية [٥] ، وتحقق لبربروسا الحصول علي القوات اللازمة لصد الهجوم الاسباني علي بلاده [٦] ، وتوجيه العديد من الضربات القوية للسواحل الاسبانية وإلي جانب ذلك أصبح بربروسا الحارس الأمامي للدولة العثمانية في الحوض الغربي للبحر المتوسط ، كما عهد إليه السلطان سليمان القانوني بفتح تونس ، وقد تمكن من ذلك بعد أن طرد منه

---

(١) عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها، ج ٢ ، القاهرة ، الانجلو المصرية ، ١٩٨٠ ، ص ٩٠٧.

(٢) أرجمند كوران : السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر ، ترجمة عبد الجليل التميمي ، تونس ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٤ ، ص ١٧.

(٣) للتفاصيل وحول رغبة خير الدين بربروسا في الذهاب إلي استنبول بنفسه ثم عدوله عن ذلك ، وارساله بمبعوث شخصي له إلي السلطان سليم ، أنظر : المجلة التاريخية المغربية ، تونس ، العدد السادس ، يوليو ١٩٧٦ ، مقال للدكتور عبد الجليل التميمي تحت عنوان (أول رسالة من أهالي مدينة الجزائر إلي السلطان سليم) .

(٤) جلال يحيي : المغرب الكبير ، ج ٣ ، العصور الحديثة وهجوم الاستعمار ، بيروت دار النهضة العربية ، ١٩٨١ ، ص ٢٥ ـ ٢٦.

(٥) الشناوي : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٩١١ ـ ٩١٢.

(٦) محمد فريد : تاريخ الدولة العثمانية ، تحقيق احسان حقي ، بيروت ، دار النفائس ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨١ م ، ص ٢٣١.

المولي حسين حليف الاسبان[١] ، وأعلنت تونس ولاية تابعة للدولة العثمانية [٢] ، ونتيجة لذلك قدم بربروسا للاسلام خدمات جليلة خاصة وأنه قام بدور رائع في الدفاع عن الاسلام وعروبة شمالي افريقية ، ومع ذلك فإن بعض المؤرخين والباحثين المسلمين ساروا علي اقوال المؤرخين الاوروبيين دون روية ، فاتهموا بربروسا وسكان شمالي افريقية بالقرصنة خلال دفاعهم عن بلادهم ، والحقيقة أنهم مجاهدون اسلاميون وليسوا بقراصنة [٣].

وعلي أية حال فبعد أن هبطت حدة الصراع بين الدولة العثمانية واسبانيا في شمالي افريقيا واطمأن العثمانيون لابعاد اخطار الغزو الصليبي عن تلك الاقطار الاسلامية ، بدأت سلطة الدولة في التراخي والدخول في دور الاضمحلال فاصبحت السلطة الحقيقة في أيدى رؤساء القوات غير النظامية ولم يصبح للسلطان العثماني سوي السيادة الاسلامية فقط فمنذ سنة ١٦٧١ م اصبح الحاكم الملقب بالداي والذي يتم اختياره عن طريق الانتخاب هو المتقلد الرسمي لامور الحكم ، ونتيجة للسلطات الواسعة التي اعطيت للدايات تحولت الجزائر تدريجيا إلي دولة شبه مستقلة فقد كان من حق الدايات عقد المعاهدات مع الدول الاجنبية دون الرجوع إلي السلطان العثماني، ولم تكن ايرادات البلاد يرسل منها شيء إلي الاستانة بل كانت تصرف في معظمها داخل الجزائر [٤].

وخلال القرن الثامن عشر الميلادي شهدت الجزائر انهيارا اقتصاديا بسبب كساد الحركة التجارية نتيجة لحصار بعض الدول الاوربية للشواطئ الجزائرية كما شهدت فوضي سياسية بسبب النزاع بين الدايات ، وبعض رجال الجيش من جهة ، وقراصنة البحر من جهة أخري مما أدي إلي اضطراب الأمن ، وفقدان الدايات السيطرة علي أمور بلادهم وعقدهم للمعاهدات مع بعض الدول الاوروبية مما كان له أثره في زيادة النفوذ الاوروبي في الجزائر [٥].

ونتيجة لتردي العلاقات بين فرنسا وأوجاق الجزائر في عهد امبراطورية نابليون [٦] ، راودت نابليون بونابرت في عام ١٨٠٨ م فكرة الاستيلاء علي الجزائر ، فكلف أحد ضباطه بوضع خطة عسكرية لمشروع حملة فرنسية علي الجزائر ، وقد قام هذا الضابط بكتابة تقرير للسلطات الفرنسية أوضح فيه امكانية الاستيلاء علي

---

(١) جلال يحيي : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٢٦ ، وكوران ، المرجع السابق ص ١٢.
(٢) الشناوي : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٩١٤ ـ ٩١٥.
(٣) نفسه ص ٧٦٥
(٤) شوقي الجمل : المغرب العربي الكبير في العصر الحديث ، القاهرة ، الانجلو المصرية، الطبعة الأولي ١٩٧٧ ، ٢٥٤.
(٥) رأفت الشيخ: في تاريخ العرب الحديث، القاهرة، دار الثقافة ، الطبعة الأولي، ١٩٧٥م ص٣٨٥
(٦) كوران : المرجع السابق ، ص ٢٠.

الجزائر ، وأشار إلي الأماكن التي تصلح لانزال الجنود الفرنسيين والطرق والآبار التي يمكن أن يستخدمها رجالات الحملة [١].

وعلي الرغم من أن هذا التقرير قد حفز نابليون علي الاستيلاء علي الجزائر فأن الظروف الدولية في ذلك الوقت لم تسمح له بتحقيق هذه الاطماع.

الاحتلال الفرنسي للجزائر ١٨٣٠ أسبابه ودوافعه :

ترجع دوافع الاحتلال الفرنسي للجزائر إلي أسباب كثيرة منها أسباب مباشرة وأخري غير مباشرة وفيما يلي نعرض لهذه الأسباب :

أولاً : الاسباب غير المباشرة :

١ ـ استياء الشعب الفرنسي من ملكية شارل العاشر نتيجة لما عرف عنه من تسلط واستبداد ، ورغبة ذلك الملك في احراز نصر خارجي لتخفيف الاستياء العام ، وجعل أنظار الفرنسيين تتجه الي الخارج حتى يتم تعطيل انفجار الثورة ضده [٢] .

٢ ـ التنافس الدولي علي البحر المتوسط ، ورغبة فرنسا في حسم الموقف لصالحها[٣]

٣ ـ رغبة كبار الملاك الفرنسيين في امتلاك الاراضي الجديدة حتى تعوضهم عما فقدوه بعد هزائم بلادهم وفقدانها معظم أجزاء امبراطوريتها الأولي فيما وراء البحار وتنازلها لانجلترا عن معظمها مما جعلها تفكر في احتلال الجزائر [٤].

٤ ـ العوامل الدينية والتي منها رغبة الكنيسة في فتح الابواب لنشر النصرانية في شمالي افريقية[٥]. ورغبة فرنسا في اظهار نفسها بالحامية الكبري للبابوية والمدافعة عن مصالحها [٦].

٥ ـ انتهاز فرصة فقدان الدولة العثمانية لاسطولها في موقعة نفارين البحرية ١٨٢٧م ومحاولة فرنسا اقتطاع الجزائر من املاك العثمانيين.

٦ ـ الدوافع الاقتصادية والتي من بينها رغبة فرنسا في الحصول علي المواد الأولية وايجاد الاسواق لمصنوعاتها وتوظيف رؤوس اموالها في المستعمرات.

ثانياً : السبب المباشر :

---

(١) مسعود مجاهد الجزائري: أضواء علي الاستعمار الفرنسي للجزائر-القاهرة دار المعارف ص١١

(٢) رأفت الشيخ : المرجع السابق ، ص ٣٨٦.

(٣) شوقي الجمل : المرجع السابق ، ص ٢٥٤.

(٤) نفسه ص ٢٥٥.

(٥) رأفت الشيخ : المرجع السابق ، ص ٣٨٧ ـ ٣٨٨.

(٦) محمد علي دبور: نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، المطبعة التعاونية، ١٣٨٥هـ ص٥

يرجع هذا السبب إلي مماطلة فرنسا في دفع المستحقات التي عليها للجزائر نظير اثمان الحبوب التي استوردتها منها [1] ، ومحاولة الداي معرفة سبب هذه المماطلة من القنصل الفرنسي في الجزائر ، "ديفال" الذي أجاب علي الداي بطريقة جافة تحمل بين جنباتها ترفع ملك فرنسا عن مكاتبته مما أثار ثائرة الداي ودفعه إلي أن يصرخ في وجه القنصل ملوحا له بالخروج من مجلسه ثم ضربه بمروحة كانت في يده ثلاث مرات وكان ذلك في ٢٩ ابريل ١٨٢٧ م [2] ، كما طالب الداي فرنسا باستدعاء قنصلها وتبديله بقنصل أخر يكون موضع ثقته ، ولكن وزير خارجية فرنسا اعترض علي ذلك وطالب حكومته بمحاصرة شواطئ الجزائر البحرية حتى يقوم الداي بالاعتذار عما لحق بالقنصل الفرنسي من أهانة [3] ، والانتقام لكرامة التاج الفرنسي ولكن فرنسا أملا منها في الوصول إلي حل سلمي يريق ماء وجهها ظلت مترددة في اتخاذ موقف حربي حاسم يبعد عن كاهلها النفقات العسكرية التي يتطلبها اعلان الحرب علي الجزائر [4] ، فارسلت في يونيو ١٨٢٧ اربع سفن حربية إلي الشواطئ الجزائرية ووجهت انذارا إلي الداي كانت أهم بنوده الترضية الكاملة عما لحق بفرنسا من أهانة ، وتقديم كافة الضمانات التي تحول دون تعرض السفن لأية اجراءات تفتيشية من السفن الجزائرية ، وأن تتمتع فرنسا في الجزائر بحق الدولة الأكثر رعاية ، وأن يعلن الداي أن حكومة فرنسا قد أوفت بالتزاماتها المالية تجاه الجزائر ، وأنه ليس له أي حق قبلها [5] .

وقد هددت فرنسا باعلان الحرب علي الجزائر في حالة رفضها لشروط الانذار ، ومع ذلك فقد رفض الداي الانذار الفرنسي واصر علي التمسك بموقفه ، واخذ يتهكم علي المطالب الفرنسية بقوله (لم يبق إلا أن يطلبوا امرأتي) [6]

ونظرا لأن قيام فرنسا بعملية حربية ضد الجزائر اصبحت شبه مؤكدة[7] ، أبلغت فرنسا الدولة العثمانية بأن والي الجزائر الذي أظهر عداءا واضحا للفرنسيين بتحقيره لقنصل فرنسا ، ورفضه تقديم الترضية العلنية قد جعل الحرب محققة بين فرنسا والجزائر ، ولما كانت الدولة العثمانية منشغلة في مشاكلها في جزيرة المورة ، ولا تنوي اضافة أعباء أخري تضاف إلي همومها فقد تباطأت في حسم الموقف

---

(١) مسعود مجاهد : المرجع السابق ، ص ١٢.
(٢) رأفت الشيخ : المرجع السابق ، ص ٣٨٧.
(٣) شوقي الجمل : المرجع السابق ، ص ٢٥٦.
(٤) رأفت الشيخ : المرجع السابق ، ص ٣٨٨.
(٥) شوقي الجمل : المرجع السابق ، ص ٢٥٧.
(٦) صلاح العقاد : المغرب العربي ـ دراسة تاريخية في تاريخه الحديث وأوضاعه المعاصرة ، القاهرة ، الانجلو المصرية ، ص ٨٢.
(٧) كوران : المرجع السابق ، ص ٢٣ ـ ٢٤.

بالطريقة المناسبة مما أعطي لفرنسا فرصة الانفراد بالأمر ، وخلال هذه الفترة بدأت فرنسا في البحث عن حلول اخري تجنبها نفقات الحرب ، وفي نفس الوقت تجعل المسلمين يقاتلون بعضهم بعضا فاقترح Drovetti [١] قنصل فرنسا في الاسكندرية قيام محمد علي والي مصر بحملة علي الجزائر بمساندة فرنسا لتأديب الداي والقضاء علي حكومته ، واحتلال الجزائر وضمها إلي أملاكه علي أن يكون لحليفته فرنسا امتيازات واسعة في هذه البلاد [٢].

ولما فوتح محمد علي في الأمر تردد في البداية خشية فقدان ثقة العالم الاسلامي فيه وقال للقنصل الفرنسي (أنتم مسيحيون أما نحن والجزائر فمسلمون ، وسماع أقوال كتلك ونحن ذوو دين وأمة وشريعة ودولة واحدة ، لا يتلاءم مع ديننا ودولتنا [٣] ، ولكن سرعان ما عدل محمد علي عن رأيه ووافق علي فكرة القيام بحملة لتأديب الداي بشرط أن تدفع له فرنسا مبلغا ماليا ، ودعما بحريا [٤] يمكنه من اعادة بناء اسطوله الذي تحطم في موقعة نفارين البحرية عام ١٨٢٧ م [٥].

وفي محاولة من محمد علي لتكشف الموقف أرسل إلي الداي خطابا ينصحه فيه ويحذره من العواقب الوخيمة إذا أصر علي موقفه المعادي لفرنسا ، وكان رد الداي عليه فليذهب محمد علي ليأكل الفول [٦] وحتي يأخذ مشروع محمد علي بالحملة علي الجزائر شكلا رسميا لا تعترض بريطانيا أو غيرها عليه رأت فرنسا ضرورة أخذ موافقة السلطان العثماني علي المشروع [٧] ، وعندما تسرب الخبر إلي الانجليز اعترضوا عليه وحرضوا السلطان العثماني ضده ، كما حذرت بريطانيا محمد علي الذي بدأ يرتبط بالمصالح الفرنسية من الاقدام علي هذا العمل [٨] وإلى جانب ذلك فقد ثارت الدول الاوربية ضد هذا المشروع كما عارضت الدولة العثمانية عارضت امتداد نفوذ محمد علي إلي شمالي افريقية وازاء هذه العقبات أغمضت فرنسا أعينها عن هذا المشروع وظلت تتحين الفرص المواتية للقيام بنفسها بحملة عسكرية ضد الجزائر والانفراد باحتلالها [٩] وقد جاء الوقت المناسب لذلك عندما انشغلت بريطانيا

(١) نفسه ص ٢٩.
(٢) رأفت الشيخ : المرجع السابق ، ص ٣٨٨.
(٣) كوران : المرجع السابق ، ص ٣٥.
(٤) شوقي الجمل : المرجع السابق ، ص ٢٥٩.
(٥) رأفت الشيخ : المرجع السابق ، ص ٣٨٨.
(٦) عبد الرحمن الجيلاني : تاريخ الجزائر العام ، ج ٣ ، بيروت ، دار الثقافة ، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠م ص ٣٧٥.
(٧) كوران : المرجع السابق ، ص ٢٩.
(٨) جلال يحيي : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ١٠٥.
(٩) كوران : المرجع السابق ، ص ٤٥.

بالانقلاب النيابي الذي حدث فيها خلال ذلك الوقت (١) ، وانشغلت الروسيا وبروسيا والنمسا بالثورات التي اندلعت في ايطاليا وبولنده في تلك الفترة (٢) ، فتذرعت فرنسا أمام الرأي العام الاوربي أنها تدافع عن قضية أوربية تدعم من خلالها قواعد العدل (٣) ، وأصدر ملكها قرارا في ٧ فبراير ١٨٣٠ باعلان التعبئة العامة ثم صدرت الأوامر بعد ذلك بغزو الجزائر فأبحر الاسطول الفرنسي من ميناء طولون (٤)، في شهر مايو من نفس العام وهو يحمل ٢٠ ألفا من رجال البحرية وقام الجيش الفرنسي المكون من ٣٧٦٠٠ مقاتل ، ٩١ قطعة مدفعية بغزو الجزائر (٥) ، ونتيجة لذلك عهد الداي إلي صهره ابراهيم أغا بقيادة القوات المدافعة ، وقد دافع الجزائريون عن بلادهم دفاعا مجيدا استطاعوا خلاله حصر الزحف الفرنسي في شريط ساحلي لا يشمل كل الشواطئ الجزائرية ومرت ثلاث سنوات دون أن يستطيع الفرنسيون من فرض سيطرتهم علي أكثر من بضع مواني ساحلية بينما أصبح داخل البلاد في أيدي الزعماء ورؤساء القبائل (٦) .

وخلال الفترة من ١٨٣٠ إلي ١٨٣٩ قامت سياسة فرنسا في الجزائر علي فكرة الاحتلال المحدود المقتصر علي الساحل دون الداخل ثم تحولت هذه السياسة إلي التوغل في الداخل فنجح الفرنسيون في احتلال سيدي فرج والوصول إلي مدينة الجزائر ، ومهاجمة قلعة السلطان ، وحصن الفصبة ، واشعال النار في مخازن الذخيرة ولما رأي الداي تحول الموقف في غير صالحه حاول الحصول علي صلح مشرف مع الفرنسيين ووسط في ذلك قنصل بريطانيا (٧) ، ولكن الفرنسيين رفضوا هذه الوساطة واصروا علي فرض شروطهم والتي كان من أهمها ما يلي :

١ –تسليم حصن القصبة ، وجميع حصون مدينة الجزائر وأبوابها للفرنسيين.

٢ – ضمان القائد الفرنسي حماية الداي وممتلكاته الشخصية .

٣ – ترك الحرية للداي في الاقامة أو الرحيل إلي أي مكان يريده .

٤ – عدم اتخاذ أي اجراءات ضد الجنود الجزائريين .

---

(١) الشناوي : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٩٥٥.
(٢) مسعود الجزائري : المرجع السابق ، ص ٤.
(٣) الجيلالي : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٣٨٠.
(٤) جلال يحيي : المرجع السابق ، ص ١٠٨.
(٥) كان من المتوقع أن ارسال جيش فرنسي إلي الجزائر سيؤدي إلي اشغال أفكار الشعب الفرنسي عن مشاكله الداخلية ، بيد أن دخول هذا الجيش إلي الجزائر لم يحدث التأثير المتوقع في فرنسا بل أدي بعد ذلك إلي الاطاحة بملكية شارل العاشر ، كوران: المرجع السابق ، ص ٢٢.
(٦) رأفت الشيخ: المرجع السابق، ص ٣٨٩، وجلال يحيي: المرجع السابق ، ص ٨١ وما بعدها
(٧) الجمل : المرجع السابق ، ص ٢٦١.

٥ ـ كفالة حرية الجزائريين في اقامة شعائرهم وصيانة ممتلكاتهم وتجارتهم وصناعتهم والمحافظة علي اعراضهم [١].

وقد وافق الداي علي هذه الشروط التي تضمنت متطلباته وقرر مغادرة مدينة الجزائر هو واسرته إلي نابلي بايطاليا ، ونتيجة لذلك انتهت أخر مظاهر التبعية للعثمانيين في الجزائر [٢] ، ووقعت اعباء المقاومة علي الشعب الجزائري نفسه ، وبدأ الاستعمار الفرنسي الرسمي في الجزائر ، وأخذ الفرنسيون في استغلال موارده مستخدمين في ذلك شتي السبل والوسائل للوصول إلي أهدافهم [٣] ، كما حاولوا التقرب إلي رؤساء القبائل في محاولة لكسب اعترافهم بالسيادة علي أقاليمهم ولكن تصميم الشعب الجزائري علي استقلال بلاده جعل مهمة الفرنسيين شديدة الصعوبة [٤] .

وفي خلال هذه الفترة برزت مقاومة "أحمد باي" ضد الفرنسيين في قسطنطينة وكانت له مع الجند الفرنسي وقائع وطنية مشرفة ، ولكن رغبته في الانفراد بالسلطة جعل دوره محدودا [٥] ، كما أن احتلال الفرنسيين لمدينة قسطنطينة في عام ١٨٣٧ كان وراء نهاية المقاومة المنظمة لقواته [٦] ، فانتقلت الامور من يده إلي الأمير عبد القادر الجزائري الذي تعتبر ثورته الحلقة الرئيسية في تاريخ المقاومة الجزائرية ضد الفرنسيين [٧] ، فحمل راية الكفاح في غرب الجزائر ، و منع فرنسا من فرض سيطرتها علي داخلية البلاد وخاصة في مقاطعتي وهران وقسطنطينة واتخذ من مدينة معسكر عاصمة له ، وبدأ في مد سلطانه علي القبائل المناهضة له ، وجعل منها جبهة واحدة تحت سيادته وبعدها بدأ في قتال الفرنسيين وأجبرهم علي التقهقر إلي السواحل الشمالية الجزائرية والاكتفاء باحتلال بعض النقط الساحلية [٨] .

ويمكن تقسيم نضال الجزائريين بقيادة الأمير عبد القادر إلي ثلاث مراحل تنتهي كل منها بمعاهدة المرحلة الأولي ، وقد أجبر الأمير عبد القادر فيها الفرنسيين علي عقد معاهدة ١٨٣٤م التي نصت علي الاعتراف بكل غرب الجزائر عدا ثلاث مدن ساحلية تحت قيادته .

المرحلة الثانية : وفيها اعترف الفرنسيون بسلطة الامير عبد القادر في غرب الجزائر ، ووقعوا معه معاهدة في ١٨٣٧ م نصت علي تبادل الممثلين والمندوبين بين

---

(١) مسعود مجاهد : المرجع السابق ، ص ٨٤.
(٢) الجمل : المرجع السابق ، ص ٢٦١
(٣) للتفاصيل أنظر : جلال يحيي : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ١٢٢ ـ ١٢٣.
(٤) بسام العسيلي : المقاومة الجزائرية للاستعمار الفرنسي ، بيروت ، دار النفائس ، ١٤٠٠ هـ
(٥) شوقي الجمل : المرجع السابق ، ص ٣٦٥.
(٦) مسعود مجاهد : المرجع السابق ، ص ٩١.
(٧) العقاد : المرجع السابق ، ص ٩٩.
(٨) جلال يحيي : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ١٤٠.

الطرفين، وقد استمرت هذه المعاهدة عامين نشب بعدها قتال بين الطرفين وتقهقر خلاله الأمير عبد القادر واضطر إلي اللجوء لمراكش ، والاستنجاد بسلطانها ، ولكن سلطان مراكش خشي من عاقبة الأمور خاصة بعد تهديد فرنسا له بغزو بلاده ، وفضل كف يده عن مساعدة عبد القادر وطالبه بالخروج من بلاده وعلي الرغم من ذلك فأن حركة النضال الجزائرية لم تتوقف بل ازدادت اشتعالا فواجه الأمير عبد القادر الفرنسيين دون انتظار المعونة من أحد وحقق الجزائريون خلال ذلك العديد من الانتصارات التي اذهلت الفرنسيين وكانت السنوات من ١٨٤٥ إلي ١٨٤٦ من أصعب الفترات التي قضتها القوات الفرنسية في الجزائر .

أما عن المرحلة الثالثة من مراحل جهاد الأمير عبد القادر والتي استمرت حتى عام ١٨٤٧م ، فقد اتبعت فيها فرنسا سياسة تطبيق الاحتلال الشامل ، ومحاولات اخضاع الجزائريين علي طريق المواجهات العسكرية ، والارهاب التي انتهت باستسلام الأمير عبد القادر في ٢٤ من رجب ١٢٦٣هـ / ٨ يوليو ١٨٤٧ ونفيه إلي دمشق (١) ، هو وأسرته بعد أن أمضي خمسة عشر عاما في الجهاد ضد الفرنسيين (٢)

وبعد استسلام الأمير عبد القادر أعلنت فرنسا أن الجزائر أصبحت جزءا لا يتجزأ من الاراضي الفرنسية (٣) ، وعمدت إلي القضاء علي هويتها العربية وشخصيتها الاسلامية ومع ذلك لم يتوقف النضال فثار الجزائريون ضد فرنسا (٤) ، وكانت أهم ثوراتهم ثورة محمد المقراني الذي أنضم إليه حوالي مائة ألف مقاتل ، واستطاع أن يكتسح القوات الفرنسية ويستولي علي العديد من المناطق ، وساعده علي ذلك تطور الأمور في اوربا في غير صالح فرنسا نظرا لهزيمتها من المانيا في "سيدان" وسقوط الامبراطورية الفرنسية وزحف الجيش الألماني علي باريس ، واضطرار فرنسا لعقد صلح فرنكفورت مع المانيا ونتيجة لذلك عمت الثورة في الجزائر ضد الفرنسيين ودارت العديد من المعارك التي ارتكبت فيها القوات الفرنسية شتي أنواع الجرائم ، واستشهد فيها ما يقرب من ستين ألف جزائري ، ومع ذلك لم تتوقف الثورة إلا بعد استشهاد المقراني في ١٨٧١/٥/٥ وسقوط أخيه اسيرا في العام الذي بعده .

(١) للتفاصيل انظر : لوثروب ستودارد : حاضر العالم الاسلامي ، ترجمة عجاج نويهض، بيروت، دار الفكر ، الطبعة الرابعة ، ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٣ م ص ١٧٢.

(٢) جلال يحيي : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ١٧٨.

(٣) اسماعيل ياغي ومحمود شاكر : تاريخ العالم الاسلامي الحديث والمعاصر .

(٤) عن هذه الثورات أنظر : انتوني نتنج : العرب وانتصاراتهم وأمجاد الاسلام ، ترجمة راشد البراوي ، القاهرة ، الانجلو المصرية ، ١٩٧٤ م ص ٣٦٢.

ومع أن نضال الشعب الجزائري لم يتوقف ، فقد اتجه اتجاها أخر ، وهو النضال السياسي فتأسست لجنة وطنية في عام ١٩١٠ برئاسة المحامي (أبو دربه) وقد سعت هذه اللجنة إلي الارتباط بالحركات التحررية القائمة في العالم الاسلامي وقتذاك.

وفي اعقاب الحرب العالمية الأولي وأثناء انعقاد مؤتمر الصلح في باريس تبني بعض الضباط الجزائريون برئاسة خالد الهاشمي فكرة حضور المؤتمر والمطالبة بمنح الجزائر حق تقرير مصيرها كما تأسست منظمة نجمة شمال افريقيا في عام ١٩٢٦ للمطالبة باستقلال الجزائر والدفاع عن مصالح مسلمي شمال افريقيا وتاسيس جيش وطني وحكومة وطنية وقد نشأت هذه الجماعة من المهاجرين الجزائرين الباحثين عن العمل والهاربين من ضيق العيش بالجزائر إلي فرنسا وكان بينهم "مصالي الحاج" المسمي أبو الحركة الوطنية الجزائرية ، هذا إلي جانب قيام "عباس فرحات"(١) ، بتأسيس حزب الاتحاد الشعبي الجزائري ، للمناداة بحقوق الانسان والمواطن وحزب البيان ثم حزب اصدقاء البيان الجزائري الذي أصدر بيانا في فبراير ١٩٤٣ م طالب فيه باقامة جمهورية جزائرية داخل الاتحاد الفرنسي ونتيجة لقيام السلطات الفرنسية بابعاد عباس فرحات اتجه الشباب الجزائري للكفاح المسلح من جديد.

وخلال احتفال دول العالم بنهاية الحرب العالمية الثانية وسقوط النازية والفاشية خرج الشعب الجزائري في ١٣٦٤/٥/٢٤ هـ الموافق الثامن من مايو ١٩٤٥ في مظاهرات شعبية سلمية حاملا باقات الزهور باحدي يديه لوضعها علي مقابر الشهداء ، ورافعا بيده الأخري اللافتات والاعلام المطالبة بالحرية وتقرير المصير(٢) إلا أن السلطات الفرنسية التي راعها أن تشاهد راية الحرية ترفرف أرض الجزائر تدخلت لقمع المظاهرات ، وبدأت مجزرة رهيبة استخدمت فيها القوات الفرنسية مختلف أنواع الاسلحة من بنادق ورشاشات ودبابات ومصفحات وحتي الطائرات (٣) ، واحتدمت المعارك بين الشعب الجزائري الأعزل من السلاح والجيش الفرنسي سقط خلالها ما يزيد عن ٤٥ الف من الشهداء كما تم القبض علي النقابيين وعلي أعضاء الحزب الشعبي وقدموا للمحاكمة العسكرية ونتيجة للبطش الفرنسي بالجزائريين شكلت في عام ١٩٤٧ م تنظيمات سرية تخمضت في النهاية عن ظهور (جبهة التحرير الوطني الجزائري) التي استطاعت أن تفجر الثورة الكبري في عام ١٩٥٤ م وقد انضم إلي هذه الجبهة معظم الاحزاب السياسية كما انضم إليها بجانب الشباب

---

(١) تزوج عباس فرحات من امرأة فرنسية ، وبدأ كفاحه الوطني بالدعوة إلي الاندماج إلا أنه غير موقفه بعد ذلك .

(٢) من اللافتات التي حملها الجزائريون راية الامير عبد القادر ذات الألوان الثلاثة الأحمر والأبيض والأخضر.

(٣) عبد الرحمن الجيلالي : المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٣٦٧.

والرجال العديد من الفتيات وكان منهن جميلة بوحريد وجمينة بو عزة وجميلة بو باشا[١]

ونظرا لتصاعد نضال هذه الجبهة ضد الفرنسيين ، واستمرار هجمات أفرادها القوية عليهم خصوصا في شمالي قسطنطينة في أغسطس ١٩٥٥ ، وفي أماكن تجمعاتهم بدأ الفرنسيون يتتبعون أفرادها وخلال قيام المناضلة "جميلة بو حريد" بحمل قنبلة كانت تحاول وضعها في مقهي يقطنه بعض الجند الفرنسيين القي القبض عليها وفي محاولة من الفرنسيين لاجبارها علي الاعتراف باسماء زملائها في الكفاح بدأوا يستعملون معها أشد أنواع التعذيب، فوضعوا أسلاك كهربية علي كل مكان في جسمها ثم أخذوا يديرون التيار الكهربي عليها حتى تدلي باعترافاتها وعلي الرغم من أن "جميلة بو حريد" لم تعترف بشيء يؤكد التهمة المنسوبة إليها فقد وجه إليها الاتهام قرار الحكم بالاعدام ، ثم خفف إلي الاشغال الشاقة المؤبدة نتيجة لاهتزاز الشعور العالمي والانساني علي هذا الحكم الجائر [٢] .

وعلي الرغم من محاولات الفرنسيين القضاء علي حركة المقاومة الجزائرية فقد استمر نضال الجزائريين ضد فرنسا حتى صوتت الجمعية العامة للأمم المتحدة في العاشر من فبراير ١٩٥٨م علي ضرورة ايجاد حل عادل للمشكلة الجزائرية .

وفي نفس هذا العام انشئت حكومة الجزائر المؤقتة بالقاهرة ، وبدأت هذه الحكومة تتلقي تأييدا دبلوماسيا اسلاميا وعربيا ودوليا وانتهي الأمر باعتراف هيئة الأمم المتحدة بحق الجزائر في الاستقلال في ١٨ ديسمبر ١٩٦٠ ، وذلك بأغلبية ١٦٣ صوتا وامتناع ٢٧ عن التصويت ومعارضة ثمانية أعضاء [٣].

وفي مطلع عام ١٩٦٢ جرت محادثات مكثفة بين الجانبين الفرنسي والجزائري في مدينة ايفيان تم خلالها الاتفاق علي وقف القتال واطلاق سراح الزعماء السياسيين والاعلان عن حق الجزائر في الاستقلال وتقرير المصير، وانتهي الأمر باعلان استقلال الجزائر في أول يوليو ١٩٦٢ واختير أحمد بن بيلا [٤] ، كأول رئيس للجمهورية .

---

(١) محمود الشرقاوي : صور من الجزائر ، القاهرة ، الانجلو المصرية ، ص ٥٨.
(٢) الشرقاوي : المرجع لاسابق ، ص ٦٠ - ٦١.
(٣) ياغي وشاكر : المرجع السابق ، ص ٨٢.
(٤) ولد في عام ١٩١٩ في بلده علي الحدود الجزائرية المغربية وانخرط في صفوف الجيش المغربي ثم التحق بالتنظيم السري للثورة وقاد هجوما علي مكتب بريد وهران في عام ١٩٤٩ وقد حاولت السلطات الفرنسية اغتياله أكثر من مرة ولكنها لم تفلح وظلت مخابرات فرنسا تتبعه حتى تم القبض عليه ونقله إلي فرنسا في عام ١٩٥٦.

وفي أواخر يونيو ١٩٦٥ حدث تغيير في القيادة الجزائرية فعزل أحمد بن بيلا وتألف مجلس ثورة بقيادة العقيد هواري بومدين لادارة شئون البلاد .

وبعد وفاة الرئيس بومدين في عام ١٩٧٩ انتخبت جبهة التحرير الوطني الجزائري الرئيس "الشاذلي بن جديد" ، وقد حققت الجزائر في عهده العديد من الانجازات .

لقد تسببت الممارسة الديمقراطية التي عاشتها الجزائر علي مدي الفترة السابقة ٨٨ - ١٩٩١ بعد ثلاثين عاما من الانغلاق أن جاء اكتساح جبهة الانقاذ الاسلامية لمقاعد البرلمان مؤشرا لوصول الاسلاميين إلي الحكم مع ما يمثله ذلك من متغيرات جذرية في الجزائر وما جاورها مما أثار المؤسسة العسكرية التي أحست بانحسار موقفها وجعلها في مواجهة لتصفية أثار انتصار الاسلاميين ، ونتيجة لذلك اجبر الشاذلي بن جديد علي الاستقالة في الحادي عشر من يناير ١٩٩٢ وتولي المجلس الاعلي للأمن برئاسة محمد بو ضياف مسئولية حفظ النظام العام ، والغاء المرحلة الثانية من الانتخابات البرلمانية واعتقال زعماء الجبهة وتقديمهم للمحاكمة ومهاجمة مقارهم لذلك دخلت الجزائر مرحلة حرجة في تاريخها يصعب معها التنبؤ بالمستقبل السياسي للجزائر فهل ينجح الجيش في استمرار سيطرته علي زمام الأمور أم تتمكن جبهة الانقاذ من تعبئة الجماهير لصالحها ثم جاء الحادث الدامي لاغتيال الرئيس محمد بوضياف بمدينة عنابة في الاثنين التاسع و العشرين من يونيو ١٩٩٢ لكي يمثل قمة التصاعد الدرامي للعنف المتبادل بين جبهة الانقاذ والسلطة في الجزائر، ولكي يزيد الأمور تعقيدا في وقت كانت تحتاج فيه الجزائر إلي التفكير الهادئ ، المتروي للخروج من المأزق التاريخي الذي ألم بشعبها وظلت الجزائر غارقة فى مشاكلها حتى تولى "عبد العزيز بوتفليقة" الرئاسة فعمل على اخماد نار الفتنة واعادة الأمن والسلم والإستقرار، ونجح فى ذلك إلى حد كبير لدرجة أن الجزائريين قاموا بإنتخابه ثلاث مرات بأغلبية كبيرة.

ليبيا في التاريخ الحديث والمعاصر

أولاً : ليبيا في ظل الحكم العثماني :

دخلت ليبيا ضمن دائرة الدولة العثمانية منذ منتصف القرن العاشر الهجري ، السادس عشر الميلادي ، وذلك بعد أن أرسل الأهالي إلي السلطان العثماني يستنجدونه ويطلبون منه تخليصهم من فرسان القديس يوحنا الذين اتبعوا معهم سياسة التعصب الديني ، وقد استجاب السلطان لطلبهم (١) ، وارسل جيشا بقيادة الصدر الأعظم سنان باشا إلي طرابلس تمكن من اقتحام أبوابها ودخولها عنوة في ١٨ سبتمبر ١٥٥١م واجبار فرسان القديس يوحنا علي مغادرتها لتصبح منذ ذلك الوقت تابعة للسيادة العثماينه ، وقاعدة للأسطول العثماني في البحر المتوسط (٢) ، وقد استمرت هذه المنطقة تحت ظلال الحكم العثماني ثلاثمائة وستين عاما بين ١٥٥١ - ١٩١١م .

ويقسم المؤرخون الحكم العثماني في ليبيا إلي ثلاثة أقسام هي :

١ – عهد الولاة العثمانيين قبيل أسرة القرمانلي (٣) ، ١٥٥١ - ١٧١١ وفيه تسلطت الانكشارية علي كافة أمور البلاد مما أدي إلي سوء الأحوال وفساد الادارة وقد بلغ عدد ولاة هذه الفترة ثلاثة وأربعين واليا (٤).

٢ – عهد اسرة القره مانلي الذي انفرد فيه أحمد القره مانلي - أحد أعيان الجند - بالسلطة في عام ١٧١١ (٥) ، وفرض وجوده هو واسرته علي الباب العالي مائة وأربعة وعشرين عاما وهي الفترة الممتدة من ١٧١١ - ١٨٣٥ م وذلك بسبب ضعف الدولة العثمانية وتفكك الروابط التي تربطها بولاية طرابلس الغرب مما أدي إلي سيطرة القرمانليين علي السلطة هناك (٦) ، خاصة بعد أن تمكن أحمد القره مانلي من القضاء علي فتن جنود الحامية وتدخلهم في شئون الولاية ، وذلك بعد أن تخلص منهم بمكيدة دبرها لهم حيث أقام لهم وليمة في بيته ، وقام بذبح ثلاثمائة من كبارهم (١) ، هذا بالاضافة إلي تمكنه من القضاء علي الفتن والثورات التي اعترضت سبيل الاستقرار في ولايته .

---

(١) د.عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ج ٢ ، ص ٩٢٩.
(٢) د . محمد فؤاد شكري : ميلاد دولة ليبيا الحديثة ، المجلد الأول ، القاهرة ، مطبعة الاعتماد ١٩٥٧ ص ٧٧ - ومحمد الراقد : الغزو العثماني لمصر ونتائجه علي الوطن العربي الاسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة ١٩٦٨ ص ٢٤٦ - ٢٤٩.
(٣) نسبة إلي مدينة قرمان في الاناضول .
(٤) حسن سليمان محمود : ليبيا بين الماضي والحاضر ص ١٨٢.
(٥) لتفاصيل ذلك أنظر محمد فؤاد شكري : المرجع السابق ، ص ٧٨.
(٦) جلال يحيي : المغرب الكبير ج ٣ ، العصور الحديثة ظهور الاستعمار ، بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٨١ ، ص ٥٨.
(١) حسن سليمان : المرجع السابق ، ص ١٨٣.

وبعد ذلك اعتمد القره مانلي علي العنصر الوطني في الجيش وادارة شئون البلاد ، فأوكل جميع الأعمال الادارية لابناء البلاد وجعل اللغة العربية اللغة الرسمية فيها ونظرا لبروز دور القره مانليين في طرابلس عقدت العديد من الدول الاوربية والولايات المتحدة الامريكية المعاهدات معهم (١) ، حتى يمتنعوا عن التعرض لسفنها في نظير دفع الاتاوات اللازمة لهم مما أكد استقلاليتهم الواضحة عن العثمانيين .

وقد وافقت الدولة العثمانية علي سيطرة هذه الاسرة علي طرابلس لدرجة أن اصبحت العلاقة بينهما مجرد علاقة أسمية تتسم بالولاء للسطان خليفة المسلمين ، وترتبط بالصلات الروحية مع العثمانيين (٢) .

وقد تمكن أحمد القره مانلي قبيل وفاته في جعل ليبيا وراثية لابنائه من بعده فخلفه ابنه محمد باشا ثم أخذت الأسرة القره مانلية تتوارث الحكم أبنا عن أب ، وقد بلغت هذه الأسرة عصرها الذهبي في عهد علي القره مانلي ثم لم تلبث الأمور أن تدهورت بين أفراد هذه الأسرة نتيجة لاهمالهم وسائل الانتاج، وربط نظامهم بالنشاط البحري في وقت تطورت فيه وسائل الانتاج في أوربا(٣) ، ونتيجة لذلك انتشرت الفتن وشملت الاضطرابات كافة انحاء البلاد(٤) ، حتي تم القضاء علي حكمهم في عام ١٨٣٥م (٥) وسرعان ما اضطرت الدولة العثمانية إلي اعادة فرض حكمها المباشر علي هذا الاقليم(٦) .

٣ ـ عهد الولاة العثمانيين بعد أسرة القره مانلي ١٨٣٥ ـ ١٩١١ م وقد بلغ عدد ولاة هذه الفترة ثلاثة وثلاثون واليا كان من أبرزهم أحمد راسم الذي حرص علي ترقية شئون هذه الولاية بتوسيع نطاق الزارعة والتعليم والعمل علي اعادة هيبة الحكومة فيها وضبط امورها (١) ، وسليمان نامق الذي استطاع تأمين احتياجات الاهالي من المياه وظهرت في عهده أول جريدة تصدر في طرابلس الغرب وهي صحيفة الترقي(٢) ومنهم المشير رجب باشا الذي عين في عام ١٩٠٤ م بهدف معالجة وتحسين الحالة العسكرية والامنية في ليبيا وقد نجح في ذلك إلي حد كبير (٣) ، كما

---

(١) شكري : المرجع السابق : المجلد الأول ، ص ٧٨.
(٢) جلال يحيي : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٥٩.
(٣) نفسه ص ٦١
(٤) شكري : المرجع السابق ، المجلد الأول ص ٧٩.
(٥) عبد الكريم رافق : العرب والعثمانيون ص ٣٧٧.
(٦) جلال يحيي : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٣٧٧.
(١) أحمد صدقي الدجاني : ليبيا قبيل الاحتلال الايطالي أو طرابلس الغرب في أواخر العهد العثماني الثاني ١٨٨٢ ـ ١٩١١ ، القاهرة ، الطبعة الأولي ، ١٩٧١ ، ص ١١٤.
(٢) نفسه ص ١٤٥.
(٣) انتوني جوزيف كاكيا : ليبيا في العهد العثماني الثاني ١٨٣٥ ـ ١٩١١ م ، ترجمة يوسف العسيلي ، القاهرة ، دار احياء الكتب العربية ١٩٤٦ ص ٦٠.

عمل علي تحسين النظام القضائي بها ، وتحسين أحوالها الاقتصادية والحد من امتيازات قناصل الدول الاجنبية التي حصلوا عليها في عهد اسرة القره مانلي والوقوف في وجه الأطماع الايطالية فعارض بشدة تأسيس فرع لبنك دي روما في طرابلس ، واعترض علي بيع الاراضي إليه مما دفع ايطاليا إلي المطالبة بتنحيته ، وانشئ البنك رغم أنفه وبدون استصدار مرسوم من الاستانة [١] ، وظل الحال علي ذلك حتى وصول الاحتلال الايطالي إلي ليبيا في عام ١٩١١ م.

وقبل أن نتطرق إلي احتلال ايطاليا لليبيا ينبغي أن نذكر ان الحكم العثماني لهذه الولاية كان قاسيا وضعيفا وغير قادر علي ادارة هذه البلاد بطريقة صحيحة خاصة وأن جل هم العثمانيين كان جمع الضرائب في وقت قلت فيه الأموال في أيدي دافعيها ، يضاف إلي ذلك أن الدولة العثمانية لم تقم باصلاحات تذكر في هذه الولاية لتحسين المواصلات أو التعليم أو غيره[٢] ، وفضلا عن ذلك فإن النظام الاداري في البلاد صار موزعا بين رؤساء الأسر الكبيرة والشيوخ وكان من هؤلاء السنوسيين الذين اختصوا بالامور المحلية في المناطق المتعددة التي قامت بها الزوايا السنوسية خصوصا في فترة العهد العثماني الثاني[٣].

ثانياً : الاحتلال الايطالي لليبيا والمقاومة الوطنية :

نزلت ايطاليا إلي ميدان الاستعمار بعد أن أتمت وحدتها السياسية في عام ١٨٧٠م ، وتزايد عدد سكانها بسرعة لدرجة أن الاراضي الزراعية فيها لم تعد قادرة علي استيعابهم[١] ، ومن هنا تطلعت ايطاليا للاستيلاء علي تونس ، ولما سبقتها فرنسا في ذلك حاولت استرضاءها باتفاق اطلقت فيه يدها في ليبيا نظير أن تطلق ايطاليا يد فرنسا في مراكش[٢] .

يضاف إلي ذلك أن روسيا اتفقت مع ايطاليا علي مساندة اطماعها في ليبيا في نظير اعتراف ايطاليا بحق مرور سفنها في المضايق[٣] ، ونتيجة لذلك بدأت ايطاليا تمهد للسيطرة علي ليبيا اقتصاديا وثقافيا قبل القيام بعملياتها العسكرية فحصلت علي امتياز بفتح فرع لبنك روما في كل من طرابلس وبرقة عام ١٩٠٥ ذلك البنك الذي لم يقتصر دوره علي الاعمال البنكية بل نشط في عمليات الرهن والتسليف مع الاهالي ، وقرض الأموال لأصحاب الاراضي الزراعية ثم سلبها منهم كما فتحت ايطاليا

---

(١) الدجاني : المرجع السابق ، ص ١٦٣.
(٢) يحيي : المرجع السابق ، ص ٦٩٩.
(٣) شكري : المرجع السابق ، المجلد الأول ، ص ٨٥.
(١) الدجاني : المرجع السابق ، ص ٣٢٥.
(٢) انتوني جوزيف : المرجع السابق ، ص ٥٩.
(٣) شوقي الجمل : المغرب العربي الكبير في العصر الحديث ، ص ٣٧١.

المدارس المجانية في ليبيا بقصد نشر الثقافة الايطالية وأنشات المستشفيات والملاجئ للمرضي والفقراء كما انشأت مكتبا للبريد في بنغازي [1] ، وإلي جانب ذلك قامت بارسال البعثات العلمية لاكتشاف المناطق الداخلية في ليبيا ومسح أراضيها هذا في الوقت الذي لم تقم فيه الدولة العثمانية بأي عمل جدي لوقف التوغل الايطالي في ليبيا .

ولكي تبرز ايطاليا أهدافها الاستعمارية في ليبيا بدأت في مهاجمة الاتراك ، ونددت بسياستهم في ليبيا ، وطالبت بضرورة اصلاح أحوال هذه البلاد والنهوض بها[2].

وبعد أن تهيأت الاذهان أمام سيطرة الايطاليين علي ليبيا طالبت ايطاليا الدولة العثمانية في سبتمبر ١٩١١ بعدة مطالب لها في ليبيا هي :

١ – خروج العساكر العثمانية من طرابلس وبنغازي ودرنة .

٢ – تشكيل قوات عسكرية في هذه المناطق تحت قيادة ضباط ايطاليين .

٣ – أن تكون ادارة الجمارك في ليبيا تحت أيدي موظفين ايطاليين .

٤ – أن يتم تعيين والي طرابلس بموافقة ايطاليا ورضاها [3].

ولم تكتف إيطاليا بذلك بل وجهت انذارا إلي الدولة العثمانية تتهمها فيه بعدم النهوض بليبيا ، وتجاهل رغائبها فيها ، ومعارضة مشروعاتها هناك رغم مصالحها الحيوية في هذه البلاد هذا إلي جانب قيامها بتحريض الاهالي علي الرعايا الايطاليين بخاصة وعلي الرعايا الاجانب علي اختلاف جنسياتهم بعامة مما جعلهم يخشون علي حياتهم ، ويشرعون في الهجرة من هذه البلاد.

ونتيجة لذلك فإن الحكومة الايطالية مضطرة حرصا علي مصالحها وشرفها إلي احتلال طرابلس وبنغازي احتلالا عسكريا.

وقد صدرت الأوامر إلي السفير الايطالي في الاستانة بالحصول علي رد من الحكومة العثمانية علي هذا الانذار في مدة أربع وعشرين ساعة وإلا فإن الحكومة الايطالية مضطرة إلي احتلال ليبيا [1].

وعند تحليلنا لهذا الانذار نجده يثير الدهشة والاستغراب ولا نجد سببا واحدا معقولا من الاسباب التي وردت فيه يدعو ايطاليا إلي القيام بهذا العمل العدائي ، فهل

---

(١) يحيي : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٧١٥.
(٢) زاهية قدوة : تاريخ العرب الحديث ، بيروت ، دار النهضة العربية ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م ص ٤١٨ ـ ٤١٩.
(٣) شوقي الجمل : المرجع السابق .
(١) الجمل : المرجع السابق ، ص ٤٣٨.

من المنطقي أن تهدد ايطاليا باحتلال المدن الليبية لأن الدولة العثمانية لم تعمل في النهوض بهذه البلاد ، وهل من المنطقي أن تهدد ايطاليا بالاستيلاء علي ليبيا لأن الدولة العثمانية لم تمنحها امتيازات اقتصادية وحقوق في هذه البلاد .

وللإجابة علي ذلك نجد أن ايطاليا استغلت ضعف الدولة العثمانية وانشغالها ، وسوء احوالها في تحديها والافتراء عليها ، كما أنها أرادت أن تحول أنظار الشعب الايطالي إلي الخارج حتى تبعده عن التفكير في مشاكل بلاده الداخلية .

وقد كان رد الدولة العثمانية علي هذا الانذار ضعيفا حيث حاولت التنصل من اتهامات ايطاليا لها ، وأظهرت حسن نيتها تجاه الايطاليين ومشروعاتهم الاقتصادية في طرابلس وبرقة [1] ، ودعت إلي اجراء مفاوضات بين البلدين بهدف تجنب الحرب ، وحسم النزاع بينهما بطرق سلمية ، مقابل أن تعطي لايطاليا مركزا ممتازا في ليبيا كما قامت الدولة العثمانية بارسال برقيات إلي الدول الاوربية تطلب منها التوسط في الأمر ، ولكن ايطاليا رفضت هذه المحاولات وأعلنت الحرب علي الدولة العثمانية في ٢٩ سبتمبر ١٩١١ وبدأت في محاصرة طرابلس مدة ثلاثة أيام حتى سقطت بعد قتال غير متكافئ [2] ، بعد مجزرة بشرية تمثلت فيها أفظع أدوار الهمجية [1] ، وبعدها تم للايطاليين احتلال موانئ والنقط الساحلية في ليبيا في اكتوبر ١٩١١ [2] أما باقي المناطق فقد ظلت في أيدي القوات الوطنية التي وقفت للايطاليين بالمرصاد وقاومت الجيش الايطالي المدجج حاملة لواء الحرب ضد جنود الاحتلال والادارة الايطالية تقاومهم بالعتاد والسلاح مقاومة عنيفة في كل مكان مما دفع بالايطاليين إلي بذل الكثير من التضحيات ، ودفع بشعوب العالم الاسلامي إلي تكوين الجمعيات لجمع الاكتتابات اللازمة للمشاركة في نفقات هذه الحرب ، وامداد المقاتلين بالمال والعتاد [3].

ولعل من المفيد أن نذكر أن المقاومة ضد الايطاليين والتي لاقي فيها الكثيرون من الاهالي حتفهم وقضي أخرون حياتهم داخل السجون كانت موزعة في أربع مناطق هي أقليم برقة ودرنة وبنغازي وطرابلس .

وقد واجه المجاهدون الجيش الايطالي في معارك طاحنة وقوية استبسلوا فيها خصوصا وأنهم يناضلون عن قضية من أشرف القضايا وهي الدفاع عن وطنهم

---

(١) يحيي : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٧٣٨.
(٢) ياغي وشاكر : تاريخ العالم الاسلامي الحديث والمعاصر ، ج ٢ ، ص ٧٢.
(١) لوثروب ستودارد : حاضر العالم الاسلامي ، ترجمة عجاج نويهض ، المجلد الثاني، الجزء الثالث ، بيروت دار الفكر ، ص ٣٧٦.
(٢) انتوني جوزيف : المرجع السابق ، ص ٦٥.
(٣) يحيي : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٧٧٧.

والذود عن حياضهم[١] ، ولكن الفارق في التسليح والاعداد والامكانات كان له أكبر الأثر في حسم المعركة لصالح أيطاليا[٢].

وقد استغل الايطاليون في ذلك ارتكاب اخطاء جسمية في معاملتهم للأهالي ، ومحاولة فرض وجودهم بالقوة وبطريقة تتنافي مع قوانين الحرب[٣].

وبعد أن عجزت الدولة العثمانية عن مد يد المعونة الفعلية إلي الأهالي ، وفشلت قواتها في مواجهة الموقف اضطرت إلي عقد معاهدة "أوشي لوزان" مع ايطاليا ، والتي انسحبت بمقتضاها من ليبيا في ١٨ اكتوبر ١٩١٢ ، وتركتها لقمة سائغة للايطاليين ، كما تركت أهلها يقاومون الجيش الايطالي بمفردهم مقاومة عنيفة لأكثر من ثلاثين سنة [٤].

وبهذه المعاهدة خرجت الدولة العثمانية من ليبيا تاركة الزعامة السنوسية تقف بمفردها في مقاومة الاستعمار الايطالي [١] ، مما كان له أكبر الأثر في ظهور العديد من النتائج السلبية ومنها :

١ ــ أنها أثرت تأثيرا سيئا علي حركة الكفاح الليبي نظرا لأن آمال الليبيين كانت معقودة علي الدولة العثمانية .

٢ ــ وقوع عبء الكفاح ضد الايطاليين علي السنوسيين الذين اعتبروا أن تنازل السلطان العثماني عن ليبيا بمثابة اعلان الاستقلال للإمارة السنوسية في برقة[٢].

٣ ــ اعتراف الدول الكبري بسيادة الايطاليين علي طرابلس وبرقة .

٤ ــ هجرة الكثير من الايطاليين إلي ليبيا بقصد الاستيطان[٣].

وفي اعقاب ذلك أخذ الايطاليون في دعوة أهالي ليبيا إلي السكينة ، كما أخذوا في إظهار حسن النية لهم ، ونتيجة لانخداع الاهالي بأقوالهم وضعت الحرب أوزارها والقي العديد من المجاهدين السلاح ، وما كاد الايطاليون يظفرون بتجريد الاهالي من سلاحهم حتى قلبوا لهم ظهر المجن يسومونهم سوء العذاب ، ويزجون بعضهم في أعماق السجون مما أثار ثائرة الأهالي[٤] وجعل قادة وزعماء الحركة الوطنية في طرابلس يعقدون عدة اجتماعات لدراسة الموقف وبعدها قرروا اعلان استقلال منطقة

(١) ستودارد : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٣٧٧.
(٢) الجمل : المرجع السابق ، ص ٣٧٦.
(٣) يحيي : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٧٦٢.
(٤) الدجاني : المرجع السابق ، ص ٤٥٠.
(١) خطاب : قادة فتح المغرب العربي ، ص ٢٨٥.
(٢) الجمل : المرجع السابق ، ص ٣٧٧.
(٣) جوزيف : المرجع السابق ، ص ٢٠٣.
(٤) ستودارد : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٣٧٧

طرابلس وتشكيل حكومة وطنية برئاسة "سليمان الباروني" وكان أهم عمل لهذه الحكومة هو انشاء خط دفاعي لعرقلة تقدم الايطاليين(١).

كما انزعج أهل برقة بعد أن سمعوا بانباء معاهدة "أوشي لوزان" وأعلنوا عن رفضهم تسليم بلادهم للايطاليين ، وقد قام الايطاليون في اوائل ١٩١٤ بهجوم كبير علي السنوسيين في الجبل الأخضر واحتلوا العديد من الاماكن ، كما استطاعوا احتلال ولاية فزان ، وعلي الرغم من ذلك فقد استطاعت حركة المقاومة الليبية هزيمة الايطاليين في عدة معارك منها معركة (القرضابية) القريبة من سرت والتي فقد فيها الايطاليون ما يزيد علي ثمانية ألاف جندي مما كان له أكبر الأثر في رفع الروح المعنوية لدي أفرادها، وزيادة روح الحقد علي الايطاليين فانهالوا علي الاهالي رميا بالرصاص ، وأخذوا يقتلون الابرياء والشيوخ والاطفال من النساء والرجال(١)، وعندما قامت الحرب العالمية الأولى في عام ١٩١٤م انضمت ايطاليا إلي دول الحلفاء في نوفمبر عام ١٩١٥ في حين انضمت الدولة العثمانية إلي ألمانيا في ديسمبر من نفس العام الأمر الذي زاد من قسوة المقاومة الليبية حيث كانوا يتلقون الدعم من تركيا وألمانيا في أثناء الحرب العالمية الأولي(٢) ، واستطاعوا استرداد العديد من المواقع من من يد الايطاليين ونتيجة لذلك تقلص النفوذ الايطالي في ليبيا، واقتصر علي سواحل برقة وطرابلس، كما نشطت حركة المقاومة في ليبيا وخلال ذلك اتبعت ايطاليا سياسة المراوغة والخداع فأعلنت عن رغبتها في التفاوض مع المجاهدين ، وبدأت عمليات التفاوض بين السنوسيين وايطاليا ، وعلي أثرها عقدت معاهدة عكرمة في ١٦ من ابريل ١٩١٧ والتي اشتملت علي ثلاثة عشرة مادة نصت علي إعلان رغبة الفريقين في انهاء القتال ، وفتح الطرق للتجارة بكل حرية في بنغازي ودرنة وطبرق بشكل دائم كما التزم الايطاليون بالوقوف عند نقطهم التي كانوا يحتلونها وقت ابرام هذا الاتفاق علي أن يفعل السنوسيون مثل ذلك من جانبهم وتعهدت ايطاليا بابقاء المحاكم الشرعية في الاماكن التي يلزم وجودها فيها ، وأن ينشأ في برقة مدرسة للعلوم والصناعات ، ويكون بها رجال دين لتعليم القرآن ، ونصت هذه الاتفاقية أيضا علي إعادة الزوايا والأراضي التابعة لها إلي سلطة السنوسيين (٣).

وعلي الرغم من أن هذه المعاهدة قد حققت للسنوسيين شروط انهاء الحرب ، وفتحت طرق التجارة أمام الاهالي وخلصت الزوايا السنوسية من قبضة الايطاليين ودعمت سلطة السنوسيين علي المستوي الدولي، فانه يجب علينا ألا ننسي أن هذه

---

(١) خطاب : المرجع السابق ، ص ٢٩٤.
(١) ستودارد : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٣٧٧.
(٢) رافق : المرجع السابق ، ص ٤٧٩.
(٣) جلال يحيي : المغرب الكبير ـ الفترة المعاصرة وحركات التحرر والاستقلال ، ج ٤ ، بيروت ، دار النهضة العربية ١٩٨١ ص ٤٤.

الاتفاقية كانت في نفس الوقت مكسبا للايطاليين الذين استفادوا من وقف العمليات الحربية وتمكنوا من الاتفاق مع قيادة وطنية ودينية مما أدي إلي ترسيخ نفوذهم هناك .

وعلي الرغم من عقد هذه المعاهدة فقد حاولت ايطاليا بث روح الفرقة بين المجاهدين ، واستعمال دهائها وقدرتها لتعميق روح التنافر ، وبث الفوضي (١) ، فقد حاولت تفتيت وحدة الأمة الليبية وذلك كل ما في وسعها لتفريق كلمة أبناء البلاد ولكن المجاهدين تنبهوا لذلك ووجدوا أن أمانيهم القومية لن تتحقق ألا بتأسيس حكومة دستورية يكون علي رأسها أمير مسلم يجمع في يده السلطات الثلاث الدينية والسياسية والعسكرية ، مع اقامة مجلس نيابي تنتخب الأمة الليبية أعضاءه ، لذلك وقع اختيارهم علي الأمير "محمد ادريس السنوسي" فذهب إليه وفد من قادة المجاهدين في يوليو ١٩٢٢ لابلاغه بما تم الاتفاق عليه (١) وقد قبل السنوسي هذه البيعة شاكرا ، ولكن ظروفه الصحية اضطرته إلي ترك برقة إلي مصر للعلاج وترك مجال قيادة الحركة الوطنية أمام قيادات وطنية أخري .

وخلال تلك الفترة تمكن الفاشست من الوصول إلي الحكم في ايطاليا عام ١٩٢٢ ، واعتبروا أن السنوسية هي عدوتهم الأولي ومن الضروري وضع حد لنشاطها (٢).

ونتيجة لذلك نقض الحاكم الايطالي في ليبيا معاهدات بلاده مع المجاهدين في مايو ١٩٢٣ وأعلن بطلانها وحشد جيوشه في مواجهة المجاهدين من أجل تحويل ليبيا إلي مقاطعة ايطالية ، وكان ذلك بمثابة اعلان لبداية حرب جديدة بين الطرفين ، ونتيجة لذلك نشطت الحركة الوطنية من جديد خصوصا بعد أن تسلم عمر المختار قيادة الكفاح ضد الايطاليين في برقة.

وكان اختيار عمر المختار لهذه المهمة اختيارا موفقا لما تحلي به من قوة الشكيمة وصدق العزيمة ورباطة الجأش وقوة الايمان بالله ، والاخلاص للوطن (٣).

أما في طرابلس فقد أصبح بشير السعداوي مسئولا عن المجاهدين في اقليم طرابلس ، وقد تشكلت لجنة مركزية في برقة من رؤساء القبائل لمواصلة الجهاد ضد الايطاليين وشارك بشير السعداوي في أعمالها (٤) وخلال ذلك برز دور عمر المختار بشكل واضح في تاريخ حركة النضال الليبي في الفترة من ١٩٢٣ الي ١٩٣١ في

---

(١) لتفاصيل ذلك أنظر : بشير السعداوي : فظائع الاستعمار الايطالي الفاشستي في طرابلس - برقة ، القاهرة ، ١٩٤٩ ، ص ١٨ - ٢١.

(١) يحيي : المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٧٠.

(٢) يحيي : المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٧٣.

(٣) حسن سليمان : المرجع السابق ، ص ٢٣٨.

(٤) يحيي : المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٧٢ - ٧٣.

وقت بعثت فيه ايطاليا بامداداتها العسكرية وحشدت اسطولها أمام ميناء بنغازي فأخذ يطلق قذائفه بدون سابق أنذار بقصد استفزاز الوطنيين في محاولة للقضاء عليهم وابادتهم ، مما أدي إلي قتل عدد كبير من الاهالي ودفنهم تحت الانقاض [١].

ونظرا لخطورة الموقف حرص عمر المختار علي عدم الدخول مع الايطاليين في معركة فاصلة خصوصا وانهم يمتلكون اسلحة متطورة لا توجد في يد المجاهدين بل اتبع طريقة الكر والفر والهجوم الليلي كما سافر إلي مصر بقصد التشاور مع السيد محمد ادريس السنوسي هناك وترتيب استمرار الجهاد وطلب ارسال المؤن والذخائر من مصر [١].

ونتيجة لهذا التكتيك الجديد في المقاومة واجه الايطاليون صعوبة بالغة في السيطرة علي الموقف عبر عنها القائد الايطالي بقوله (أننا نحارب عدوا ليس له شكل متماسك يجعلنا دائما علي أهبة الاستعداد للدفاع ، وكان الثوار مثل النار يمكن أن يظهروا اليوم في مكان وغدا علي بعد خمسين كيلو منه وهكذا) .

لقد نظم عمر المختار قوات المجاهدين علي حسب قبائلهم وجعل لكل قبيلة فرقة مقاتلة باسمها يساعدها عدد من المتطوعين ، وعلي رأس كل فرقة قائد [٢] ، وكان يجتمع بهم ويخطب فيهم مشعلا في صدورهم نيران الحماس ويستحثهم علي مواصلة القتال ضد اعدائهم حتى أصبح كل فرد منهم يؤمن أن الموت في سبيل الوطن شهادة في سبيل الله وأن الشهداء لهم أرقي المراتب في الجنة .

وقد اختار عمر المختار منطقة الجبل الأخضر لتكون مقرا لقيادة جيشه ، كما نظم معسكرات المجاهيدن فيها ، وعلي الرغم من محاولات المدرعات والدبابات الايطالية اقتحام هذه المنطقة فقد باءت محاولاتها بالفشل وكان عمر المختار بالرغم من كبر سنه وضعف بصره يشترك بنفسه في المعارك حتى ذاع صيته داخل ليبيا وخارجها ، وكان المجاهدون في كفاحهم يعتمدون علي طريقة حرب العصابات[٣]، حيث يهاجمون القوات الايطالية بطريقة خاطفة في المناطق الوعرة المسالك التي يصعب سير المصفحات فيها ثم يرتدون إلي مواقعهم بشكل سريع وهم علي ظهور خيولهم مما ألقي الرعب في قلوب اعدائهم [٤].

وقد استمرت المعارك بين المجاهدين والقوات الايطالية في منطقة الجبل الأخضر طوال عامي ١٩٢٤ ، ١٩٢٥ حاول الايطاليون خلال ذلك بث روح الانقسام

---

(١) حسن سليمان : المرجع السابق ، ص ٢٣٨.
(١) جلال يحيي : المرجع السابق ج ٤ ، ص ٧٣.
(٢) الجمل : المرجع السابق ، ص ٣٨٩.
(٣) حسن سليمان : المرجع السابق ، ص ١٩٢.
(٤) يحيي : المرجع السابق : ج ٤ ، ص ٧٤.

بين المجاهدين فكانت الطائرات الايطالية تقوم بالقاء المنشورات المليئة بالوعود الكاذبة للمجاهدين ، ولكن تأثير ذلك كان ضعيفا خصوصا علي رجال عمر المختار .

ونظرا لخطورة الموقف بالنسبة لمستقبل ايطاليا في ليبيا فقد توصل الايطاليون إلي أن قطع طرق الامدادات عن عمر المختار في الجبل الأخضر، و التي كانت تصل إلي قواته من الشرق والغرب هي أفضل وسيلة لاضعافه واجباره علي الاستسلام وتحقيقا لهذه الخطة قامت ايطاليا باحتلال مناطق (الجغبوب) و(فزان) و(الكفرة) وغيرها من المواقع الا ستراتيجية ولكن ذلك لم يزد رجال المقاومة الليبية إلا تصميما علي مواصلة القتال ، فقد اشتبك عمر المختار ورجاله مع الايطاليين في معارك دامية طوال شهر يوليو ١٩٢٧ حققوا فيها العديد من الانتصارات ، و لكن استمرار تدفق السلاح من ايطاليا لقواتها في ليبيا عاق المجاهدين عن تحقيق انتصارات حاسمة ضدهم [1] ولكي تمنع ايطاليا تدفق الاسلحة والذخائر التي كانت تصل إلي المجاهدين من مصر ، قامت بانشاء حاجز من الاسلاك الشائكة المكهربة بين مصر وليبيا بطول ثلاثمائة كيلو مترا تبدأ من البحر شمالا إلي واحة جغبوب جنوبا ، كما سعت لدي الحكومة المصرية حتى لا تزود الليبين بالسلاح ثم قامت بحرب ابادة وقتل ضد الوطنيين بضربهم بالطائرات من الجو واتلاف مزروعاتهم وقتل مواشيهم ومصادرة بعضها ولما حاولت القوات الايطالية الاستيلاء علي منطقة فزان في يناير ١٩٢٨ التحمت معها قوات عمر المختار في معركة حامية الوطيس انهزم فيها الجيش الايطالي بقيادة جرازياني شر هزيمة.

ولما استمرت انتصارات المجاهدين قامت إيطاليا بتضييق الحصار عليهم في منطقة الجبل الأخضر كما أسند موسوليني قيادة قواته إلي القائد بادوليو الذي طالب المجاهدين بالاستسلام دون قيد أو شرط ، إلا أن تهديداته لم تجد استجابة لدي المجاهدين الذين صمموا علي مواصلة الجهاد [2] ، ولكن الإيطاليين تمكنوا من الإستيلاء علي فزان في يناير من عام ١٩٢٩ بعد مقاومة عنيفة استمرت حوالي ثمانية شهور .

في أعقاب ذلك تفاوض بادوليو مع عمر المختار وتم الاتفاق علي ما يلي :

١ ـ عدم تدخل الحكومة الايطالية في شئون الدين الاسلامي .

٢ ـ الاعتراف باللغة العربية في دواوين الحكومة .

٣ ـ أن تدرس اللغة العربية وأمور الدين في المدارس.

---

(١) خطاب : المرجع السابق : ص ٢٩٨.
(٢) الجمل : المرجع السابق ، ص ٣٩٠.

٤ – الغاء التفرقة في الحقوق بين الليبيين والايطاليين .

وعلي الرغم من تظاهر بادوليو بقبول هذه الشروط فسرعان ما نكث بوعوده[١] وحاول اغراء عمر المختار ببعض المناصب منها أن يكون نائبه في سبيل تخليه عن المقاومة ولكن عمر المختار رفض هذه المساومات و أصر علي استمرار الجهاد وإنهاء الهدنة مع الايطاليين بعد أن اتضح له أن هدفهم من المفاوضا ت هو محاولة كسب الوقت لصالحهم وفي عام ١٩٣٠ حاولت ايطاليا وضع حد لحركة المقاومة الليبية فقام "جرازياني" بمحاصرة المجاهدين في الجبل الاخضر ومنع كافة الاتصالات بهم، وسجن كبار المشايخ السنوسيين ورجال الأوقاف وأئمة المساجد ، و قام بتعذيبهم ، كما أغلق الزوايا السنوسية وصادر جميع أملاكها ، وملأ معسكرات الاعتقال بالمتعاطفين مع المجاهدين [٢] وألقي بالمجاهدين من الطائرات فوق قراهم وعلي مرأي من ذويهم كما أقام الاسلاك الشائكة حول برقة ، ومنع أهلها من التنقل خارجها وقام بحرق المنازل والمزارع والأغنام وإلي جانب ذلك أنشأ جرازياني ما يسمي بالمحكمة الطائرة ، وهي محكمة عرفية سيارة تنتقل في أرجاء البلاد علي متن طائرة ، و تقوم بمحاكمة مع يقع أسيرا من المجاهدين في دقائق معدودة ، وتحكم عليهم غالبا بالموت ومصادرة أملاكهم دون أن تسمح لهم بالدفاع عن أنفسهم[٣] كما قام جرازياني بمحاصرة سكان الجبل الأخضر وملأ السجون برجالها حتي سقطت الكفرة أخر معاقل السنوسية في أيدي قواته عام ١٩٣١ م فاستباحها الايطاليون مدة ثلاثة أيام وارتكبوا فيها العديد من المأسي والجرائم.

وكان لسقوط الكفرة في أيدي الايطاليين أسوأ الأثر علي حالة المجاهدين الليبيين حيث حرموا من مراكز تموين رئيسية ومن قواعد هامة كانوا يستندون عليها في عملياتهم العسكرية [٤] وترتب علي هذه التطورات أن أخذ الايطاليون في ارتكاب العديد من الجرائم في حق الشعب الليبي ومن ذلك :

١ – أمعانهم في قتل وتعذيب الأهالي والعمل علي تجويعهم .

٢ – محاولاتهم القضاء علي اللغة العربية ، وفرضهم اللغة الايطالية كلغة للتدريس في المدارس حتى أصبحت بمثابة اللغة الرسمية للتعامل في ليبيا .

٣ – محاولاتهم تنصير المسلمين في ليبيا واضعاف اخلاقهم دون النظر إلي احترام شعور الاهالي ومعتقداتهم .

---

(١) خطاب : المرجع السابق ، ص ٢٩٩.
(٢) الجمل : المرجع السابق ، ص ٣٩٠.
(٣) شكري المرجع السابق - ص ٧١٦.
(٤) يحيي : المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٨٠.

٤ ـ أكثارهم من دور الفسق والفاحشة بهدف اضعاف روح المقاومة لدي الليبيين [١].

٥ ـ قيامهم بنزع الاراضي من أيدي الاهالي بدعوي اتصالهم بالمجاهدين أو بتهمة دفعهم الزكاة والعشور للسنوسيين [٢].

٦ ـ محاولة اهانة المسلمين في دينهم ، ومن أمثلة ذلك قيام بادوليو برصف صالة قصره ببلاط نقش عليه اسم نبي المسلمين محمد صلي الله عليه وسلم حتى يمشي الغادي والرائح عليه .

٧ ـ جمع الاهالي في المعسكرات والقيام بتجويعهم وتعذيبهم .

٨ ـ مشيهم علي المصاحف ، وانتهاك حرمة المساكن وسبي النساء وذبح الشيوخ والاطفال[٣] وقذفهم في البحر.

وعلي الرغم من أن موقف المجاهدين قد أصبح في حكم الميئوس منه من الناحية العسكرية فقد استمر عمر المختار في المقاومة يزود عن وطنه ، ويدافع عن كيانه حتى أصيب برصاصة وهو علي ظهر جواده وقع علي أثرها جريحا [٤] ، فأوثقه أعداؤه بالحديد وساقوه أسيرا في ١١ سبتمبر ١٩٣١ حيث شكلت له محكمة برئاسة بادوليو لمحاكمته وقد دافع المختار عن نفسه و عن بلاده وأتهم الاستعمار الايطالي بالقرصنة وسفك الدماء ، وفي ١٥ سبتمبر ١٩٣١ صدر الحكم باعدامه شنقا [٥].

وهكذا انتهت حياة مناضل دافع عن بلاده دفاع الابطال وكانت أخر كلماته لبني وطنه لا تيأسوا من رحمة الله ، وأن الله سينصركم علي المستعمر الغاصب وينتصر الاسلام .

وعلي الرغم من تخلص الايطاليين من خصمهم العنيد والقوي عمر المختار فقد أثار استشهاده ضجة شديدة في شتي الاقطار الاسلامية والعربية فأقيمت المآتم في جميع مدن بلاد الشام وصلي الناس عليه صلاة الغائب في الجامع الأموي ، كما رثاه العديد من الشعراء العرب ومنهم أحمد شوقي وخليل مطران في مصر ومحمود أبو رقيبة في تونس [١].

---

(١) حسن سليمان : المرجع السابق ، ص ٢٣٨.
(٢) يحيي : المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٨٥.
(٣) علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية ، دمشق،المكتب الاسلامي ، ص٢٣١.
(٤) خطاب : المرجع السابق ، ص ٣٠١.
(٥) ذكرت بعض الكتابات أن الايطاليين قذفوا به من طائرة بعد شنقه.
(١) شكري : المرجع السابق ، ص ٧١٦.

ولم تتوقف حركة الجهاد بعد موت عمر المختار فقد ترك أثرا خالدا من البطولة في قومه [١] ، توارثته الاحفاد جيلا بعد جيل ، فلم تهدأ حركة المقاومة في ليبيا حتى قامت الحرب العالمية الثانية التي انهزمت فيها ايطاليا وبعدها دخلت القضية الليبية في طور جديد يتلخص في أن ايطاليا دخلت الحرب بجانب المانيا ، وضد قوات الحلفاء الأمر الذي جعل بريطانيا تقدم مساعداتها لليبيين ، فبعد مفاوضات بين الأمير السنوسي والانجليز تم الاتفاق علي تأسيس جيش ليبي بمساعدة الانجليز في أغسطس ١٩٤٠ وقد شارك هذا الجيش في المعارك التي دارت من أجل طرد جنود المحور من شمالي افريقية، وإخراجهم من ليبيا وقد تحقق ذلك في يناير ١٩٤٣ حيث تم اخراج أخر جندي ايطالي من ليبيا .

وبعد خروج القوات الايطالية من ليبيا بدأت بريطانيا وفرنسا في .السيطرة عليها وقسمتها إلي أقسام تولت بريطانيا ادارة اقليمي برقة وطرابلس وتولت فرنسا ادارة أقليم فزان [٢] وكان من المنتظر أن يتغير ذلك الموقف بعد انتهاء الحرب ويتاح للشعب الليبي الحصول علي استقلاله ولكن بريطانيا وفرنسا لم يبديا أي استعداد للجلاء ، ونتيجة لذلك بدأت الحركة الوطنية في الظهور ، وشهدت ليبيا نشاطا سياسيا كبيرا وأخذت الجبهات الوطنية والأحزاب والاندية والجمعيات [٣] تطالب بوحدة ليبيا واستقلالها علي أن يكون الأمير محمد أدريس السنوسي ملكا علي البلاد ، كما قامت جامعة الدول العربية بمساندة قضية الشعب الليبيي والدفاع عن حقوقه في الاستقلال ووحدة أراضيه [٤] ، وبذل عبد الرحمن عزام الأمين العام لجامعة الدول العربية آنذاك كافة المساعي بشأن المسألة الليبية ، وندد بمحاولات التقسيم ، و طالب باجراء استفتاء تحت اشراف هيئة الأمم المتحدة والجامعة العربية حتى يعرب الشعب الليبي عن ارادته في اختيار الحكومة التي يريدها ونجحت الجامعة العربية في لم شمل الاحزاب السياسية في ليبيا وتوحيد كلمتها وفي عام ١٩٤٦ قامت في طرابلس مظاهرات صاخبة للمطالبة بالاستقلال ، ونتيجة لذلك اجتمع وزراء خارجية ا لدول الأربع الكبري لبحث مصير المستعمرات الايطالية ومن بينها ليبيا ، ونتيجة لعدم توصلهم إلي قرار موحد أحالوا الموضوع علي هيئة الأمم المتحدة ، وخلال ذلك حدثت مناورات من أجل تقسيم ليبيا حيث اجتمع وزير الخارجية البريطاني بيغن مع وزير الخارجية الايطالي سفورزا واتخذا قرارا باعطاء حق الوصاية لإيطاليا علي طرابلس ولانجلترا علي برقة ولفرنسا علي فزان علي أن تتحول ليبيا إلي دولة مستقلة بعد عشر

(١) يحيي : المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٨٢.
(٢) أحمد رمزي : فزان بين يدي الاتراك والطليان والفرنسيين ، القارهة ، ١٩٥٢ ، ص ٤٩ ـ ٥٥.
(٣) عن هذه الأحزاب والأندية والجمعيات أنظر : نقولا زيادة : ليبيا في العصور الحديثة ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص ١٤٠.
(٤) سيد نوفل : العمل العربي المشترك ماضيه ومستقبله ، القاهرة ١٩٧٤ ص ٧٧ ـ ٧٨.

سنوات[1] ، ولكن الشعب الليبي رفض هذا القرار و قاومه ، و توجه وفد ليبي إلي الأمم المتحدة ليشرح قضية بلاده أمام أعضاء المنظمة الدولية ، وكان من نتيجة ذلك أن رفضت الأمم المتحدة قرار الوصاية.

وخلال ذلك الوقت قررت الاحزاب الطرابلسية تشكيل هيئة تحرير ليبيا في ١٣ مارس ١٩٤٧[2] وضمت الهيئة بشير السعداوي وأحمد السويحلي ومحمود المنتصر ومنصور قداره وطاهر المريض ولعب عبد الرحمن عزام الأمين العام لجامعة الدول العربية وقتذاك دورا هاما في العمل علي تشكيل هذه الهيئة .

وقد تم توسيع نطاق هذه الهيئة في عام ١٩٤٩ م وضمت مفتي طرابلس وغيره من الشخصيات واصبح أسمها : المؤتمر الوطني الطرابلسي، وأرسل المؤتمر وفدا إلي بنغازي للاجتماع بالأمير السنوسي والاتفاق معه علي قيام وحدة فيدرالية تحت رئاسته ، وعلي الرغم من أن السنوسي قد عارض هذه الوحدة في بداية الأمر فإنه لم يلبث أن و افق عليها [3].

وفي ٢١ نوفمبر من عام ١٩٤٩ قررت هيئة الأمم المتحدة استقلال ليبيا ، وقد سارت الأمور موضع التنفيذ حيث تم في ٢٤ ديسمبر ١٩٥١ الإعلان عن استقلال ليبيا بأقسامها الثلاثة برقه وطرابلس وفزان تحت اسم المملكة الليبية المتحدة ، وإعلان محمد ادريس السنوسي ملكا عليها وفي الوقت الذي أعلن فيه ذلك كانت القوات البريطانية والامريكية المتمركزة في ليبيا تنفخ الابواق تحية لليبيا في عيد استقلالها[4].

وفي عام ١٩٥٣ م انضمت ليبيا إلي جامعة الدول العربية كما انضمت إلي هيئة الأمم المتحدة في عام ١٩٥٥.

وعلي الرغم من عهد الوحدة الذي أطل علي ليبيا فقد كانت الحاجة ماسة إلي فك قيدها بعد أن كبلت بثلاث معاهدات أمريكية وانجليزية وفرنسية ولما كانت عملية الاستقلال والوحدة لم تتم إلا إذا تساقطت قيود هذه المعاهدات غير المتكافئة وقيود النفوذ الاجنبي والشركات الاحتكارية فقد وافق البرلمان الليبي بالاجماع في ١٦مارس ١٩٦٤ م علي أنهاء معاهدة الصداقة والتحالف بين ليبيا وبريطانيا ، والاتفاقيتين العسكرية والمالية الملحقتين بها ، والاتفاقية العسكرية المعقودة بين ليبيا وأمريكا تصفية كاملة ، وجلاء جميع القوات المسلحة لهاتين الدولتين عن الاراضي الليبية جلاء تاما، واعطاء الفرصة للحكومة تمكينا لها من اتخاذ الخطوات التنفيذية لانهاء تلك المعاهدة والاتفاقات ، وتصفية القواعد عن طريق المفاوضات مع الدولتين

(١) مجيد خدوري : ليبيا الحديثة ، بيروت ، ١٩٦٦ ، ص ١٥٢.
(٢) شكري : المرجع السابق ، المجلد الثاني ، ص ١٠٢٣ وما بعدها .
(٣) ياغي وشاكر : المرجع السابق ، ص ٨٤ ـ ٨٥.
(٤) سامي حكيم : استقلال ليبيا ، القاهرة ،الانجلو المصرية،الطبعة الثانية ، ١٩٧٠ ،ص٢٤٥ـ٢٤٦

المتعاقدتين، مما أحرج موقف الحكومة والملك ونتيجة لذلك بدأت المباحثات المطلوبة بين الجانبين البريطاني والامريكي في أبريل ١٩٦٤، وفي ٢١ اغسطس من نفس العام أذاع "محمود المنتصر" رئيس الوزراء الليبي بيانا أعلن فيه موافقة الحكومة البريطانية والامريكية علي مبدأ الجلاء والغاء القواعد الاجنبية في ليبيا (١) ، ثم توالت بعد ذلك عملية أنفكاك ليبيا من قيود السيطرة خاصة بعد قيام ثورة الفاتح في سبتمبر ١٩٦٩ وخلع الملك ادريس السنوسى، وتولى معمر القذافى السلطة وقيامه بتأسيس ما يسمى بالجماهيرية، واستمر فى الحكم حتى بدأت الإحتجاجات ضده فى أعقاب ثورات الربيع العربى ونشوب الحرب الأهلية التى عجلت بالتدخل العسكرى من قبل قوات التحالف بقيادة حلف شمال الأطلنطى، والتى انتهت بهزيمة قوات القذافى فى معركة طرابلس فى أغسطس ٢٠١١ وانتهاء حكمه ومقتله على أيدى الثوار فى ٢٠ أكتوبر من نفس العام.

---

(١) سامي حكيم : المرجع السابق ، ص ٢٨٣ ـ ٢٨٥.

كانت تونس الخضراء قاعدة افريقية ، ومقر الولاة العرب في المغرب، وقد مثلت تونس دورا زاهرا خلال حكم الأغالبة فالعبيديين ثم ترامت سلطنها في عهد الحفصيين ودار ا لفلك دورته، وكشر الزمن عن انيابه فتنازع تونس الفوضي، واستولي الاسبان علي ثغورها، وخلال ذلك ظهر خير الدين باربا روس وساندته الدولة العثمانية حتى تمكن من انتشال تونس من ايدي الطامعين، ولكن اسبانيا لم تلبث أن أعادت سيطرتها علي تونس، وظلت الأمور علي ذلك حتى تمكن سنان باشا من ضمها نهائيا إلي الدولة العثمانية في عام١٥٧٤ (١) ، بعد أن استطاع العثمانيون طرد الاسبان من تونس علي أثر استنجاد الحسن الحفصي بهم ، وتمكنهم من انهاء حكم الدولة الحفصية التي حكمت تونس حوالي ثلاثة قرون ونصف ١٢٠٧ ـ ١٥٧٤م وقبل أن يغادر سنان باشا تونس قام بتنظيم شئونها فالحقها بولاية الجزائر ، كما ألف فيها ادارة كانت فرقة الانكشارية مدار سلطتها وزعماؤها هم أعضاء المجلس الذي يرأسه الباشا ممثل السلطة يساعده ديوان استشاري مكون من كبار الضباط والمسئولين وعلي رأس هؤلاء الزعماء رئيس منهم يطلق عليه الأغا أو الداي (٢)، ومنذ ذلك التاريخ تتابع علي حكم تونس عدد كبير من الدايات والبابات كان اشهرهم عثمان داي الذي حاول النهوض بالبلاد ، ويوسف داي الذي نهض بالنواحي التعليمية (٣) ، وظلت تونس يحكمها الولاة حكما مباشرا ويتوارثها ابناؤهم أحيانا (٤) ، وأن ارتبطوا بالولاء الأسمي للسلطان خصوصا من الناحية الروحية ، فكانت الخطب تلقي في المساجد باسمه .

وقد واجهت تونس مصاعب مالية بسبب تراكم الديون عليها نتيجة لبذخ بعض الدايات وانغماسهم في الترف ، ومحاولة ظهورهم بمظهر الحكام العصريين ، وعلي سبيل المثال نذكر أنه في عصر أحمد باي ١٨٣٧ ـ ١٨٥٥ انفق الكثير من الأموال في بعض المشروعات العمرانية والاصلاحات وفي عمليات البذخ والترف وشراء الهدايا مما أدي في نهاية الأمر إلي التوسع في الاستدانة ووقوع تونس فريسة في أيدي الدول الأوروبية ، واقحام الاجانب في شئون البلاد الداخلية بحجة القيام بالاصلاحات التي أرادها الباي واجبارها علي إصدار ما يسمي بعهد الأمان الذي اكسبت مجمل

---

(١) محمد جميل بيهم : الحلقة المفقودة في تاريخ العرب ، القاهرة ، البابي الحلبي الطبعة الأولي ، ١٩٥٠ ، ص ١٠١ ـ ١٠٢.

(٢) يعني الخال بالتركية .

(٣) للتفاصيل أنظر شوقي الجمل : المغرب العربي الكبير ، القاهرة ، الانجلو المصرية ، ١٩٧٧ ، ص ١٠٨.

(٤) جعل الباي مراد تونس وراثية لابنائه من بعده ونتيجة ذلك اشتد النزاع بين أولاده علي كرسي الحكم

نصوصه مزايا عديدة للاجانب منها حق العمل والملكية في تونس ، حقيقة أن هذا العهد شمل في نصوصه العديد من المنافع ، ولكن ضرره علي التونسيين كان أكثر من نفعه[1].

وبعد أن قررت فرنسا الاحتفاظ بالجزائر ، ازداد عزمها علي احتلال تونس رغبة منها في منع قيام نظام في تونس يهدد احتلالها للجزائر ، وقد شجعها علي ذلك تأييد كل من ألمانيا وبريطانيا لها ، فقد رغب المستشار الألماني بسمارك في ابعاد فرنسا عن التفكير في هزيمتها في الحرب السبعينية، وصرف أنظار الفرنسيين عن الألزاس واللورين ، وعن فكرة الانتقام لهزيمتهم بتأييد جهود فرنسا الاستعمارية خارج أوربا فصرح للسفير الفرنسي في أوائل عام ١٨٧٩ أن الكمثري الفرنسية قد نضجت وحان قطافها وستفسد هذه الفاكهة أو تسرق إذا تركتموها علي الشجر لمدة طويلة ، كما أقرت بريطانيا لفرنسا مبدأ ترك حرية التصرف لها في تونس في مقابل موافقة فرنسا علي احتلالها لجزيرة قبرص بشرط ألا تورط فرنسا بريطانيا في هذه المسألة ، بل تعتمد علي نفسها في ذلك ويؤكد هذا أنه عندما طلبت فرنسا من الحكومة البريطانية في الثالث والعشرين من يوليو ١٨٧٨ أن تصدر تصريحا تعلن فيه موافقتها علي احتلال فرنسا لتونس تحفظ اللورد سالسبوري وزير الخارجية البريطانية وقتذاك علي ذلك بقوله (نحن لا نستطيع أن نعطي ما لا نملك ، ولكن إذا أقدمت فرنسا علي احتلال تونس فاننا لن نحتج ولن نعترض فافعلوا في تونس ما ترونه ملائما .

أما عن ايطاليا فانها اعترضت علي تغلغل النفوذ الفرنسي في تونس وقاومته، وبدأت حملة دعاية قوية ضد فرنسا خاصة وأن تونس كانت محط أنظار الساسة الطليان ، كما كانت هناك معاهدة بين ايطاليا والباي عقدت في عام ١٨٦٨ كان من أهم بنودها صون مصالح الايطاليين في تونس والاحتفاظ بجنسيتهم هناك يضاف إلي ذلك أن المسافة بين صقلية وتونس لا تزيد علي سبعين ميلا [2] وخشية من انفلات الوضع في غير صالح ايطاليا قام الملك الايطالي "امبرتو" بزيارة لجزيرة صقلية وخلالها أكد اهتمام ايطاليا بالمسألة التونسية .ولما بدا لفرنسا ضرورة الاسراع لاحتلال تونس بحجة أنها امتداد طبيعي للجزائر ، اتخذت من عبور القبائل التونسية حدود الجزائر ذريعة لضم تونس إليها ، فارسلت قواتها في مايو ١٨٨١ إلي قرب العاصمة التونسية ، وأعلنت أن غرضها هو اقرار النظام ، ولكنها ما كادت تصل إلي العاصمة حتى أجبرت الباي علي توقيع معاهدة باردو في ١٢ مايو ١٨٨١ والتي أعلن الفرنسيون في اعقابها الحماية علي تونس بحجة المحافظة علي الأمن ورعاية حسن

---

(١) صلاح العقاد : المغرب العربي ، القاهرة ، الانجلو المصرية ، ١٩٨٥ ، ص ١٦٧.
(٢) محمد رفعت : التيارات السياسية في حوض البحر المتوسط ، القاهرة ، لجنة البيان العربي ، ١٩٤٩.

الجوار ، وإلي جانب ذلك فقد كبلت فرنسا تونس بالاغلال ، وأصبح المقيم الفرنسي في تونس هو صاحب الكلمة العليا ، وتولت فرنسا تمثيل تونس، ورعاية مصالحها في الخارج .

وقد شملت الحماية الفرنسية جميع المرافق في تونس فانتشر الموظفون الفرنسيون في المراكز الحكومية بتونس ، كما تحولت الكثير من الاراضي الزراعية إلي قطاعات تمنح للمستوطنين الفرنسيين وإلي جانب ذلك قام الفرنسيون بتجنيد المواطنين التونسيين وأعطائهم الجنسية الفرنسية ، كما حاولوا قطع صلاتهم الثقافية، بتراثهم العربى وحضارتهم الاسلامية وذلك بتأسيس نظام تعليمى يقتلع الشبان من جذورهم الثقافية ونتيجة لذلك بدأت الحركة الوطنية في تونس في شكل حركة اسلامية، وكانت مدرسة الزيتونة معقلا لمقاومة السياسية الفرنسية ، كما بقي مسجدها حارسا للتراث العربي الاسلامي بالاضافة إلي أنه ظل مركزا ثقافيا ودينيا ليس لتونس فحسب بل لبلاد المغرب كلها (١).

وظلت فكرة تقوية الروابط مع الجماعة الاسلامية التي كان يرددها السلطان العثماني عبد الحميد ملتقي أفئدة التونسيين كما تكونت الجمعيات السرية ضد الفرنسيين وقامت المظاهرات ضد فرنسا في أماكن متعددة من تونس ، ثم تبلورت الحركة الوطنية بعد ذلك عن طريق الطلاب الذين درسوا في الجامعات الاوربية فصدرت جريدة التونسي التي تولي تحرير نسختها العربية الشيخ عبد العزيز الثعالبي وتكون حزب المقاومة الذي أصبح بعد ذلك حزب تونس الفتاة (٢) وقد شجع هذا الحزب الاهالي علي القيام بمظاهرات ضد الفرنسيين في عام ١٩١١ بسبب محاولتهم اقامة خط حديدي عبر مقابر المسلمين ومحاولتهم انتهاك حرمة الموتي .

ونتيجة لتدهور الأمور قامت فرنسا بحل حزب تونس الفتاة ونفي اعضائه ، مما اضطر مناصريه إلي العمل في الخفاء وقد أخذت الحركة الوطنية في تونس تأخذ شكلا منظما بعد اعلان الرئيس الامريكي ولسن لمبادئه في نهاية الحرب العالمية الأولي مما كان له أكبر الأثر في شحذ همم التونسيين نحو الاستقلال، كما كانت قيام ثورة ١٩١٩ في مصر ضد الانجليز بمثابة البركان الذي فجر روح النضال في تونس، وفي غيرها من بلدان العالم العربي ، فذهب عبد العزيز الثعالبي إلي باريس في عام ١٩١٩ علي رأس وفد لعرض قضية بلاده علي مؤتمر الصلح ، ولكنه عاد إلي بلاده خالي الوفاض، وفي أعقاب ذلك انقسمت تونس إلي ثلاثة معسكرات متعارضة قسم يطالب فرنسا بالاستقلال علي اساس معاهدة تحالف وصداقة ، وقسم

---

(١) نجلاء عز الدين : العالم العربي ـ ترجمة محمد عوض ابراهيم وأخرون ، القاهرة، دار احياء الكتب العربية ، الطبعة الثانية ١٩٦٢ ، ص ٣٩٣.

(٢) أسس هذا الحزب في عام ١٩٠٨ وكان متأثرا بحركة تركيا الفتاه .

يشمل المجموعة الفرنسية التي لا تأبه بمصالح التونسيين ولا تميل إلي اجابة مطالبهم أما الايطاليون فقد انحسر دورهم مؤقتا كعامل سياسي مؤثر في تونس وعن الجانب الأول فقد أسس العلماء والأعيان في تونس حزب الدستور الحر التونسي في عام ١٩٢٠ الذي دعا إلي التعاون مع فرنسا ومناشدة عطف الاحزاب اليسارية بها وقد تقدم هذا الحزب ببرنامج اصلاحي اشتمل علي تشكيل جمعية تشريعية مختلطة من الفرنسيين والتونسيين وتاليف وزارة مسئولة ، والفصل بين السلطات وحرية التجمع والصحافة وتوفير فرص التعليم ، وايجاد المناخ الاقتصادي المناسب للتونسيين ومع أن هذا البرنامج لم يتعرض لطلب الاستقلال فقد رفضته فرنسا مما خيب أمال الوطنيين وفي مطلع عام ١٩٣٠ تأسس حزب الدستور الجديد الذي تمكن المحامي الشاب الحبيب بورقيبه من الوصول إلي منصب الأمين العام له ، وكانت له فروع عديدة في انحاء تونس ، وقد نال هذا الحزب تأييدا شعبيا واسعا نتيجة لأن معظم اعضائه كانوا من الطبقات العاملة ، وقد أخذ زعماء هذا الحزب في عقد مؤتمرات شعبية ربطت بين فكرة التحرر السياسي وفكرة التقدم والتطور الاجتماعي ، ونتيجة لخطورة ذلك علي الوجود الفرنسي اعتقلت فرنسا معظم زعماء الحزب في عام ١٩٣٤ واودعتهم السجون [1] ثم لم تلبث أن افرجت عنهم فعاد الحزب يزاول نشاطه الوطني لفترة قامت فرنسا خلالها باعتقال الاهالي وارهابهم مما أدي إلي قيام المظاهرات في انحاء تونس وكان رد الفرنسيين علي ذلك اعلان الاحكام العرفية وحل الحزب واعتقال رجالاته .

واستمر التوتر بين الفرنسيين والأهالي مما أدي إلي حل جميع الأحزاب . وعندما نشبت الحرب العالمية الثانية كانت جميع الاحزاب التونسية تعمل في الخفاء ، ثم نشطت بعد استسلام فرنسا لالمانيا في منتصف عام ١٩٤٠ فطالب حزب الدستور الجديد بالافراج عن المعتقلين وانهاء الحماية وقد انتهز باي تونس فرصة هزيمة فرنسا ووصول الالمان إلي تونس فشكل حكومة وطنية ضمت المطيري وصالح وفرحات ، كما نشط حزب الدستور الجديد فأسس جريدتي افريقية الفتاة والمغرب العربي ، كما فتح مكتبا له في برلين أطلق عليه مكتب المغرب العربي ، وخلال ذلك أطلق الألمان سراح الزعماء المعتقلين ومنهم الحبيب بورقيبة ولكن ذلك لم يستمر طويلا حيث انقلبت الامور رأساً علي عقب ، وعادت فرنسا إلي تونس وقامت بالحاق الأذي والاضطهاد بأهلها وخلعت الباي ، وضعف نشاط الاحزاب السياسية ، وفر معظم الزعماء ومنهم بروقيبة إلي القاهرة، وخلال ذلك برز دور الحركة العمالية في النضال الوطني ، واتسع نطاقها ، وكان من زعماء هذه الحركة فرحات حشاد الذي أسس ما بين عامي ١٩٤٤ ـ ١٩٤٦ الاتحاد العام للعمال التونسيين وفي عام ١٩٤٩

(١) جلال يحيي : المرجع السابق ، ص ٢٤٩ ـ ٢٥١.

أسس العمال الزراعيون اتحادا لهم تحت اسم اتحاد الفلاحة التونسية ، وبعد انتهاء الحرب استعادات الاحزاب السياسية نشاطها ففي عام ١٩٤٦ نظم الحزب الدستوري الجديد مؤتمراً يطالب بالاستقلال بالاضافة إلي الانضمام لجامعة الدول العربية ، وهيئة الامم المتحدة ، كما أخذ الزعماء التونسيون يحاولون الوصول إلي تفاهم مع فرنسا ولكن دون جدوي ، ونتيجة لذلك عرضت تونس قضيتها علي هيئة الأمم المتحدة في عام ١٩٥١ و ١٩٥٢ ولكن محاولاتها باءت بالفشل نتيجة لاعتراض مندوب فرنسا علي ادراجها ضمن جدول أعمال الهيئة ، مما أضطر التونسيون إلي استئناف نضالهم واجبر فرنسا علي ان تعرض عليهم حكما ذاتيا في بداية الأمر ، واضطرها بعد ذلك الي الاعتراف باستقلال تونس في ١٧ مايو ١٩٥٦ وفي يوليو من عام ١٩٥٧ ألغيت الملكية في تونس ، وأعلنت الجمهورية وتمت موافقة الجمعية التأسيسية علي تعيين الحبيب بروقيبة رئيسا للدولة كما وافقت أيضا علي الدستور الذي صدر في عام ١٩٥٩ والذي ينص علي أن تونس دولة مستقلة دينها الاسلام ، ولغتها العربية ، ونظامها جمهوري .

وهكذا وبعد احتلال فرنسي دام ستة وخمسين عاما أصبحت تونس دولة مستقلة تبني نفسها من جديد ، وتعمل علي تصفية القواعد العسكرية الاجنبية التي كان آخرها جلاء الفرنسيين عن بنزرت في عام ١٩٦٣ هذا إلي جانب محاولات تخليص نفسها من التبعية الاقتصادية لفرنسا .

وقد انضمت تونس إلي جامعة الدول العربية في عام ١٩٥٨.

وظل بورقيبة فى حكم تونس حتى نجح زين العابدين بن على فى إحداث انقلاب أبيض عليه فى نوفمبر ١٩٨٧ وتولى الحكم مكانه، وقد بدأ زين العابدين حكمه بالانفتاح على المعارضة واطلاق سراح العديد من سجناء الرأى والسياسيين، ولكن ذلك لم يستمر طويلا لذلك بقيت الأزمة السياسية تراوح مكانها فى تونس حتى قامت الثوره ضده فهرب مع زوجته إلى السعودية فى يناير ٢٠١١ وتولت حكومة النهضة دفة الحكم فى تونس.

عاشت بلاد المغرب منذ عصرها الحديث في ظروف خاصة اعتزت خلالها بشخصيتها الاقليمية ، ووقفت ضد الاطماع التي هددتها ، وتمكنت من أن تحافظ علي حدودها من جهتين هما :

١ ـ الوقوف أمام الخطر الأسباني الذي كان يهدد سيادتها ويطمع في آراضيها .

٢ ـ وقف الزحف العثماني الذي اقترب من حدودها بعد أن استولي العثمانيون علي الجزائر وتونس وحاولوا ادماج مراكش في بقية اقاليم الدولة العثمانية .

ونتيجة لذلك ظل المغرب طيلة خمسة قرون وحتى أوائل القرن العشرين في منأي عن السيطرتين العثمانية والاوربية علي الرغم من وقوع بعض الجيوب الساحلية منه في يد البرتغاليين والأسبان ونتيجة لذلك ظل للمغرب طابعه ومظهره ، كما ظلت أوضاعه ثابتة [١] ، في حين كان العالم العربي في مجمله قد سقط تحت الحكم العثماني ، وبدأ التغلغل الاوربي ينفذ إلي أرجائه ، وقد عبر عن ذلك المؤرخ (ليفي بروفنسال) بقوله (كان المغرب لمدة خمسة قرون خلت الدولة الاسلامية الوحيدة التي وعت نفسها علي أنها أمة) [٢] ، ولكن ذلك لم يستمر طويلا فقد تغلغل النفوذ الاسباني في مراكش بموجب معاهدة ١٨٦١م التي عقدها السلطان محمد بن عبد الرحمن مع اسبانيا ، يضاف إلي ذلك أن مراكش تعرضت للتغلغل الاوربي في أعقاب الوحدة الألمانية عام ١٨٧٠م وذلك عندما بدأت ألمانيا تعاني من مشكلة عدم تملكها للمستعمرات أسوة ببريطانيا وفرنسا حتى تستطيع تصريف منتجاتها ، والحصول علي المواد الخام اللازمة لصناعتها وانشاء أسواق لها فيها ، ومن هنا بدأت ألمانيا تتطلع للبحث عن مستعمرات لها خارج أوربا ، ونتيجة لذلك بدأ التنافس بينها وبين فرنسا من أجل مراكش ، و قد تصدت فرنسا لهذه المحاولة ، وذلك بربط نفسها بعدة اتفاقات مع بعض دول أوربا ، فعقدت اتفاقا مع إيطاليا اتفقت معها فيه علي أن تطلق ايطاليا يد فرنسا في مراكش في مقابل أن تطلق فرنسا يد ايطاليا في طرابلس وبرقة ، كما عقدت اتفاقا مع اسبانيا في ٢٧ يونيو ١٩٠٠ اتفقتا فيه علي اقتسام الاجزاء الجنوبية من مراكش ، فتحصل اسبانيا علي منطقة الريف التي تشمل الشريط الساحلي من مراكش المقابل للساحل الأسباني عند جبل طارق بينما تحصل فرنسا علي ما تبقي من مراكش .

---

(١) جلال يحيي : المغرب الكبير ـ العصور الحديثة وهجوم الاستعمار ـ الاسكندرية ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٦ ص ٣٤٣ .

(٢) روم لاندو : تاريخ المغرب في القرن العشرين ـ ترجمة نقولا زيادة ، بيروت ، دار الثقافة ، الطبعة الثانية ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م ص ٣٧ ـ ٣٨.

كما تقربت فرنسا من بريطانيا وعقدت معها الاتفاق الودي في الثامن من ابريل ١٩٠٤م والذي أطلقت بمقتضاه يد فرنسا في مراكش في مقابل أن تطلق فرنسا يد انجلترا في مصر (١) ، ومنذ ذلك الحين بدأت فرنسا تتربص بمراكش ، وتعد العدة للاستيلاء عليها وقد تركزت خطتها في ذلك بأن يقوم وزير خارجيتها دلكاسيه بتقديم العديد من المقترحات إلي سلطان مراكش بشأن الاصلاحات الداخلية في بلاده حتى إذا رفضها يكون في ذلك ذريعة لتدخل فرنسا عسكريا لفرضها بالقوة كل ذلك أزعج الألمان ، وجعلهم يقومون باتصالات مباشرة مع حاكم مراكش يعربون فيها عن عدم إرتياحهم لما جاء في الاتفاق الودي ، ويحرضونه علي رفض مقترحات دلكاسيه.
وأعقب ذلك قيام الامبراطور الألماني "وليم الثاني" بزيارة لميناء طنجة في ٣١ من مارس ١٩٠٥ في محاولة منه لافساد الإتفاقات التي عقدتها فرنسا مع بعض الدول بشأن مراكش ، وليؤكد صداقته لسلطانها فالقي خطابا دراميا مسرحيا أوضح فيه تأييد المانيا لاستقلال مراكش ، ودعا إلي أن تحافظ مراكش علي استقلالها ، وطالب سلطانها باتباع سياسة الباب المفتوح لجميع الدول علي السواء بحيث لا يكون لدولة فيها امتياز علي الأخري بل يظل المغرب منفتحا لتنافس سلمي بين جميع الدول (٢) ، وطالب بأن تسير سياسة مراكش مع جميع الدول علي مبدأ المساواة المطلقة واقترح الامبراطور الالماني عقد مؤتمر دولي لبحث هذه المسألة ، مما أدي إلي تأزم الموقف الدولي واستفزاز فرنسا وخشية تطورات الموقف الذي بدأ ينذر بظهور شبح حرب عالمية اتفق علي عقد مؤتمر دولي في أوائل عام ١٩٠٦ م في بلدة الجزيرة الخضراء (٣) ، لدراسة الاوضاع في مراكش وبالموافقة علي عقد هذا المؤتمر حققت ألمانيا نصرا دبلوماسيا كبيرا وقد اشترك في هذا المؤتمر اثنتا عشرة دولة بالاضافة إلي مراكش وهذه الدول هي ألمانيا والنمسا وبلجيكا واسبانيا والولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا وايطاليا وهولندا والبرتغال وروسيا والسويد وقد خرج هذا المؤتمر بعدة نتائج كانت في معظمها في غير صالح ألمانيا حيث وقف معظم مندوبي الدول المشاركين في المؤتمر إلي جانب فرنسا ولم يبق بجانب ألمانيا سوي النمسا ، وقد تم الاتفاق علي الاعتراف بسيادة سلطان مراكش، وتقرر انشاء قوة بوليسية من فرنسا وأسبانيا للمحافظة علي الأمن في مراكش ، وأن تدير كل منهما شئون الجمارك هناك وتقوم بما تراه مناسبا من الاصلاحات ، كما أقر المؤتمر بمبدأ حرية التجارة بالمساواة لجميع الدول الممثلة في المؤتمر (١) وتبعا لذلك أخذت كل من فرنسا وأسبانيا في بذل

---

(١)رأفت الشيخ : في تاريخ العرب الحديث ، القاهرة ، دار الثقافة ، ١٩٧٥ ، ص ٣٩٨.
(٢) لاندو : المرجع السابق ص ٨٩.
(٣) بلدة تقع علي شاطئ البحر المتوسط الاسباني وقريبة من جبل طارق.
(١) عبد الكريم الغيلاني : المغرب ملكا وشعبا ، القاهرة ، دار الطباعة الحديثة ، ١٩٥٧، ص ٨٢ ، ولاندو : المرجع السابق ص ٩٢.

أقصي جهودها للسيطرة علي مراكش بحيث لم يمض عام واحد علي توقيع الاتفاقية حتى احتل الفرنسيون وجدة ، والدار البيضاء ، واحتل الاسبان مليلة وسبته علي الرغم من تعهداتهم باحترام استقلال مراكش ، وبالرغم من أن ألمانيا خرجت خالية الوفاض من مؤتمر الجزيرة فقد ظلت مترقبة للفرص لمحو هزيمتها الدبلوماسية وقد حانت فرصتها بعد أن تفاقمت القلاقل في مراكش ، وأعرب المراكشيون عن نقمتهم علي سلطانهم ، مما أدي إلي استنجاد السلطان عبد الحفيظ بالفرنسيين للقضاء علي الثورة في بلاده ، وكانت تلبية فرنسا للنداء وانتهازها هذه الفرصة وارسال قواتها البحرية إلي الدار البيضاء ثم قيامها بحملة حربية علي مراكش في ربيع عام ١٩١١ م بحجة الاستجابة لرغبات السلطان وحماية رعاياها هناك واجبارها لسلطان مراكش علي توقيع معاهدة حماية فرنسية علي بلاده وقد اعتبرت المانيا ما حدث انتهاكا لمصالحها في مراكش ، وأخذت بسياسة استعراض القوة ، فارسلت في أوائل يوليو ١٩١١ الطراد بنثر في مظاهرة بحرية عند مياه أغادير(١) ، احتجاجا علي إرسال فرنسا لحملتها الحربية علي مراكش ، وبحجة حماية مصالحها التجارية هناك، وقد أحدث ذلك ردود فعل عنيفة في العديد من العواصم الاوربية ، وأصبح العالم يخشي من وقوع صدام قد يؤدي إلي حرب عالمية(٢).

ولتهدئة الموقف بدأت المساومات بين الفرنسيين والألمان وانتهت بتوقيع اتفاقية في الرابع من نوفمبر ١٩١٤ حصلت ألمانيا بمقتضاها علي جزء من الكونغو الفرنسية (٣) في مقابل الاعتراف بمكانة فرنسا المتميزة في مراكش ، وانتهي الأمر بفقدان مراكش لاستقلالها واضفاء الصبغة القانونية علي الحماية الفرنسية مع اسبانيا لاقتسام المغرب ، وتوصلت إلي اتفاق يسمح لأسبانيا بأن تبسط سيطرتها علي الريف بأسره مقابل اطلاق يد فرنسا في باقي أجزاء المغرب(٤) ، مما أدي إلي انتهاء أمر هذه البلاد كوحدة سياسية مستقلة (١) ، وعلي الرغم من ذلك ومع أن السلطان عبد الحفيظ قد وقع معاهدة الحماية الفرنسية علي بلاده ، فإن الأمر لم يستقر للفرنسيين هناك ، فقامت الأمة المغربية بعربها وبربرها ضد الحماية الفرنسية ، ولم تستطع فرنسا اخضاع المغرب بأسره لحكمها إلا بعد عشرين عاما تقريبا من غزوها لأراضيه(٢).

---

(١) ميناء صغير علي المحيط الاطلسي في طرف المغرب الجنوبي
(٢) جلال يحيي : المرجع السابق ج ٣ ، ص ٧٣٣.
(٣) كان يبلغ مساحتها حوالي ثلاثة آلاف كيلو متر تقريبا.
(٤) العرب : الجزءان السابع والثامن في محرم ١٣٩٨ هـ مقال للاستاذ محمود شبيب تحت عنوان (من ابطال العرب) عبد الكريم الخطابي ص ٥٦٢.
(١) لاندو : المرجع السابق ، ص ٧٧.
(٢) نفسه ص ١٠٨.

ولما شرعت أسبانيا في احتلال منطقة الريف وجباله تصاعد النضال الشعبي المسلح بقيادة الشريف أحمد الريسوني في منتصف ابريل ١٩١٢ وحتى ابريل ١٩٢٥ وتمكن رجال المقاومة من تحقيق انتصارات ساحقة علي الاسبان ، واعاقة تقدمهم إلي داخل البلاد ، وإذا كان الطابع القبلي قد طغي علي النضال خلال هذه الفترة فإن بروز الأمير عبد الكريم الخطابي (١) وابنه محمد (٢) يعد نقطة تحول في طريق الكفاح المسلح بمنطقة الريف مما هدد الوجود الاستعماري في شمالي افريقية خلال هذه الفترة وجعل من الأمير عبد الكريم علما من أعلام التحرر في كل بلدان المغرب العربي والشغل الشاغل لوكالات الأنباء والصحافة العالمية (٣) وعلي الرغم من التحذيرات التي وجهها الأمير عبد الكريم للاسبان إلا أن هؤلاء بما لديهم من قوة هائلة تصوروا أن الغزو المرتقب سيكون نزهة ، وهكذا بدأت المناوشات في أوائل عام ١٩٢٠ والتي استطاع الأمير عبد الكريم خلالها احراج مركز الاسبان في بلاده (٤) .

وبعد وفاة الأمير عبد الكريم نتيجة دس السم له ، انتقلت القيادة إلي ابنه الأمير محمد الذي انصرف إلي دعوة قبائل الريف للانضمام إلي قواته والوقوف في وجه الحكم الاسباني (١) الذي اتسم بالعنف والفساد والظلم والعجز ، وقد استطاع الأمير محمد مواجهة الاسبان والاستيلاء علي احدي مراكزهم الحربية في (داربارا) بعد معركة عنيفة قتل فيها ثلاثمائة من الجنود الاسبان وغنم فيها الكثير من المدافع والبنادق والذخيرة والأدوات الطبية كما استطاع الانتصار علي الأسبان في معركة شرسة بمنطقة أنوال في يوليو ١٩٢١ (٢) ، واجبارهم علي التقهقر من هذه المنطقة والمراكز التي حولها والتي تقدر بحوالي مائة مركز حربي لدرجة أنه لم يبق بيد الاسبان في ذلك الوقت من حصون سوي حصن مليلة (٣) وخسرت اسبانيا في هذه المعركة سبعة عشرة ألف جندي في أكبر هزيمة ألحقها جيش عربي بجيش أوربي في العصر الحديث وأصبح محمد عبد الكريم الخطابي حاكم الريف بلا منازع من أبواب

---

(١) ينتمي إلي أسرة عربية هاجرت قبل قرون من بلدة ينبع في الحجاز ويمتد نسبها إلي الخليفة الثاني عمر بن الخطاب وبهذا فإنه أصبح يعرف بالخطابي ، العرب : المقال السابق ص ٥٦١.

(٢) تذكره بعض المصادر باسم عبد الكريم كعادة أهل الريف في ذلك الوقت في أن يعطي الابن البكر اسم والده أنظر : شوقي عطا الله الجمل : المغرب العربي الكبير في العصر الحديث ، القاهرة ، الانجلو المصرية ، الطبعة الأولي ، ١٣٩٨ هـ/ ١٩٧٧ م ص ٣٤٤.

(٣) جلال يحيي : المغرب الكبير ـ الفترة المعاصرة وحركات التحرر والاستقلال ص ٩٥٧.

(٤) لاندو : المرجع السابق ، ص ١٤٩.

(١) العرب : المقال السابق ، ص ٥٦٣.

(٢) صلاح العقاد : المغرب العربي ، دراسة في تاريخه الحديث وأوضاعه المعاصرة ، القاهرة ، الانجلو المصرية ، ١٤ ـ ٠١ ـ ١٩٨٠ م ص ٢٦٠.

(٣) جلال يحيي : تاريخ المغرب ا لكبير ج ٤ ، بيروت ، النهضة العربية ١٤١٠ هـ/ ١٩٨١ م ، ص ١٣٦.

مليلة وحتى حدود تطوان [١] مما أقلق الفرنسيين وجعل الماريشال (ليوتي) المقيم العام الفرنسي في المغرب يبرق إلي حكومته برسالة يقول فيها أن الجهات الواقعة تحت السيطرة الاسبانية والمتاخمة للمنطقة الفرنسية اصبحت مراكز للعصيان ، وأن دولة اسلامية قوامها قومية الشمال الافريقي أخذت تنشيء نفسها في شمال المغرب الفرنسي وأن الأمير الخطابي أصبح لا يخفي هدفه في مهاجمة المنطقة الفرنسية [٢].

وعلي كل حال فإنه نتيجة للانتصارات التي حققها أهل الريف علي الأسبان بدأ الأمير محمد عبد الكريم في تنظيم شئون بلاده بهدف الوصول بها إلي حالة أكثر تطورا تستطيع من خلالها التعاون علي الجهاد والتكاتف من أجل تحقيق النصر الكامل علي الأسبان ، و مقاومة الأخطار التي تتهددها ومن أجل ذلك رأي ضرورة تشكيل جمعية وطنية تدير البلاد ، كما رأي تشكيل حكومة جمهورية دستورية علي أسس حديثة وفقا للمنظور الاسلامي القائم علي مبدأ الشوري في الحكم ، والاهتمام بتنوية الجيش وتنظيمه علي أسس عصرية ، وتنظيم مالية بلاده وتنظيم أمورها الداخلية والاقتصادية وبناء المدارس والمستشفيات والعمل علي أقامة علاقات ودية مع جميع الدول دون تمييز [١].

ولما حاول الأمير محمد عبد الكريم التوصل مع الاسبان إلي تفاهم علي أساس عدم تدخلهم في شئون منطقة الريف الداخلية تدخلت فرنسا في الأمر للحيلولة دون ذلك [٢] ، خاصة وأنها بدأت تشعر بخطورة استقلال منطقة الريف علي تواجدها في مراكش ، كما أخذت تعمل علي إثارة الحزازات القبلية في منطقة الريف وتستميل بعض القبائل إليها [٣] وتتحرش بقوات الأمير محمد عبد الكريم فتذرعت بأحقية احتلالها لأحد الوديان التي تسيطر عليها قوات الريف وانتهي الأمر باشعال نيران الحرب بين الطرفين وقيام تحالف بين الفرنسيين والاسبان واتفاقهما علي القيام بهجوم مشترك ضد الأمير وقواته بحجة أن أي انتصار للمسلمين في الريف سيكون له أثره علي الشعوب الاسلامية الخاضعة للنفوذ الاوربي ، ودارت معارك غير متكافئة اضطر بعدها الأمير محمد عبد الكريم الخطابي إلي الاستسلام بحكم نفاذ السلاح والذخيرة وتفشي الأمراض بين أهل الريف وكان ذلك في ٢٧ مايو ١٩٢٦ حيث تم

---

(١) شوقي الجمل : المرجع السابق ، ص ٣٥٢.
(٢) لاندو : المرجع السابق ، ص ٥٠.
(١) عمر أبو النصر : بطل الريف الأمير عبد الكريم الخطابي ، بيروت ، المطبعة الوطنية ١٣٥٣ هـ / ١٩٣٤ م ص ١٣٤.
(٢) اسماعيل ياغي ومحمد شاكر : تاريخ العالم الاسلامي الحديث والمعاصر ، قارة افريقيا ج ٢ ، دار المريخ ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م ص ١٥٥.
(٣) لاندو : المرجع السابق ، ص ١٥١.

نفيه إلي جزيرة ريونيون في المحيط الهندي ثم نقل بعد ذلك إلي مصر حيث تم حصوله علي حق اللجوء السياسي بها وظل هناك حتى توفي في عام ١٩٦٣م.

ونتيجة لنجاح فرنسا وأسبانيا في ضرب المقاومة المسلحة في المغرب لجأ الوطنيون إلي النضال السياسي ، فبرزت أحزاب عديدة مالت إلي اللين في مطالبها كما تأسست صحف عديدة للدفاع عن مصالح الوطن فصدرت في باريس مجلة المغرب ، وفي فاس صدرت جريدة عمل الشعب بالفرنسية وجريدة الحياة وفي تطوان صدرت مجلة السلام بالعربية كما أنشأ أول حزب مغربي باسم كتلة العمل المغربي في أواخر عام ١٣٥٤ هـ / ١٩٣٤ م ، وقد شكل هذا الحزب حركة عربية اسلامية تزعمها في منطقة الاحتلال الاسباني السيد عبد الخالق الطريسي ، كما شكل الوطنيون في منطقة الاحتلال الفرنسي حزبهم برئاسة علال الفاسي وسموه الحزب الوطني وقد تولي هذا الحزب قيادة الحركة الوطنية في مراكش في أواخر الثلاثينات من هذا القرن، وأعلن عن ميثاقه في عام ١٩٣٧ والذي يلاحظ من بنوده أن الحزب لم يطالب باستقلال مراكش عن فرنسا استقلالا تاما (١).

وفي عام ١٩٤٠ تأسس حزب جديد حل محل الحزب الوطني وهو حزب الاستقلال ، وكان تحت رئاسة محمد علال الفاسي وأمانة سر بلفريج وقد ضم هذا الحزب أعضاء الحزب الوطني وأساتذة جامعة فاس ، وأصدر جريدة بالعربية اسماها (العلم) وجريدة بالفرنسية اسماها (الاستقلال)، وقاد هذا الحزب الحركة الوطنية المراكشية بعد الحرب العالمية الثانية ووضع ضمن مبادئه الرئيسية الغاء الحماية الفرنسية التي فرضت علي مراكش منذ عام ١٩١٢ ، واستقلال مراكش استقلالا تاما .

وخلال الحرب العالمية الثانية نزلت الجيوش الامريكية في مراكش عام ١٣٦١هـ / ١٩٤٢م ، وقد رحب بها السلطان محمد الخامس ، وعقد اجتماعا مع الرئيس الامريكي روزفلت في الدار البيضاء ، وخلال ذلك وعده الرئيس روزفلت بتأييد استقلال بلاده ، وفي أعقاب ذلك دخل النضال الوطني في مراكش مرحلة جديدة وهي المطالبة بالاستقلال التام ، واقرار الملكية الدستورية كنظام للحكم.

وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية اتصل زعماء الحركات الوطنية في المغرب بالجامعة العربية وكان من مظاهر هذا الاتصال مؤتمر المغرب العربي الذي عقد في القاهرة في فبراير ١٩٤٧ وتم فيه تأييد موقف المغرب ، وشجب ممارسات فرنسا العدوانية ضده .

---

(١) محمد فؤاد شكري وأخران : نصوص ووثائق في التاريخ الحديث والمعاصر ، القاهرة ، الانجلو المصرية ص ٥٢٤.

وفي عام ١٩٥٠ قدم السلطان محمد الخامس مذكرة إلي رئيس الجمهورية الفرنسية يطالبه بالغاء معاهدة الحماية علي بلاده ، واعلان استقلال المغرب ، ولكن الفرنسيين اعترضوا علي ذلك ولجأوا إلي التهديد باستخدام القوة .

ونتيجة لذلك أثيرت قضية المغرب علي الصعيد الدولي عند انعقاد الجمعية العامة للأمم المتحدة في نيويورك في خريف ١٩٥٢ وأصرت الدول العربية علي ادراج القضية المغربية في جدول الاعمال وأيدتها في ذلك الدول الأسيوية خصوصا الهند وقد تحقق لها مطلبها، وفي اكتوبر من عام ١٩٥٣ أعربت الامم المتحدة عن ثقتها في قيام مفاوضات بين فرنسا والمغرب لحل الخلاف بينهما علي أساس من حسن النية والثقة والاحترام المتبادل ، ولكن فرنسا قامت بتحدي الأمم المتحدة ونفت السلطان محمد الخامس ثم اضطرت إلي الافراج عنه في عام ١٩٥٥ وقررت أجراء مفاوضات مع المغاربة أسفرت في نهايتها علي عقد معاهدة في مارس ١٩٥٦ اعترفت فيها باستقلال المغرب ونتيجة لذلك تغير لقب السلطان محمد الخامس إلي لقب الملك محمد الخامس .

وقد نجح ملك المغرب في قيادة بلاده إلي بر الأمان ، وكان دائم الحرص علي اضفاء روح النظام الديمقراطي علي النظام الملكي في المغرب فحاول ايجاد حكومة في البلاد تتمثل فيها جميع الميول السياسية المختلفة كما نجح في استرداد مدينة طنجة التي بقيت تحت نظام دولي حتى عام ١٩٥٧ ، وأصبحت ضمن أجزاء بلاده .

واتخذت مراكش اسم المغرب رسميا للدولة ، وقبلت عضوا في هيئة الأمم المتحدة في عام ١٩٥٦م ، ثم انضمت إلي الجامعة العربية في عام ١٩٥٨م.

وقد أهتم الملك محمد الخامس بانشاء جيش وطني ، وتعريب التعليم والقضاء والغاء القواعد الامريكية الموجودة في بلاده والسير في خطط التنمية الاقتصادية ، وبعد أن وافته المنية في ٢٦ فبراير ١٩٦١ خلفه ابنه الحسن الثاني وقد أدي المغرب في عهده دروا كاملا في خدمة القضايا العربية والاسلامية كما شارك في معارك رمضان اكتوبر ١٩٧٣، وبعد وفاه الملك الحسن الثانى تولى أريكة الحكم فى المغرب ابنه محمد السادس فى ٢٣ يوليو ١٩٩٩م، وفى عهده تم تبنى الرؤيه المغربية لإنهاء نزاع الصحراء مع جبهة "البوليسارو"

الفصل السابع

جامعة الدول العربية

نشأتها ودورها فى خدمة القضايا العربية

من المعروف أن فكرة الأمة العربية القائمة على وحدة اللغة والتاريخ والثقافة والدين والمجتمع والتقاليد أقدم من كل الأقطار العربية الجديدة التى يغلب على نشأتها وجود الحدود المصطنعة، وليس التكوين العضوى.

ونتيجة للحركات التحررية التى ظهرت فى العالم العربى فى أعقاب الحرب العالمية الثانية، وخشية من غدر الدول المنتصرة فى هذه الحرب بالعالم العربى كما حدث فى أعقاب الحرب العالمية الأولى عندما فرضت بريطانيا وفرنسا على العرب تسوية تناقض العهود التى قطعت لهم بصراحة، كما تناقض المبادئ التى وضعها الحلفاء كأساس للسلم المقبل(١)، برزت الرغبة فى تحقيق حلم طالما داعب خيال الشعوب العربية، وهو توثيق الصلات بين الدول العربية، وتحقيق التعاون بينها وتنسيق خططها السياسية بهدف صيانة استقلالها وسيادتها والظهور أمام القوى الكبرى كمجموعة واحدة مترابطة حتى تستطيع الحصول على حقوقها. ونتيجة لذلك وجهت الحكومة المصرية الدعوة إلى رؤساء الحكومات العربية المستقلة فى يوليو ١٩٤٣ للتباحث والتشاور فى هذا الأمر، وقد أسفرت المباحثات عن توقيع بروتوكول الاسكندرية فى السابع من أكتوبر ١٩٤٤ والذى نتج عنه تأسيس جامعة الدول العربية فى ٢٣ مارس ١٩٤٥م(٢) من ٧ دول عربية هى مصر، وسوريا، ولبنان، والسعودية، واليمن، والعراق والأردن. (٣)

عضوية الجامعة:

نصت المادة الأولى من ميثاق الجامعة على : أنه – بالإضافة إلى الدول المؤسسة يحق لكل دولة عربية مستقلة أن تنضم إلى الجامعة إذا طلبت ذلك- ووافق مجلس الجامعة على طلبها.

---

(١)جورج انطونيوس: يقظة العرب- ترجمة على حيدر الركابى- دمشق مطبعة الترقى ١٣٦٥هـ ، ١٩٤٦م، ص ٣٠٥.

(٢)محمد اسماعيل على: الوجيز فى المنظمات الدولية، القاهرة، دار الكتاب الجامعى، ١٩٨٢، ص ص ٣٨٢.

(٣)على صادق ابو هيف: القانون الدولى العام، الاسكندرية، منشأة المعارف، ص ٦٨٦.

ونتيجة لذلك تزايد عدد الأعضاء إلى ٢٣ دولة[١]، حيث أضيف إلى الدول السبع المؤسسة الدول التالية: السودان وقد انضمت إلى الجامعة فى عام ١٩٥٦ وتونس والمغرب فى عام ١٩٥٨ وليبيا والكويت عام ١٩٦١ والجزائر فى عام ١٩٦٢ واليمن الديمقراطية فى عام ١٩٦٧ ، والبحرين وقطر وعمان واتحاد الامارات العربية فى عام ١٩٧١ وموريتانيا فى عام ١٩٧٣ والصومال فى عام ١٩٧٤ وفلسطين[٢]، فى عام ١٩٧٦ وجيبوتى فى عام ١٩٧٧ ثم جزر القمر فى عام ١٩٩٣.[٣]

أهداف الجامعة العربية:

جامعة الدول العربية منظمة اقليمية عربية قامت استجابة للشعور العربى العام المتمثل فى أهداف واحدة وخصائص لغوية وثقافية واجتماعية واحدة ويعتبر ميثاقها المبرم فى ٢٢ من مارس ١٩٤٥ إطارا واضحا لهذه الأهداف ويؤكد ذلك ما ورد فى ديباجة ميثاقها من ان الجامعة قامت تثبيتا للعلاقات الوثيقة والروابط العديدة بين الدول العربية حرصا على دعم هذه الروابط وتوطيدها على أساس احترام استقلال تلك الدول وسيادتها وتوجيهها لجهودها إلى ما فيه خير البلاد قاطبة، وصلاح أحوالها وتأمين مستقبلها وتحقيق أمانيها وآمالها ، واستجابة للرأى العام فى جميع الأقطار العربية. [٤] ونتيجة لذلك فقد حددت الجامعة أهدافها فيما يلى:.

١ -تحقيق التعاون فى المسائل السياسية:

ولما كان القصد من إنشاء الجامعة هو توثيق العلاقات والصلات بين الدول المشتركة فيها، وتنسيق خططها السياسية وتحقيقا للتعاون بينها والنظر بصفة عامة فى شئون البلاد العربية ومصالحها، فانها تعمل بكافة اجهزتها من أجل تأمين مستقبل أعضائها، وتحقيق أمانيهم وآمالهم ، وتحاول توجيه جهودهم إلى ما فيه الخير للأمة العربية. [١]

---

(١)انخفض العدد إلى ٢٢ دولة بعد اتحاد شطرى اليمن.

(٢)بالنسبة لوضع فلسطين فقد تم قبولها بناء على مذكرة قدمتها مصر إلى الأمين العام للجامعة العربية فى ٣١ مايو ١٩٧٦ تقترح فيها تصحيح وضع عضوية فلسطين فى الجامعة بحيث يكون على قدم المساواة مع باقى الدول الأعضاء وقد وافق مجلس الجامعة على هذا الاقتراح.

(٣)وافق المجلس الوزارى لجامعة الدول العربية فى دورته المائة (سبتمبر ١٩٩٣) على انضمام جمهورية جزر القمر إلى عضوية الجامعة.

(٤)محمد عبد الوهاب الساكت: الأمين العام لجامعة الدول العربية، القاهرة، دار الفكر العربى، ١٩٧٣، ص ٥٦ ـ ٥٧.

(١)محمد عزيز شكرى:جامعة الدول العربية، الكويت، منشورات دار السلاسل ١٩٧٥ ص١٥

٢-صيانة استقلال الدول الأعضاء فى الجامعة:

نص ميثاق الجامعة الذى وقع عليه الأعضاء على أن الجامعة ليست سلطة مركزية تباشر سلطاتها على البلاد العربية، وإنما هى منظمة اقليمية دولية تقوم على التعاون الإدارى بين الدول الأعضاء دون التدخل فى شئونها، لذلك فانها تهدف إلى صيانة واستقلال أعضائها. (١)

٣-المحافظة على السلام والأمن العربيين:

نص ميثاق الجامعة ان على أعضائها عدم الالتجاء إلى القوة لفض المنازعات التى تنشب بينهم ونتيجة لذلك فان الجامعة تعمل على منع ما يهدد السلام والأمن فى المنطقة العربية، واستئصال كافة المنازعات التى تمس الدول الأعضاء فيها وذلك باحالتها إلى مجلس الجامعة لحلها أما بالوساطة أو بالتحكيم ، فإذا كان النزاع القائم لا يتعلق باستقلال الدول المعنية أو سيادتها أو سلامة أراضيها ، ووافق المتنازعون على عرض مشكلتهم على المجلس، يقوم المجلس بدور المحكم فى النزاع وإصدار قرارات ملزمة ونافذة. (٢)

٤-تحقيق التعاون العربى فى المسائل الاقتصادية والثقافية والاجتماعية ويشمل:

أ-الشئون الاقتصادية والمالية ويدخل فى ذلك التبادل التجارى والجمارك، والعملة، وأمور الزراعة والصناعة. (٣)

ب-شئون المواصلات ويدخل فى ذلك السكك الحديدية، والطرق والطيران، والملاحة، والبرق، والبريد.

ج-الشئون الثقافية ويدخل فى ذلك توحيد نظم التعليم وبرامجه والكتب والمراجع، وبرامج محو الأمية.

د-شئون الجنسية والجوازات والتأشيرات وتنفيذ الأحكام وتسليم المجرمين.

هـ-الشئون الاجتماعية.

و-الشئون الصحية.

وإلى جانب ذلك فقد أدى تشعب المصالح العربية إلى التعاون فى مجالات أخرى كالنفط ، وحقوق الإنسان وغيرها.

---

(١)حسن ابراهيم وآخرون: جولة فى السياسة الدولية، ١٩٨٨م، ص ١٧٠-١٧١.
(٢)بروتوكول الاسكندرية: ميثاق جامعة الدول العربية، ص ٢٥.
(٣)للتفاصيل انظر: بروتوكول الاسكندرية – ميثاق جامعة الدول العربية، وسامى حكيم: ميثاق الجامعة والوحدة العربية، القاهرة، الانجلو المصرية، ١٩٦٦، ص ٢٠٧.

٥-النظر فى مصالح البلدان العربية بصفة عامة:

وذلك بهدف مراعاة أمانى الأقطار العربية والعمل على إصلاح أحوالها وتأمين مستقبلها بكل الوسائل والأسباب الممكنة. (١)

مبادئ الجامعة العربية:

يمكن استخلاص المبادئ التى تقوم عليها جامعة الدول العربية التى تتحدد بها حقوق وواجبات الدول الأعضاء فيها من خلال مواد ميثاقها وهى على النحو التالى:

١-مبدأ التساوى فى السيادة بين الدول الأعضاء:

ويتمثل ذلك فى أن كل الدول الأعضاء يمثلون أعضاؤها فى مجلس الجامعة، وفى لجانه المختلفة، ولكل منها صوت واحد مهما كان عدد ممثليها، وعلى الرغم من أنه ليس للجامعة اختصاصات مستقبلية تمارسها بعيدا عن هذه الدول فان لها شخصية قانونية، وإرادة ذاتية مستقلة. (٢)

٢-مبدأ عدم التدخل فى الشئون الداخلية للدول الأعضاء:

وهو نتيجة طبيعية لمبدأ المساواة فى السيادة بين الدول وقد ورد ذلك صراحة فى المادة الثامنة من الميثاق التى نصت على أن تحترم كل دولة من الدول المشتركة فى الجامعة نظام الحكم القائم فى دول الجامعة الأخرى، وتعتبره حقا من حقوق هذه الدول، وتتعهد بألا تقوم بعمل يهدف إلى تغيير ذلك النظام فيها(٣)، ومع ذلك فقد اشترط أن تودع الدول الأعضاء فى الجامعة نسخا من جميع المعاهدات والاتفاقات التى عقدتها أو تعقدها مع دول أخرى فى الأمانة العامة.

٣-مبدأ منع الالتجاء إلى القوة لفض المنازعات بين الدول العربية:

نصت المادة الخامسة من ميثاق الجامعة على منع الدول الأعضاء فى الجامعة من الالتجاء إلى القوة لحل المنازعات التى قد تنشأ بينها، بل تتم تسوية المنازعات التى قد تنشب بينها عن طريق الوساطة والتحكيم.

٤-مبدأ المساعدة المتبادلة " الدفاع المشترك":

أقر مجلس الجامعة هذا المبدأ وكفل التدابير اللازمة لدفع العدوان الواقع على أى دولة عضو فى الجامعة، علما بأن ميثاق الجامعة لا يلزم الدول الأعضاء بتقديم المساعدة مباشرة للدول المعتدى عليها لكنه يجيز ذلك، ولما كان ميثاق الجامعة يشترط

---

(١)شكرى: المرجع السابق، ص ١٩- ٢٠.
(٢)نفسه، ص ٢١.
(٣)محمد اسماعيل على: المرجع السابق، ص ٤٠٢.

صدور قراره فى شأن الدولة المعتدية بالاجماع فإن الاجماع فى معظم هذه الحالات ليس سهلا ، يضاف إلى ذلك أن نصوص الميثاق لا يتضح منها طريقة تنفيذ التدابير الجماعية التى يمكن أن تتخذها الجامعة فى حالة إجماع الأعضاء على مساعدة الدول المعتدى عليها.(١)

أما عن مجلس الدفاع المشترك فهو يمثل قمة الهرم التنظيمى فى التحالف العربى، وهو يتكون من وزراء الخارجية والدفاع فى الدول المتعاقدة أو من ينوبون عنهم، ويختص المجلس بالاشراف على كيفية تنفيذ كافة الالتزامات المتعلقة بالدفاع المشترك، وعلى وجه الخصوص الاشراف على أعمال اللجنة العسكرية، وهو الذى يملك سلطة إصدار قرارات ملزمة فى ذلك، وما يقره المجلس بأكثرية ثلثى الدول الأعضاء يكون ملزما لجميع الدول المتعاقدة. (٢)

٥-عدم تعارض ميثاق الجامعة مع أهداف ومبادئ الأمم المتحدة:

ويستند هذا المبدأ على ما تؤكده المادة ١/٥٢ من ميثاق الأمم المتحدة والتى تبيح قيام تنظيمات او وكالات اقليمية ما دامت هذه التنظيمات أو الوكالات متلائمة فى أنشطتها مع أهداف الأمم المتحدة ومبادئها كما يجد سنده أيضا فى المادة ١٠٣ من ميثاق الأمم المتحدة والتى تنص على أنه إذا تعارضت الالتزامات التى يرتبط بها أعضاء الأمم المتحدة وفقا لميثاقها مع أى التزام دولى آخر يرتبطون به، فالعبرة بالتزاماتهم المترتبة على ميثاق الأمم المتحدة. (١)

أحكام العضوية فى الجامعة العربية:

للحصول على عضوية الجامعة العربية يجب توافر شرطين هما:

أولا: شرط الاستقلال:

تنص المادة الأولى من ميثاق الجامعة على أن تؤلف من الدول العربية المستقلة ، ومن هنا فلابد للدولة التى تطلب العضوية ان يتوافر فيها وصف الدولة المستقلة بحيث تكون لها كافة اختصاصات السيادة الداخلية والخارجية فى إدارة أمورها دون أن يقيدها قانون دولة أخرى. (٢)

---

(١)شكرى : المرجع السابق، ص ٢٢.
(٢)محمد عزيز شكرى: الأحلاف والتكتلات فى السياسة العالمية، الكويت، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨، ص ٩٧- ٩٨.
(١)محمد اسماعيل على: المرجع السابق، ص ٤٠٥.
(٢)نفسه، ص ٤١٨.

ثانيا: شرط العروبة:

ان تكون جنسية الدول المنضمة إلى الجامعة عربية، ولما كان ميثاق الجامعة لا يتضمن تعريفا لماهية العروبة، فقد رأى البعض أن اللغة العربية هى معيار العروبة، واعتبرها شرطا أساسيا لدخول الجامعة، كما رأى البعض الآخر أن حقيقة شعور شعب الدولة طالبة الانضمام بأنه جزء من الأمة العربية يعتبر من الأسس الهامة لمعيار العروبة، ومن هنا انضمت الصومال إلى الجامعة رغم أن شعبها لا يتكلم العربية. (١)

منظمات الجامعة:

أولا: مجلس الجامعة:

يتكون من ممثلى الدول الأعضاء، ولكل دولة صوت واحد وهو يجتمع عادة فى مقر الجامعة فى دورتين عاديتين احداهما فى مارس والأخرى فى سبتمبر، وله أن ينعقد فى دورة استثنائية أو أكثر بناء على طلب دولتين فأكثر كما يجوز له أن ينعقد فى أى مكان آخر غير مقره الأصلى. (٢)

ويتوسط مجلس الجامعة فى الخلافات التى تنشب بين أعضائه والتى يخشى منها وقوع حرب بين دولتين من أعضائها أو غيرها، وذلك للتوفيق بينهما ، وفى حالة وقوع اعتداء من دولة على دولة من أعضاء الجامعة أو خشية وقوعه فللدولة المعتدى عليها أو المهددة أن تطلب دعوة المجلس إلى الانعقاد فورا ، ويقرر بعدها المجلس التدابير اللازمة لرفع هذا الاعتداء، ويصدر القرار بالاجماع ، وما يقرره المجلس بالاجماع يكون ملزما لجميع الدول الأعضاء، وما يقرره بالأكثرية يكون ملزما لهذه الأكثرية.

ثانيا: اللجان الفنية:

وتتكون من عشر لجان وهى اللجنة السياسية، واللجنة الثقافية الدائمة، واللجنة الدائمة للمواصلات، واللجنة القانونية الدائمة، واللجنة الاجتماعية الدائمة، ولجنة خبراء البترول العربى، واللجنة الدائمة للاعلام العربى، واللجنة العسكرية الدائمة، واللجنة الصحية الدائمة، واللجنة الدائمة لحقوق الانسان.

وتتولى هذه اللجان وضع قواعد التعاون العربى ومداه ، وصياغتها فى شكل مشروعات اتفاقات تعرض على مجلس الجامعة لاقرارها، وعرض ما يحتاج منها

---

(١)محمد عزيز شكرى: المرجع السابق، ص ٢٤.

(٢)حسن ابراهيم وآخرون: المرجع السابق، ص ١٧٦.

على الدول الأعضاء للارتباط بها بشكل معاهدات، ويجوز لهذه اللجان الفنية إنشاء لجان فرعية مرتبطة بها. (١)

ثالثا: الأمانة العامة:

وهى الجهاز الادارى للجامعة، ويتألف من أمين عام وأمناء مساعدين، وبعض المتخصصين. (٢)

ويعين الأمين العام لمجلس الجامعة بأكثرية ثلثى الأعضاء، ويقوم هو بدوره بتعيين الأمناء المساعدين، والموظفين الرئيسيين، كما يتولى دعوة مجلس الجامعة للانعقاد، ويقوم بإعداد مشروع ميزانية الجامعة، ويعرضه على المجلس قبيل بداية كل سنة مالية. (٣)

وقد تعاقب على امانة الجامعة سبعة أمناء هم:

١-عبد الرحمن عزام (مصر)

٢-عبد الخالق حسونة (مصر)

٣-محمود رياض (مصر)

٤-الشاذلى القليبى (تونس)

٥-أحمد عصمت عبد المجيد (مصر)

٦-عمرو موسى (مصر)

٧-نبيل العربى (مصر)

انتقال مقر الجامعة من مصر إلى تونس:

نتيجة لردود الفعل العربية تجاه توقيع معاهدة السلام بين مصر واسرائيل(١)، عقد مجلس الجامعة العربية على مستوى وزراء الخارجية والاقتصاد والمال العرب اجتماعا فى ١٩٧٩/٣/٢٧ وقرر سحب سفراء الدول العربية من مصر، وقطع العلاقات السياسية والدبلوماسية معها، وتعليق عضويتها فى جامعة الدول العربية(٢)، ونقل مقر الجامعة من القاهرة إلى تونس، وإبلاغ جميع المنظمات والهيئات الدولية

---

(١)محمد اسماعيل على: المرجع السابق، ص ٤٣٥.

(٢)حسن ابراهيم وآخرون: المرجع السابق، ص ١٧٦- ١٧٧ .

(٣)ابو هيف: المرجع السابق، ص ٦٨٧.

(١)عن ردود فعل توقيع هذه المعاهدة انظر: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، المعاهدة المصرية الاسرائيلية نصوص وردود فعل بيروت، ١٩٧٩، ص ٤.

(٢)عبد الرازق اسود: الموسوعة الفلسطينية، الدار العربية للموسوعات الطبعة الأولى، ١٩٧٩، ص ١٢٣٦.

والاقليمية بذلك، وبأن التعاون مع الجامعة يتم مع أمانتها فى مقرها الجديد المؤقت واتخاذ كافة التدابير اللازمة ضد أى إجراء قد تتخذه الحكومة المصرية لعرقلة نقل مقر الجامعة أو المساس بحقوقها وممتلكاتها.

ونتيجة لذلك تم نقل مقر الجامعة إلى تونس وبعد أن عادت الأمور إلى مجراها الطبيعى بين مصر وشقيقاتها العربيات عرضت على المجلس مسألة عودة مقر الجامعة إلى مكانة الأصلى بالقاهرة، وقد وافق المجلس على ذلك، وانتقلت الجامعة إلى مقرها الدائم فى القاهرة فى الحادى والثلاثين من اكتوبر ١٩٩٠ بعد غياب احد عشر عاما.

المشكلات التى ساهمت الجامعة فى حلها:

من الصعب على أحد ان ينكر الدور البارز الذى لعبته الجامعة العربية من أجل تحرير بعض البلدان العربية التى كانت رازحة تحت الاستعمار وذلك أما عن الطريق الدبلوماسى أو بالوسائل المادية والمعنوية وفيما يلى نعرض لأهم المشكلات التى ساهمت الجامعة فى حلها:

١-فى المجالات العربية:

بذلت الجامعة جل جهودها لدعم الاستقلال الوطنى لأعضائها والدول العربية التى كانت رازحة تحت الاحتلال، وقد برز ذلك فى مساندتها للشعب السورى واللبنانى للحصول على استقلاله عن فرنسا[١]، ودعمت الجامعة مطالب مصر بجلاء الجنود البريطانيين عن أراضيها ابتداء من عرض القضية على مجلس الأمن فى صيف ١٩٤٧ وحتى توقيع اتفاقية الجلاء عام ١٩٥٤.

وساندت الجامعة العربية الشعب الليبى فى الحصول على استقلاله، وطالبت بسحب القوات الأجنبية من ليبيا[٢]، كما سعت الجامعة لمساعدة شعوب منطقة الخليج العربى فى المحافظة على عروبتها واستقلالها وساندت فى عام ١٩٦١ الكويت ووقفت بجانبه فى وجه تهديدات الرئيس العراقى عبد الكريم قاسم وأرسلت قوات طوارئ عربية للدفاع عن استقلال الكويت، وكذلك سعت الجامعة دوما لابراز الكيان الفلسطينى، والدفاع عن حقوق الفلسطينين فى العودة إلى وطنهم[٣]، لدرجة يمكن معها

---

(١)دروزيل: التاريخ الدبلوماسى: ترجمة نور الدين حاطوم – دمشق، دار الفكر، ١٩٧٨، ص ١٥٤، وايضا شاكر الدبس، الدول العربية فى منظمة الأمم المتحدة، دمشق، مطبعة الانشاء، ١٩٤٨، ص ٩١.

(٢)سامى حكيم: استقلال ليبيا بين جامعة الدول العربية والأمم المتحدة، القاهرة، الأنجلو المصرية، ١٩٧٠، ص ٢٤٨.

(٣)شكرى: المرجع السابق، ص ٧٠- ٧٢.

القول بأن التاريخ السياسى للجامعة ارتبط بالقضية الفلسطينية منذ نشأة الجامعة وحتى الآن.

٢ـفى المجال الدولى:

قامت الجامعة العربية بتوثيق صلاتها بالأمم المتحدة منذ نشأتها فلها وفد فى الأمم المتحدة وهى عضو فى منظمة التربية والعلوم والثقافة (اليونسكو) وفى منظمة الأغذية والزراعة، وفى منظمة الصحة العالمية يضاف إلى ذلك ان الجامعة وقعت مع الأمم المتحدة اتفاقا على اعتبارها منظمة اقليمية دولية لها امتيازات وحصانات الأمم المتحدة.

٣ـفى مجال التضامن الآسيوى الافريقى:

اهتمت الجامعة منذ مطلع عام ١٩٤٦ بقضية استقلال اندونسيا، واتخذت قرارات أيدت فيها حق الشعب الأندونيسى فى تقرير مصيره، كما بادرت بالاعتراف بالجمهورية الأندونيسية منذ قيامها وتشارك الجامعة بصفة مراقب فى مؤتمرات عدم الانحياز، كما تشارك فى اجتماعات منظمة الوحدة الأفريقية وتسعى إلى تنمية الاتصالات بينهما لخدمة الأعراف الدولية. (١)

المشكلات التى لم تتمكن الجامعة من إيجاد حلول لها:

عجزت الجامعة غير مرة فى حل العديد من المنازعات العربية منها أنها أساءت تقدير الموقف فى فلسطين خلال حرب ١٩٤٨ وأنها عجزت عن معالجة الأزمة اللبنانية فى عام ١٩٥٨ وفى عام ١٩٧٥ وكان موقفها ضعيفا خلال النزاع المصرى السعودى حول اليمن.

وفى أعقاب الغزو العراقى للكويت فى الثانى من أغسطس ١٩٩٠ تعرضت الجامعة العربية لهزة عنيفة وإلى اختبار عسير تكشف خلاله عن وجود خلل كبير فى العلاقات العربية، وعن وجود ثقوب عميقة فى أساليب العمل المشترك بينها فقد عجزت الجامعة كاطار أساسى للنظام الاقليمى العربى عن القيام بدورها فى الوقت الذى كان فيه الجميع يرغب فى ان يستظل بظلها من قيظ الأمة الحالك، ولم تستطيع أن تكون أكثر من ملتقى تتقابل فيه وتتصادم أيضا نزعات وتوجهات يختلف أسبابها باختلاف المصالح ومراحل النمو والتطور. (٢)

وفضلا عن ذلك فان الجامعة لم تستطع خلال الأزمة الليبية الغربية التوصل إلى مخرج مشرف مما يؤكد على أهمية النظر فى ميثاق الجامعة لتحقيق تطلعات

---

(١)نفسه، ص ٧٣- ٧٤.
(٢)الاهرام فى ١٩٩٢/٣/٢٥.

العرب وإعادة الحياة إلى مؤسسات العمل العربي المشترك وبخاصة فى المجال الاقتصادى والثقافى والعسكرى حتى تتواكب مع المتغيرات العربية والاقليمية والدولية ولتسهم فى تحقيق تطلعات العرب فى التكافل والتضامن والأمن المشترك.

ومما سبق يتضح أن الجامعة العربية وأن لم تحقق العديد من أهدافها فانها ساهمت بدور واضح فى استقلال بعض الدول العربية، وفى توحيد نظم التعليم والتقريب بين القوانين، والتخطيط المشترك بين اعضائها فى شئون المواصلات، والطرق، والغرف التجارية والصناعية والزراعية.

ومع ذلك فالمأمول من الجامعة ان تكون منظمة قوية ذات أهداف طموحة وممكنة التنفيذ لا أن تبقى بأهداف تقليدية تتلاعب بها العواطف وتقذف بها التيارات.

إن المطلوب هو بعث الجامعة العربية فى ثوب جديد يعيد النظر فى الحسابات بدقة ، وقد يسهل القيام بهذه المهمة عندما تتحول الجامعة من جامعة للحكومات إلى جامعة للشعوب، ويتم صياغة ميثاقها لمزيد من التضامن الحقيقى حتى تستطيع التخلص مما تعانيه من قيود تحد من قدرتها على الانجاز القومى المطلوب.

هناك ما يزيد على المائتين من المعاهدات والمواثيق والدساتير ومشاريع الدساتير والاتفاقات والقرارات القائلة بالتحالف والتعاون بين الدول العربية.

هناك مثلا ميثاق جامعة الدول العربية والاتفاقات المنبثقة عنه والتى يبلغ عددها ٢٢ اتفاقا ومعاهدة ولعل أهم تلك المعاهدات والاتفاقات هى المعاهدة الثقافية العربية الموقعة فى القاهرة فى ٢٧ نوفمبر ١٩٤٥، ومعاهدة الدفاع والتعاون المشترك بين دول الجامعة وملحقها العسكرى والموقعة فى ١٢ ابريل ١٩٥٠.

وهناك معاهدة الوحدة الاقتصادية بين دول الجامعة العربية والموقعة فى ٣ يونيو ١٩٥٧ وهناك اتفاقية تنسيق السياسة البترولية الموقعة فى ١٣ مارس ١٩٦٠ وهناك دستور منظمة العمل العربية الموقع فى ١٣ مارس ١٩٦٥ وهناك ميثاق الوحدة الثقافية العربية الموقع فى ٢٩ فبراير لعام ١٩٦٤ وهناك دستور المنظمة العربية للتربية والثقافة الموقع فى ٢٩ فبراير ١٩٦٤ ومن ثم هناك ما هو أكثر اهمية من ذلك وهو اتفاقية السوق العربية المشتركة، وهناك الاتفاقية القاضية بإنشاء المؤسسة المالية العربية للأنماء الاقتصادى الموقعة فى ٣ يونيو ١٩٥٧ وهناك وهناك الكثير وانه لو جرى تنفيذ عشرة بالمائة فقط من تلك الاتفاقيات والمواثيق والمعاهدات لكانت أحوال العالم العربى افضل بكثير مما هى عليه الان، ولكان العرب قد تجنبوا الكثير من النكبات والكوارث التى نزلت بهم ولم يستطيعون عنها فكاكا.

فهرست